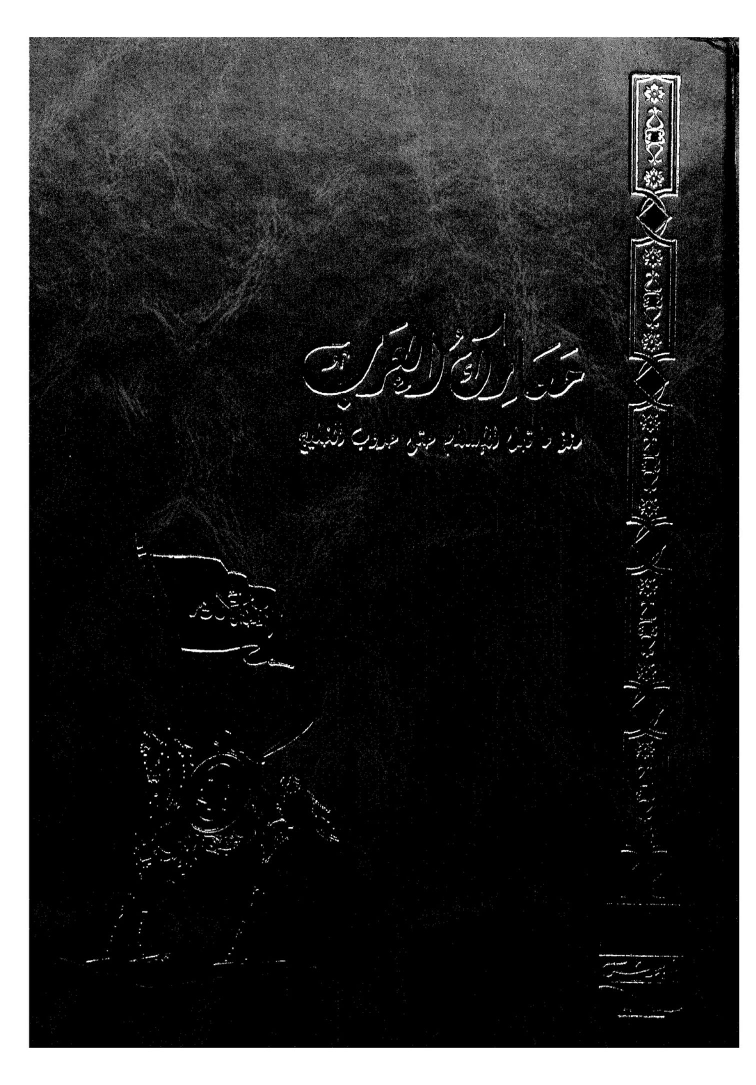

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب 5

اسم الموسوعة : معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب : الفتوحات الكبرى (2) - فتح العراق وفارس
المؤلّف : العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب : 20x28 سم
عدد الصفحات : 216
عدد صفحات الموسوعة : 5920
مكان النشر : بيروت - لبنان
دار النشر والتوزيع : دار نوبليس
تلفاكس : 961 1 58 34 75
هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام

وحتى حروب الخليج

المجلّد (5)

الفتوحات الكبرى (2)

فتح العراق وفارس

NOBILIS

2007

المقدّمة

لم تقتصر نتائج معركة القادسية على النتائج المباشرة والتي سبق الحديث عنها في الجزء السابق من هذه الموسوعة، إنما تعدّتها لتشكّل نهاية مرحلة في تاريخ بلاد ما بين النهرين وبداية مرحلة جديدة في العراق وبلاد فارس استمرّت حتى الآن، هي مرحلة الحضارة الإسلامية.

لقد اعتبرت معركة القادسية، كما سبق القول، فاتحة لإنهاء الحكم الفارسي في العراق وبلاد ما بين النهرين والذي تعود جذوره إلى نحو ٦٠٠ سنة قبل الميلاد. فالقبائل الإيرانية الفارسية، التي هي من أصل هندوأوروبي، كانت تمارس الرعي والزراعة وتعيش متنقّلة في مواجهة الممالك الساميّة المنتشرة في بلاد ما بين النهرين.

وأول قبيلة كانت قد شكّلت حكماً ذاتياً حوالى العام ٦٠٠ ق.م. هي قبيلة «أنشان» الاخمينية التي نزل منها قورش الثاني (٥٥٠ - ٥٢٨ق.م) المتحدّر من أخميني مؤسّس مملكة فارس، الذي تمكّن من توحيد القبائل المنتشرة في آسيا الصغرى تحت لوائه، بعد انتصاره على الميديين.

وامتاز رجال قورش بالبطش ورمي النبال وفنون الحرب، ووصفهم المؤرّخون بأنهم «أعظم رجال الحرب الذين ولدوا تحت سماء الشرق».

وهنا يمكننا التساؤل: «هل ينطبق هذا الوصف على الفرس الذين كانوا يحاربون المسلمين؟» وما سبب تراجع الروح الحربية عند الفرس الذين واجهوا القبائل العربية؟ ذلك لأن غالبية المعارك التي ربحها العرب ضد الفرس، أثناء فتح العراق، كانت الجيوش الفارسية خلالها تفوق الجيوش العربية الإسلامية بأضعاف.

فهل سبب ذلك عائد فقط إلى تراجع الروح العسكرية لدى الفرس؟

أم أنّ اقتراب مجتمعهم من التحضّر والدعة والمسالمة جعلهم يتخلّفون في الميدان العسكري؟

لقد سبق وحلّلنا في أجزاء سابقة وضع المملكة الفارسية الذي أدى إلى انهيارها. إلا أننا نريد التركيز في مقدّمة هذا الجزء على موضوع البداوة والتحضّر وعلاقتها بالحرب والقتال. فنحن نرى أن أهل البداوة هم أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر.

كتب ابن خلدون في مقدّمته:(١)

«أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر. والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جُنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولّت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم، فلا تهيّجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد منهم، غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال».

هذا الوصف ينطبق فعلاً على أهل فارس الذين سبق ووصفنا جيشهم بأنه كان يجمّع من الولايات وتشكّل من مجموعات مختلفة من المقاتلين لا رابط بينهم.(٢)

أما المقاتلون العرب من أهل البداوة والذين ظهرت مقدرتهم الحربية في معارك العراق فكتب ابن خلدون عنهم:(٣)

«وأهل البدو، لتفرّدهم عن المجتمع وتوحّشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كلّ

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، دون تاريخ، ص ٩٩.

(٢) للتفاصيل عن هذا الموضوع انظر كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ»، دار الحداثة، ١٩٩٦، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٩٩.

جانب في الطريق، ويتجافون عن الهجوع إلاّ غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبآت والهيعات ويتفرّدون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية...».

لذلك انتصر المسلمون بأعداد قليلة على أبناء قورش الذي كان قد استولى على العراق السنة ٥٤٠ق.م، وبابل وسوريا وفلسطين السنة ٥٣٩ق.م، وبسط سلطانه من حدود المتوسّط حتى الهند مع بعض الجزر اليونانية. كما أخضع ابنه قمبيز (٥٢٩ - ٥٢٢ق.م.) مصر والأقاليم المجاورة. أما داريوس أو دارا الأول، فملك ٢٦ سنة، قام خلالها بفتوحات في الأقاليم المتاخمة للسند شرقاً، وضم المدن الاغريقية الغنية على الساحل الآسيوي.

ونشبت في عهد هذا الأخير الحروب الميدية مع اليونان حيث اندحرت قواته في معركة ماراتون الشهيرة العام ٤٩٠ق.م. وفي عهد ابنه اكسرخوس دارت الدائرة على الجيوش الفارسية في معركة سلاميس البحرية العام ٤٨٠ ق.م.

وفي عهد دارا الثالث حُطّمت الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر المقدوني إثر معركة أيسوس السنة ٣٣٣ق.م.

ورغم هذه الهزائم بقيت المملكة الفارسية قائمة حتى ظهور الإسلام كونها كانت قد أعادت سيطرتها على كلّ مناطق بلاد ما بين النهرين، رغم تراجعها عن بلاد الشام حيث سيطرت الامبراطورية البيزنطية. كما أن كل الهزائم التي تعرض لها الفرس في الصراع مع هذه الامبراطورية لم تنهِ وجود المملكة الساسانية.

لكن إنهاء وجود هذه المملكة كان على يد العرب المسلمين خلال ما درج المؤرّخون على تسميته بـ«فتوح العراق» التي بدأت بمعركة القادسية واستمرّت بالمعارك الأخرى على جبهة العراق التي سنتكلّم عنها في هذا الجزء من الموسوعة.

الفصل الأول
فتح المدائن

كانت المدائن، عاصمة الفرس، قد أصبحت مكشوفة بعد معركة القادسية، إذ أن الملك يزدجرد كان قد قرّر خوض معركة حاسمة مع المسلمين، خلافاً لرأي قائد الجيش الفارسي رستم، فكانت معركة القادسية التي فتحت الطريق أمام المسلمين إلى المدائن.

فبعد أن انتهى سعد بن أبي وقّاص من ترتيب شؤون المسلمين في القادسية جاءه أمر الخليفة عمر بن الخطاب بالسير نحو المدائن، على أن يترك النساء والعوائل في العتيق بالقادسية.

كتب الطبري: «عهد عمر إلى سعد حين أمره بالسير إلى المدائن أن يخلف النساء والعيال بالعتيق، ويجعل معهم كثفاً من الجند، ففعل. وعهد إليه أن يشركهم في كلّ مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم. قالوا: وكان مقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين في مكاتبة عمر في العمل بما ينبغي».(١)

أولاً – معركة بابل

نظم سعد جيشه على تعبئة، فكلف زهرة بن الحوية بقيادة المقدمة، وعبدالله بن المعتمّ بالميمنة، وشرحبيل بن السمط بالميسرة، وهاشم بن عتبة بالقلب، وخالد بن عرفطة

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٥٤.

بمؤخّرة الجيش. وكان قد زاد عدد الفرسان في الجيش الاسلامي، كما زاد عدد الإبل مما جعل التحرّك أسهل وأسرع.[1]

كتب ابن كثير عن القتال في بابل ما يلي:[2]

«فلما تفرّغ سعد من القادسية بعث على المقدّمة زهرة بن حوية، ثمّ أتبعه بالأمراء واحداً بعد واحد، ثمّ سار في الجيوش وقد جعل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص على خلافته مكان خالد بن عرفطة، وجعل خالداً هذا على الساقة. فساروا في خيول عظيمة، وسلاح كثير، وذلك لأيام بقين من شوال من هذه السنة، فنزلوا الكوفة وارتحل زهرة بين أيديهم نحو المدائن، فلقيه بها بصبُهري في جيش من فارس فهزمهم زهرة وذهبت الفرس في هزيمتهم إلى بابل وبها جمع كثير ممن انهزم يوم القادسية قد جعلوا عليهم الفيرزان. فبعث زهرة إلى سعد فأعلمه باجتماع المنهزمين ببابل، فسار سعد بالجيوش إلى بابل فتقابل هو والفيرزان عند بابل فهزمهم كأسرع من لفة الرداء، وانهزموا بين يديه فرقتين، فرقة ذهبت إلى المدائن، وأخرى سارت إلى نهاوند. وأقام سعد ببابل أياماً ثمّ سار منها نحو المدائن فلقوا جمعاً آخر من الفرس فاقتتلوا قتالاً شديداً وبارزوا أمير الفرس، وهو شهريار، فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له نائل الأعرجي أبو نباتة من شجعان بني تميم، فتجاولا ساعة بالرماح، ثمّ ألقياها فانتضيا سيفيهما وتصاولا بهما. ثمّ تعانقا وسقطا عن فرسيهما إلى الأرض، فوقع شهريار على صدر أبي نباتة، وأخرج خنجراً ليذبحه بها، فوقعت أصبعه في فم أبي نباتة فقضمها حتى شغله عن نفسه، وأخذ الخنجر فذبح شهريار بها وأخذ فرسه وسواريه وسلبه. وانكشف أصحابه فهزموا، فأقسم سعد على نائل ليلبسن سواري شهريار وسلاحه، وليركبن فرسه إذا كان حرب فكان يفعل ذلك. قالوا: وكان أول من تسوّر بالعراق، وذلك بمكان يقال له كوثى. وزار المكان الذي حبس فيه

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٥٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٩.

الخليل وصلّى عليه وعلى سائر الأنبياء، وقرأ: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾»[1]

وكان سعد قد طلب من زهرة أن ينطلق نحو المدائن ويدمّر كلّ ما يعترضه من مقاومات، على أن يتبعه باقي الجيش. وسبب ذلك يعود إلى عدم حشر الجيش بكامله في مسالك فرعية لا تتسع له.

وبوصول زهرة إلى منطقة اسمها «اللسان» علم أن الفرس قد ركزوا فيها حامية وكلفوا فرقة بحمايتها لجهة الشرق، أي جهة المدائن. فجهّز جنده لمهاجمة اللسان، لكن قائد الحامية واسمه «نخيرجان» انسحب مع حاميته من دون قتال نحو بابل.

أ - وقعة «بُرس»:

كتب الطبري عن الذين اجتمعوا في بابل من الفرس:[2]

«فسار زُهرة حتى ينزل الكوفة - والكوفة كلّ حصباء حمراء وسهلة حمراء مختلطتين - ثمّ نزل عليه عبدالله وشرحبيل، وارتحل زُهرة حين نزلا عليه نحو المدائن، فلمّا انتهى إلى بُرس لقيَه بها بُصْبُهرى في جمع فناوشوه فهزمهم، فهرب بُصْبُهْرى ومن معه إلى بابل وبها فالّة القادسيّة وبقايا روسائهم: النَّخيجان ومهران الرازيّ والهُرْمزان وأشباههم؛ فأقاموا واستعملوا عليهم الفيرُزان، وقدم عليهم بُصْبُهرى وقد نجا بطعنة، فمات منها».

إذن، لحق عبدالله بن المعتمّ وشرحبيل بن السمط بزهرة في الكوفة[3] الذي تركهما فيها وتابع سيره إلى ان وصل إلى «بُرْس» حيث كان يتمركز جيش من الفرس بقيادة «بصبهرى» الذي قرّر التصدّي لجيش المسلمين.

وجرت معركة بين الجيشين انتصر فيها المسلمون الذين فتحوا مدينة «بُرس»، فخرج دهقانها «بسطام» وطلب الصلح على الجزية فقبل زهرة شرط فتح المدينة أمام المسلمين وربط الجسور على «نهر النيل» الذي هو فرع من الفرات.

---

(١) آل عمران: من الآية ١٤٠.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء٢، ص ٤٥٥.

(٣) الكوفة: اسم يطلق على الأرض السهل الحمراء. وقد بنيت فيما بعد في تلك المنطقة مدينة الكوفة.

ثمّ طلب زهرة من بسطام إرسال جواسيس إلى بابل لمعرفة من اجتمع بها من الفرس. ففعل. كتب ابن الأثير عن الصلح مع بسطام ما يلي:(١)

«فلمات هُزم بصبهرى أقبل بسطام دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل».

ومما أخبرت جواسيس بسطام زهرة أن فلول الجيش الفارسي تتجمّع في بابل بأعداد كبيرة بعد أن وصلها قادة جيش رستم مهران والهرمزان والفيرزان الذي سموه أميراً على الجميع.(٢)

ب - المعركة في بابل:

عندما علم زهرة بحجم التجمّعات الفارسية في بابل كتب إلى سعد بن أبي وقاص، الذي كان قد وصل الكوفة، يطلب منه المدد بعد أن أعلمه باجتماع المنهزمين في بابل.

كتب الطبري يصف إمداد سعد لزهرة وقتال بابل:(٣)

«قالو: ولمّا أتى بِسْطام زهرة بالخبر عن الذين اجتمعوا ببابل من فُلاّل القادسيّة، أقام وكتب إلى سعد بالخبر. ولمّا نزل سعد على مَن بالكوفة مع هاشم بن عتبة، وأتاه الخبر عن زُهرة باجتماع الفرس ببابل على الفيرُزان، قدّم عبدالله، وأتبعه شُرحَبيل وهاشماً، ثمّ ارتحل بالناس. فلمّا نزل عليهم بُرْس، قدّم زهرة فأتبعه عبدالله وشُرحَبيل وهاشماً، واتّبعهم فنزلوا على الفيرُزان ببابل، وقد قالوا: نقاتلهم دَسْتاً قبل أن نفترق. فاقتتلوا ببابل، فهزموهم في أسرع من لَفْت الرداء، فانطلقوا على وجوههم؛ ولم يكن لهم همّة إلاّ الافتراق. فخرج الهرمزان متوجّهاً نحو الأهواز، فأخذها فأكلها ومِهرْجان قَذق. وخرج الفيرُزان معه حتى طلع على نَهاوَنْد، وبها كنوز كسرى؛ فأخذها وأكل الماهَين. وصمد النّخيرجان ومِهران

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٣.
(٢) الفيرزان هو الذي نافس رستم على عرش فارس بعهد بوران.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٥٥.

الرازيّ للمدائن، حتى عبرا بَهُرسير إلى جانب دِجْلة الآخر، ثمّ قطعا الجسْر. وأقام سعد ببابل أيّاماً، وبلغه أن النّخيرجان قد خلّف شهريار؛ دهقاناً من دهاقين الباب بِكُوثَى في جمع، فقدّم زهرة ثمّ أتبعه الجنود فخرج زهرة حتى ينزل على شهريار بكُوثى بعد قتل فيومان والفَرُّخان فيما بين سُورا والدّير».

وهكذا، وصل سعد وجيشه إلى بابل واشتبك مع الجيش الفارسي الذي هزم وهرب قادته وجنده في مختلف الاتجاهات فاتجه هرمزان إلى مسقط رأسه في الأهواز حيث استولى على «مهرجان» و«قذق».[١]

الفيرزان، من جهته، اجتاز المدائن إلى نهاوند، واتجه مهران إلى المدائن مع نخيرجان وقررا البقاء فيها حتى التحاق فلول جيش رستم إليها بعد أن ركزا قوّة من جيشهما بقيادة الدهقان شهريار في «كوثي».

تقدم زهرة نحو الفرس، فكتب ابن الأثير عن ذلك:[٢]

«فقدّم زهرة بين يديه بكير بن عبد الله الليثي، وكثير بن شهاب السعدي، حتى عبرا الصُّراة،[٣] فلحقا بأخريات القوم، وفيهم فيومان، والفرّخان. فقتل بكير الفرّخان، وقتل كثير فيومان بسورا، وجاء زهرة فجاز سورا ونزل، وجاء سعد وهاشم والناس ونزلوا عليه. وتقدّم زهرة نحو الفرس، وكانوا قد نزلوا بين الدير وكوثى، وقد استخلف النخيرخان ومهران على جنودهما شهريار دهقان الباب، فنازلهم زهرة، فبرزوا إلى قتاله، وخرج شهريار يطلب المبارزة...».

كلّف زهرة رجلاً من أشد فرسان تميم اسمه «ابونباته» فخرج إلى شهريار وتقاتلا فقُتل شهريار واستولى أبونباته على فرسه وما عليه من مجوهرات.[٤]

---

(١) شرق شط العرب.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٤.

(٣) الصراة: نهران ببغداد، الصراة الكبرى والصراة الصغرى.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٩.

وكانت وقعة بابل وما تلاها من وقفات في السنة ستة عشرة للهجرة.

إبن خلدون، من جهته، اختصر هذه الأحداث، فكتب:(١)

«ولمّا انهزم أهل فارس بالقادسية انتهوا إلى بابل وهديل وفيهم بقايا الرؤساء النَخِيزّجان ومَهران الأهوازي والهرمزان وأشباههم، واستعملوا عليهم الفيرزان. وأقام سعد بعد الفتح شهرين، وسار بأمر عمر إلى المدائن، وخلّف العيال بالعتيق في جند كثيف حامية لهم، وقدم بين يديه زهرة بن حياة وشرحبيل بن الصمت وعبدالله بن المُعتَمِر، ولقيهم بعض عساكر الفرس فهزموهم حتى لحقوا ببابل. ثمّ جاء سعد وسار في التبيعة ونزلوا على الفيرزان ومن معه ببابل، فخرجوا وقاتلوا المسلمين فانهزموا وافترقوا فرقتين. ولحق الهرمزان بالأهواز والفيرزان بنهاوند، وبها كنوز كسرى.

وسار النخيزجان ومهران إلى المدائن فتحصنوا وقطعوا الجسر. ثمّ سار سعد من بابل على التعبية وزهرة في المقدّمة. وقدم بين يديه بكير بن عبدالله الليثي وكُثير بن شهاب السبيعي حتى عبرا ولحقا بأخريات القوم فقتلا في طريقهما اسوارين من أساورتهم. ثمّ تقدّموا إلى كوثي وعليها شهريار، فخرج لقتالهم فقتل وانهزم أصحابه فافترقوا في البلاد، وجاء سعد فنفل قاتله سلبه».

ثانياً – القتال في ساباط وفتح بهرسير

تابع سعد تقدمه نحو المدائن بهدف مهاجمتها واحتلالها. وكانت استراتيجيته تقضي بفتح كلّ المدن التي تعترض طريقه وذلك كي لا يترك أعداءً خلفه عندما يقاتل في المدائن. وأرسل زهرة وفرقته في الطليعة، فسارت حتى إذا اقتربت من سباط خرج دهقانها «شيرزاد» طالباً الصلح، فصالحه زهرة لقاء الجزية وفتحت ساباط صلحاً.(٢)

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٣٥ – ٩٣٦.

(٢) «شيرزاد» كان دهقان الأنبار، وهو الذي صالح خالد بن الوليد على فتحها. فلماذا أعيد تكليفه الدفاع عن ساباط بمخالفة لقول النبيّ ﷺ: لا يُلدغ المؤمن من الجُحر مرتين.

وسار وراء زهرة عبدالله بن المعتمّ على الميمنة الإسلامية، وشرحبيل على الميسرة، وهاشم على القلب، وخرج سعد في إثرهم ومعه شيرزاد. وبوصول القوات الإسلامية إلى ضواحي ساباط، أرسل الفرس قوة قتالية من «كتائب كسرى» تحمل إسم ابنته بوران ورايتها.

أكمل ابن الأثير رواية القتال في ساباط إذ كتب: (١)

«ثمّ إنّ سعداً قدم زهرة إلى بهرسير، فمضى في المقدّمات فتلقاه شيرزاد دهقان ساباط بالصلح فأرسله إلى سعد فصالحه على تأدية الجزية. ولقي زهرة كثيبة بنت كسرى التي تدعى بوران، وكانوا يحلفون كلّ يوم أن لا يزول ملك فارس ما عشنا فهزمهم. وقَتَل هاشم بن عتبة – وهو ابن أخي سعد المقراط وهو أسد كان لكسرى قد ألفه – فقبّل سعد رأس هاشم، وقبّل هاشم قدم سعد، وأرسله سعد في المقدّمة إلى بَهُرَسِيرْ فنزل إلى المظلم.

ثمّ ارتحل فنزل على بهرسير، ووصلها سعد والمسلمون فرأوا الإيوان، فقال ضرار ابن الخطاب: الله أكبر أبيض كِسرى، هذا ما وعد الله ورسوله. وكبّر وكبّر الناس معه، فكانوا كلّما وصلت طائفةٌ كبّروا، ثمّ نزلوا على المدينة، وكان نزولهم عليها في ذي الحجة. [فكان مقامه بالناس على بهرسير شهرين وعبروا في الثالث]».

وعمد سعد أمام بهرسير إلى إرسال جنوده لغزو القرى الموجودة في تلك المنطقة، يرافقهم دهقان بسطام. ورغم ذلك لم يخرج أي مقاتل من بهرسير لمقاتلة العرب. أما الدهاقين في غربي دجلة، فقد دخلوا في ذمّة المسلمين الذين شددوا الحصار على بهرسير.

كتب ابن خلدون عن القتال حول بهرسير (أو بهرشير) ما يلي: (٢)

«وتقدم زهرة إلى ساباط فصالحه أهلها على الجزية وهزم كتيبة كسرى ثمّ نزلوا جميعاً على بهرشير من المدائن. ولما عاينوا

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٤ – ٣٥٥.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٣٦ – ٩٣٧.

الايوان كبّروا وقالوا: هذا أبيض كسرى، هذا ما وعد الله. وكان نزولهم عليها ذا الحجة سنة خمس عشرة. فحاصروها ثلاثة أشهر ثمّ اقتحموها، وكانت خيولهم تغير على النواحي، وعهد إليهم عمر ان من أجاب من الفلاحين ولم يعن عليهم فذلك أمانه، ومن هرب فأدرك فشأنكم به. ودخل الدهاقين من غربي دجلة وأهل السواد كلّهم في أمان المسلمين، واغتبطوا بملكهم. واشتدّ الحصار على بهرشير ونصبوا عليه المجانيق، واستلحموهم في المواطن، وخرج بعض المرازبة يطلب البراز، فقاتله زهرة بن حيوة فقتلا معاً. ويقال: إنّ زهرة قتله شبيب الخارجي أيام الحجاج.

ولما ضاق بهم الحصار وركب إليهم الناس بعض الأيام، فلم يروا على الأسوار أحداً إلاّ رجلاً يشير إليهم فقال: ما بقي بالمدينة أحد، وقد صاروا إلى المدينة القصوى التي فيها الايوان. فدخل سعد والمسلمون».

وهكذا فتح المسلمون بهرسير بعد أن غادرتها حاميتها، وكان دخولها عند بداية الليل. وبهرسير هي إحدى المدن السبع المجاورة للمدائن، ومنها ظهر للمسلمين إيوان كسرى الشهير.

وكان عدد جنود جيوش سعد ستين ألفاً.

وذكر ابن الأثير أن سعداً أسر مائة ألف من الفلاحين، فأرسل إلى الخليفة يستشيره في أمرهم فأجابه «إن من جاءكم من الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم، فهم أمانهم. من هرب فأدركتموه فشأنكم به، فخلّى عنهم سعد».(١)

أما الطبري، فكتب عن الموضوع نفسه:(٢)

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب: عن سيف، عن محمّد وطلحة والمهلب، قالوا: لما نزل سعد على بَهرسير بثّ الخيول، فأغارت على ما بين دِجْلة إلى مَن له عهد من أهل الفرات، فأصابوا مائة ألف فلاّح، فحسِبوا، فأصاب كلٌّ منهم فلاحاً؛ وذلك

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٥٨.

أنّ كلّهم فارس ببهرسير. فخندق لهم، فقال له شيرزاذ دِهْقان ساباط: إنك لا تصنع بهؤلاء شيئاً؛ إنما هؤلاء علوج لأهل فارس لم يجرّوا إليك. فدعهم إليّ حتى يفرُق لكم الرأي. فكتب عليه بأسمائهم، ودفعهم إليه، فقال شيرزاذ: انصرفوا إلى قراكم.

وكتب سعد إلى عمر: إنّا وردنا بَهرَسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسيّة وبَهُرسير، فلم يأتنا أحد لقتال؛ فبثثتُ الخيول، فجمعت الفلاحين من القرى والآجام».

ثالثاً – الدروس المستقاة

أ – قرّر الملك الفارسي خوض معركة فاصلة مع المسلمين خلافاً لرأي قائد الجيش رستم، فكانت معركة القادسية التي خسرها الفرس.

وهنا لا بدّ من التذكير بأنه، ومنذ الزمن التي جرت فيه الأحداث التي نعالج تاريخها في هذا الجزء من الموسوعة، درجت الدول على التمييز بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية فيها. فالسلطة السياسية هي التي تدير الدولة وتحدّد سياستها العامة واستراتيجياتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتها مع ما جاورها من دول وشعوب. أما السلطة العسكرية فتهتم بتنفيذ سياسة الدول واستراتيجيتها العسكرية.

وبصورة عامة، تستشير السلطة السياسية قائد قواتها المسلحة في كلّ ما يتعلّق بالشأن العسكري دون أن تكون نتيجة هذه الاستشارة ملزمة لها قانونياً. إنما، ونظراً لأن الشأن العسكري هو اختصاص بحدّ ذاته، فإن تحديد أصول معالجته وتفاصيلها تترك عادة للعسكريين الذين يحدّدون الاستراتيجية العسكرية والوسائل اللازمة لتنفيذها ويصدرون الأوامر للوحدات الكبرى بشأنها.

ويصدف أحياناً أن يضرب القادة السياسيون آراء القادة العسكريين بعرض الحائط ويصدرون الأوامر لخوض المعارك العسكرية خلافاً لآراء الاختصاصيين، فيقعون في أخطاء قد تكون نتائجها مأساوية. هذا ما حصل خلال الحرب العالمية الثانية في المانيا حين هيمن المستشار هتلر على القرارات العسكرية دون الاستماع إلى

نصائح بعض قادته المجربين، فارتكب أخطاءً فادحة نذكر منها على سبيل المثال: فتح جبهة روسيا فيما الجيوش الالمانية كانت تحارب أيضاً على جبهات أخرى.

جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» مطالعة عن العلاقة بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية رأينا وجوب إدراجها في معرض بحثنا لهذا الموضوع:(١)

«ترتدي العلاقة بين الجيش والدولة أهمية خاصة في حياة المجتمع والشعب. وكلّما كان الإنسجام تاماً كانت الدولة في استقرار وتلاحم وقوّة. وكلّما بعد الشق بينهما، ساد المجتمع اهتزاز واضطراب ومشاكل وحتى حروب أهلية لا حصر لها.

قيل: «يجب أن يكون للدولة جيش يتبع سياستها، وليس لها أن تتبع سياسة جيشها».(٢)

فالإستراتيجية العامة تتعلّق بتوجيه الحرب، وهي من اختصاصات رؤساء الدول الذين يحددون أهداف الحرب ويوزعون المهمات طبقاً للوسائل. أما الإستراتيجية العسكرية فتتعلّق بإدارة الحرب فقط، وهي من اختصاصات القيادة العليا التي تترجم توجيهات الحكومة وتنفذها.

أجل، من الطبيعي أن يخضع الجيش للسلطة المدنية في الدولة ويعمل حسب توجيهاتها ويطبق سياستها ويكون الأداة الفعالة في يدها تستعمله حيث ترتأي. هذا الوضع الطبيعي أدى، في الماضي، إلى قيام حروب عنيفة وهدّامة كان بالإمكان تجنّبها فيما لو كان لقيادات الجيوش، الصلاحية والوعي اللازمين لمناقشة نتائج الحروب التي تشنّها الدول بهدف التوسع وفرض الإرادة على الجيران.

وهنا يطرح سؤال لم يجب عليه الإستراتيجيون والمفكرون العسكريون مباشرة، وهو: هل يحق للقيادة العسكرية مناقشة القيادة السياسية في أوامرها،

---

(١) العميد سامي ريحانا، مرجع سابق، ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) إيريك موريز، مدخل إلى التاريخ العسكري، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠ ص ٣٠.

ومخالفتها الرأي أحياناً؟ لا سيما وهي المؤهلة لإجراء دراسات استراتيجية وتقدير الموقف العسكري. أم أن عليها الطاعة المطلقة، كما يعلّم العسكري في المدارس العسكرية الإبتدائية، بضرورة التنفيذ ثمّ الإعتراض؟

وماذا لو قدّرت القيادة العسكرية أن التنفيذ لن يترك مجالاً للإعتراض فيما بعد، لأنه سيجرّ ويلات لا حصر لها؟

قبل الإجابة، لا بأس من لحظ بعض الأفكار:

أ - ينص المبدأ الأول من مبادىء الحرب على نسبية الأهداف للوسائل. بمعنى أن الهدف الملاحق يجب أن يكون بمقدور القوة العسكرية تحقيقه بوسائلها المادية والمعنوية. وكلّما شذت القيادة عن هذه القاعدة، جاءت نتائج المغامرات العسكرية مأساوية، ما خلا حالات معدودة في التاريخ العسكري اعتبر منفذوها عباقرة الفن العسكري كبونابرت وغوستاف أدولف والإسكندر المقدوني وهنيبعل.

ب - ما هو التصرّف الطبيعي للقيادة العسكرية عندما ينعكس الخلاف في القيادة السياسية على صحة القرارات العسكرية المتخذة؟

ج - والسؤال الأخطر هو: ماذا لو جُمدت القرارات العسكرية بسبب الخلاف في رأس السلطة السياسية؟

التاريخ العالمي حافل بالأمثلة عن مجتمعات أبيدت ودمّرت وديست وشرد أبناؤها بسبب عدم التوافق في قمّة الهرم القيادي على الأمر الواجب توجيهه للفرق العسكرية التي قبعت دون حول منتظرة هذا الأمر. وليس الجدل البيزنطي الذي نتكلّم عنه أحياناً إلاّ مثالاً على الخسارة التي تنتظر الدولة التي لا تحزم أمرها عندما يكون العدو على أبوابها بسبب خضوعها لضغوطات الشارع الغوغائية. «فتصادم الأراء والأهواء وتعارض المصالح في دولة ما تشكل، مع الزمن، خطراً على كيان هذه الدولة ما لم يكن لديها قوة أمنية قيمة ومخلصة وواعية لمنع تهديمها».[١]

---

(١) شارل ديغول، جنرال، نحو الجيش المحترف، دار المكشوف، بيروت، ١٩٣، ص ٦٣.

كتب الجنرال ديغول في كتابه «نحو الجيش المحترف»: «تصبح أوهام السياسة أقل خطراً إذا قامت وراءها قوات مسلحة ساهرة لا يطغى عليها شطط الرأي العام».

وتطبيقاً لما ذكرناه أعلاه، وفي دولة فارس، كان القائد العام رستم قد خبر الحرب ضد المسلمين وكان يرغب بتجنّب مواجهتهم في معركة حاسمة. لكن الملك رفض ذلك، الأمر الذي فتح طريق المدائن أمام الجيوش العربية الإسلامية المنتصرة في القادسية.

ب - وبالفعل، استغل المسلمون انتصارهم في القادسية للسير نحو بابل بتعبئة تامة وبجيش كبير حسن التجهيز بالسلاح والخيول والإبل، الأمر الذي ساهم في سرعة تحركاته ومناوراته.

وسيّر سعد الجيش كعادة المسلمين في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة وذلك تجنّباً للمفاجآت في أرض العدو.

وبغية الاحتفاظ بحرية العمل، سيّر سعد على المقدمة زهرة بن حوية على أن يتبعه باقي الجيش، فرقة بعد فرقة، وذلك لعدم حشر الجيش بكامله في مسالك فرعية وعدم اشتباك جميع وحداته مع العدو.

ج - بالمقابل، كانت وحدات الفرس المتراجعة نحو المدائن قد تعرّضت لهزائم متتالية، ما أدى إلى انهيار معنويات عناصرها التي كانت منخفضة أصلاً.

وهذا ما مكّن المسلمين من الانتصار على فرق عدة في بابل وفي الطريق إلى المدائن، وفي دفع بعضها إلى متابعة تراجعها خوفاً من الاشتباك مع الوحدات العربية المتقدمة.

فالقتال «التراجعي» أو «التأخيري» التي ينفّذه الجيش، بعد تعرّضه لهزيمة على إحدى الجبهات، هو عملية تكتيكية معقّدة تتطلّب الكثير من التنسيق بين المفارز المتراجعة بشكل يقوم بعضها بالاشتباك مع الوحدات العدوّة التي تلاحقها بهدف حماية هذه المفارز وإعطائها الوقت اللازم لإعادة تنظيم صفوفها والعودة إلى القتال المتوازن.

وهذا ما لم يحصل مع الفرس المتراجعين إلى المدائن.

د - أحسن القائد زُهرة بفرض شروط على دهقان بُرس لقبول مصالحته، إذ أنّ

الدهقان ربط الجسور على نهر النيل تمهيداً لعبور الجيش الإسلامي عليها، وزوّد المسلمين معلومات مفيدة عن الفرس المجتمعين في بابل.

فعملية استغلال النصر التي سبق وشرحناها في الجزء السابق من هذه الموسوعة قد تشمل ملاحقة فلول العدو المنهزمة أو الحصول على معلومات من هذا العدو.

وبالفعل، جاءت معلومات دهقان بُرس بفائدة كبرى للمسلمين إذ أن زهرة، وبعد أن تأكّد من حجم التجمّعات الفارسية في بابل، وتحقيقاً لمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، طلب مدداً من سعد الذي كان هو المدد، وحسم القتال لمصلحة المسلمين.

هـ - بعد معركة بابل، اعتمد سعد في تقدمه نحو المدائن استراتيجية فتح كلّ المدن الفارسية التي تعترض طريقه وذلك تأميناً لمؤخرة جيشه المتقدّم، وتحقيقاً لحرية عمله وكي لا يتعرض لمفاجآت غير مأمونة النتائج.

كما اعتمد في تأمين اللوجستية لجيشه على محاصيل البلاد التي كان يجتازها، وهي سياسة درجت الجيوش على أتباعها، منذ العهود القديمة، في الغزوات والاجتياحات الكبرى.

رابعاً – فتح المدائن

بقي سعد وجيشه في بهرسير أياماً عدة كان يراقب خلالها المدائن المقابلة لها على نهر دجلة. وكان المسلمون يطلبون من سعد عبور النهر للوصول إليها ومحاصرتها وفتحها، فكان سعد يستمهلهم. وسبب استمهاله للمسلمين أن السفن غير متوافرة للعبور لأن الملك يزدجرد أمرها بالابتعاد عن المكان خوفاً من أن يستعملها المسلمون للعبور إليه.

كتب ابن كثير عن موضوع السفن وإقامة سعد في بهرسير ما يلي:[1]

«لما فتح سعد بهرسير واستقرّ بها، وذلك في صفة لم يجد فيها أحداً ولا شيئاً مما

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦٢.

يغنم، بل قد تحولوا بكمالهم إلى المدائن وركبوا السفن وضموا السفن إليهم، ولم يجد سعد رضي الله عنه شيئاً من السفن وتعذر عليه تحصيل شيء منها بالكلية. وقد زادت دجلة زيادة عظيمة واسودّ ماؤها، ورمت بالزبد من كثرة الماء بها، وأخبر سعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر».

أ - التحضير لعبور النهر:

راح سعد يفكر في طريقة العبور إلى الجانب الآخر، فجاءه بعض الفرس وأعلموه بأن على النهر مخاضة يمكن اجتيازها إلى المدائن. لكن سعداً تردّد قبل الإقدام.

في هذه الأثناء، ولمّا تيقّن يزدجرد من قوّة المسلمين، أمر بنقل كنوزه وأمواله من المدائن إلى الداخل الفارسي في حلوان، ومنها إلى نهاوند. كما أخذ أثرياء المدينة يجلون عنها مصطحبين معهم أموالهم وجواهرهم، لذلك قرّر سعد العبور بسرعة.

كتب ابن خلدون يصف حال المسلمين قبيل العبور:(١)

«فدخل سعد والمسلمون وأرادوا العبور إليهم فوجدوهم جمعوا المعابر عندهم، فأقام أياماً من صبر، ودلّه بعض العلوج على مخاضة في دجلة فتردّد فقال له: أقدم فلا تأتي عليك ثلاثة إلا ويزدجرد قد ذهب بكلّ شيء فيها. فعزم سعد على العبور».

كما كتب البلاذري عن الموضوع نفسه:(٢)

«وسار سعد، والمسلمون فنزلوا سباط واجتمعوا بمدينة بَهُرسير، وهي المدينة التي في شقّ الكوفة فأقاموا تسعة أشهر، ويقال ثمانية عشر شهراً، حتى أكلوا مرّتين وكان أهل تلك المدينة يقاتلونهم، فإذا تحاجزوا دخلوها. فلمّا فتحها المسلمون أجمع يزدَجِرْد بن شهريار ملك الفرس على الهرب فدُلي من أبيض المدائن في زبيل فسمّاه

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٣٧.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

النبط بَرزَبيلا، ومضى إلى حُلوان ومعه وجوه اساورته. وحمل معه بيت ماله، وخفّ متاعه وخزانته والنساء والذراري، وكانت السنة التي هرب فيها سنة مجاعة وطاعون عمّ أهل فارس».

وجاء أحد الفرس وقال لسعد:

– ما يقيمك؟ لا يأتي عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكلّ شيء في المدائن.[1]

وكان سعد يعلم أن الخيل تعوم، لذلك قرّر اقتحام المخاضة فجمع المسلمين وخطب فيهم خطبة نقلها ابن الأثير إذ كتب:[2]

«ورأوا رؤيا أنّ خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت، فعزم سعد لتأويل الرؤيا فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه ويخلصون إليكم إذ شاؤوا في سفنهم فينا وشؤونكم. وليس وراءكم شيءٌ تخافون أن تؤتوا منه قد كفاكموهم أهل الأيام، وعطّلوا ثغورهم [وأفنوا ذادتهم] وقد رأيت من الرأي أن تُجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل فندب الناس إلى العبور، وقال: مَنْ يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من العبور؟ فانتدب له عاصم بن عمرو ذو البأس في ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصماً فقدّمهم عاصم في ستين فارساً وجعلهم على خير ذكور وإناث ليكون أسلس لسباحة الخيل، ثمّ اقتحموا دجلة».

ب – وصف المدائن:

كانت المدائن، عاصمة المملكة الفارسية، عبارة عن سبع مدن كان قد بناها كسرى أنو شروان، وهي طيسفون وسلوقية وأسباير وويه أردشير ودرزنيذان وبلاش آباد وماخوزا.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٧.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٥٨.

وكانت المدائن من أغنى المدن في الشرق الأدنى وفيها المباني من الرخام والمرمر والفسيفساء والحجارة المصقولة. وفيها إيوان كسرى والقصور والمنتزهات والحمامات وحلبات السباق وغيرها من المباني الضخمة والجميلة.

وأهل المدائن أغنياء يملكون القطعان والماشية، وفيها أسواق تجارية ومحال متنوّعة وحظائر الحيوانات وبساتين مختلفة.

بعض مدن المدائن تحوطها أسوار عالية وفيها الحصون والأبواب الضخمة.

نقل المؤرّخون أن في خزائن يزدجرد ثلاثة آلاف ألف ألف ألفا درهم.

هذه كانت حال المدائن في زمن الفتوحات الإسلامية العربية.

ج - عبور دجلة ودخول المدائن:

قرّر سعد العبور، وقرّر أن يتطوّع الفرسان من المسلمين لاجتياز النهر قبل غيرهم وحماية العبور، مشكلين رأس جسر على الضفة الأخرى من دجلة. وكان أول المتطوّعين عاصم بن عمرو التميمي ومعه ستمائة فارس فأمّره سعد عليهم.

وصف الطبري بدقّة عملية العبور والقتال عبر النهر وعلى الضفة الأخرى، فكتب:[١]

«فندب سعد الناس إلى العبور، ويقول: من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج؟ فانتدب له عاصم بن عمرو ذو البأس، وانتدب بعده ستّمائة من أهل النّجدات، فاستعمل عليهم عاصماً، فسار فيهم حتى وقف على شاطىء دِجْلة، وقال: مَن ينتدب معي لنمنع الفِراض من عدوّكم ولنحميكم حتى تعبروا؟ فانتدب له ستون؛ منهم أصمُّ بني ولاّد وشُرَحبيل، في أمثالهم، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذُكورة، ليكون أساساً لعَوْم الخيل. ثمّ اقتحموا دجلة، واقتحم بقيّة الستمائة على أثرهم، فكان أوّل مَن وصَل من الستين أصمّ التّيم، والكلَج، وأبو مفزّر، وشُرَحبيل، وجَحْل العجْليّ، ومالك بن كعب الهمْدانيّ، وغلام من بني الحارث بن كعب. فلمّا رآهم الأعاجم وما

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٦٠.

صنعوا أعدّوا للخيل التي تقدّمت سعداً مثلها، فاقتحموا عليهم دَجْلة، فأعاموها إليهم، فلقوا عاصماً في السَّرَعان، وقد دنا من الفِراض. فقال عاصم: الرّماح الرماحَ! أشرِعوها وتوخّوا العيون. فالتقوا فاطّعنوا، وتوخّى المسلمون عيونهم، فولّوا نحو الجُدّ، والمسلمون يشمّصون بهم خيلهم، ما يملك رجالهم منع ذلك منها شيئاً. فلحقوا بهم في الجُدّ، فقتلوا عامّتهم، ونجا مَنْ نجا منهم عُوراناً، وتزلزلت بهم خيولهم، حتى انتقضت عن الفِراض، وتلاحق الستمائة بأوائلهم الستين غير متعتعِين. ولما رأى سعد عاصماً على الفِراض قد منعها، أذن للناس في الاقتحام، وقال: قولوا نستعين بالله، ونتوكّل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم! وتلاحق عُظْم الجند، فركبوا اللجّة، وإنّ دِجْلة لترمي بالزّبد، وإنها لمُسوَدة، وإنّ الناس يتحدّثون في عومهم وقد اقتربوا ما يكترثون، كما يتحدّثون في مسيرهم على الأرض. ففجئوا أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم، فأجهضوهم وأعجلوهم عن جُمهور أموالهم. ودخلها المسلمون في صفر سنة ستّ عشرة، واستولوا على ذلك كلّه مما بقي في بيوت كسرى من الثلاثة آلاف ألف ألف، ومما جمع شيري ومن بعده».

ولما رأى سعد أن عاصم ومقاتليه قد اجتازوا إلى الضفة الأخرى وشكلوا رأس جسر لعبور المسلمين على الفراض، أذن للناس في الاقتحام فاقتحم المسلمون النهر وعبروه إلى الضفة الأخرى من دون أن يفقدوا أحداً.

أما دخول المدائن فقد وصفه ابن الأثير بتفصيل كامل إذ كتب:(١)

«وتلاحق الناس في دجلة وإنهم يتحدّثون كما يتحدّثون في البر، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطىء شيءٌ وكان الذي يساير سعداً، [في الماء] سلمان الفارسي فعامت بهم خيولهم وسعد يقول: «حسبنا الله ونعم والوكيل، والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوّه إن لم يكن في الجيش بَغيٌ أو ذُنوب تغلب الحسنات». فقال له

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٨ - ٣٦٠.

سلمان: «الإسلام جديد ذُلِّلَت لهم [والله] البحور كما ذُلِّل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً».

فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً، [ولم يغرق منهم أحد] إلاّ أنّ مالك ابن عامر العنبري سقط منه قَدَح فذهبت به جرية الماء فقال له الذي يسايره مُعيّراً له: أصابه القدر فطاح، فقال: والله إني لعلى حالة ما كان ليسلبني قدحي من بين العسكرين. فلما عبروا ألقته الريح إلى الشاطىء فتناوله بعضُ الناس وعرفه صاحبه. فأخذه صاحبه، ولم يغرق منهم أحد غير أنّ رجلاً من بارق يدعى غرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذ بيده فأخرجه سالماً، [فقال البارقي وكان من أشد الناس: أعجز الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع. وكان للقعقاع فيهم خؤولة].[1] وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض أعرافها، فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمرٌ لم يكن في حُسابهم خرجوا هاربين نحو حلوان. وكان يزدجرد قد قدم عياله إلى حلوان قبل ذلك وخلف مهران الرازي، والنخيرخان وكان على بيت المال بالنهروان. وخرجوا معهم بما قدروا عليه من خير متاعهم وخفيفه وما قدروا عليه من بيت المال وبالنساء والذراري وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والألطاف، والأدهان ما لا يدرى قيمته، وخلّفوا ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة. وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسية النصف، وبقي النصف.

وكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال وهي كتيبة عاصم بن عمرو، ثمّ كتيبة الخرساء وهي كتيبة القعقاع بن عمرو؛ فأخذوا في سككها لا يلقون فيها أحداً يخشونه إلاّ من كان في القصر الأبيض. فأحاطوا بهم، ودعوهم، فاستجابوا على تأدية الجزية والذمة، فتراجع إليهم أهل المدائن على مثل عهدهم ليس في ذلك ما

---

(١) أي أخواله.

كان لآل كسرى [ومن خرج معهم]. ونزل سعد القصر الأبيض، وسرح سعد زهرة في آثارهم إلى النهروان، [وسرح] مقدار ذلك من كلّ جهة. وكان سلمان الفارسي رائد المسلمين وداعيتهم دعا أهل بهرسير ثلاثاً، وأهل القصر الأبيض ثلاثاً، واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى ولم يغيّر ما فيه من التماثيل. ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور الماء، وكان يدعى يوم الجراثيم لا يبقى أحدٌ إلاّ اشمخرّت له جرثومة من الأرض يستريح عليها ما يبلغ الماء حزام فرسه.

ولما دخل سعد الإيوان قرأ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وعُيُونٍ وَزُرُوعٍ﴾ إلى قوله ﴿قَوْماً آخرين﴾[1] وصلّى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن ولا يصلي جماعة، وأتم الصلاة لأنه نوى الإقامة، وكانت أول جمعة بالعراق - وجمعت بالمدائن في صفر سنة ست عشرة».

وكان أهل المدائن قد فاجأتهم سرعة عبور المسلمين، فتركوا أكثر أموالهم ومتاعهم ومصاغهم وأعداداً هائلة من الماشية خلفهم.

أما يزدجرد، فكما سبق القول، هرب مع أهل بيته وقسم من كنوزه وأمواله إلى حلوان، ومنها إلى النهروان بعد أن كلّف مهران الرازي قيادة المعركة في المدائن.

د - غنائم المسلمين في المدائن:

استولى المسلمون في المدائن على غنائم كثيرة جداً. كما لاحق مقاتلوهم الفرس الذين كانوا يهربون من المدينة بأموالهم واستولوا عليها لصالح المسلمين.

أما تعداد هذه الغنائم، فقد جاء بتفصيل لدى المؤرّخين العرب، فكتب ابن الأثير عما أخذه المسلمون من المدائن وما صادروه من الفرس الهاربين:[2]

«كان سعد قد جعل على الأقباض عَمرو ابن عمرو بن مقرن، وعلى القسمة سلمان بن ربيعة الباهلي، فجمع ما في القصر والإيوان والدور، وأحصى ما يأتيه به الطلب؛

(١) الدخان: من الآيات ٢٥ - ٢٦ - ٢٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٠ - ٣٦٢.

وكان أهل المدائن قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا في كلّ وجه فما أفلت أحدٌ منهم بشيء إلا أدركهم الطلب، فأخذوا ما معهم. ورأوا بالمدائن قِباباً تركية مملوءة سِلالاً مختومة برصاص فحسبوه طعاماً فإذا فيها آنية الذهب والفضة، وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين. ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملْحاً فعجنوا به فوجدوه مُرّاً.

وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغلٌ في الماء فعجلوا وكلبوا عليه. فقال بعض المسلمين: إنّ لهذا البغل لشاناً، فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه، وفيه حلية كسرى ثيابه؛ وخرزاته؛ ووشاحه، ودِرْعه التي فيها الجوهر - وكان يجلس فيها للمباهاة. ولحق الكلج بغلين معهما فارسيان فقتلهما وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الأقباض وهو يكتب ما يأتيه به الرجال، فقال له: قِفْ حتى ننظر ما معك فحَطّ عنهما فإذا سَفَطان[1] فيهما تاج كسرى مرصعاً وكان لا يحمله إلاّ الأسطوانيان،[2] وفيه الجوهر. وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً.

وأدرك القعقاع بن عمرو فارسياً فقتله، وأخذ منه عَيبَتَيْن[3] و[غلافين] في أحدهم خمسة أسياف وفي الآخر ستة أسياف، و[إذا في العيبتين] أدراع منها درع كسرى ومغافره، ودرع هرقل، ودرع خاقان ملك الترك، ودرع داهر ملك الهند، ودرع بهرام جوبين، ودرع سياوخش، ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان، وهرقل، وداهر. وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى والسيوف من سيوف كسرى، وهرمز، وقباذ، وفيروز، وهرقل، وخاقان وداهر، وبهرام، وسياوخش، والنعمان. فأحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيّره بين الأسياف فاختار سيف هرقل، وأعطاه درع بهرام ونفل

(١) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب وأدوات الزينة للنساء.

(٢) اسطوان: مرتفع.

(٣) العيبة: وعاء ينقل فيه الحصاد.

سائرها في الخرساء إلاّ سيف كسرى، والنعمان بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك [لمعرفتهم بهماو] حسبوهما في الأخماس. وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون.

وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر. وأخذ الحمارين فأتى بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة، وعلى ثفره ولباته الياقوت والزمرّد المنظوم على الفضة، ولجام كذلك، وفارس من فضة مكلل بالجوهر. وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل[1] من ذهب، وبطان من ذهب، ولها زمام من ذهب، وكلّ ذلك منظوم بالياقوت، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر كان كسرى يضعهما على اسطوانتي التاج.

فلما جمعت الغنائم قسّم سعد الفيء بين الناس بعدما خمّسه، وكانوا ستين ألفاً، فأصاب الفارس اثني عشر ألفاً، وكلّهم كان فارساً ليس فيهم راجل. ونفل من الأخماس في أهل البلاء وقسم المنازل بين الناس، وأحضر العيالات فأنزلهم الدور فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحلوان، وتكريت، والموصل، ثمّ تحوّلوا إلى الكوفة. وأرسل سعد في الخمس كلّ شيء أراد أن يعجب منه العرب وما كان يعجبهم أن يقع [إليهم].

وأراد إخراج خمس القطيف فلم تعتدل قسمته - وهو بهار كسرى - فقال للمسلمين: هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء؟ فإنّا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً. فقالوا: نعم. فبعثه إلى عمر.

والقطيف بساط واحد طوله ستون ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً مقدار جريب كانت الأكاسرة تعده للشتاء إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم في رياض فيه طرق كالصور، وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهّبة، وخلال ذلك فصوص كالدر.

فلما قدمت على عمر نفل منها من غاب ومن شهد من أهل البلاء، ثمّ قسم الخمس في مواضعه».

---

(١) شليل: مسح من الصوف يوضع على عجز البعير.

ومن الغنائم التي لم يُعطَ منها الفيء للمحاربين، حلي كسرى وثيابه وتاجه، فقد أرسلها سعد إلى الخليفة ليعرضها على المسلمين.

أما القطيف، فقيل إن الخليفة قسّمه أقساماً بين المسلمين. وقيل إن علي بن أبي طالب باع قطعته بعشرين ألف درهم، ولم تكن أجود القطع.(١)

هـ - الدروس المستقاة:

١ - أحسن الملك يزدجرد بإبعاد سفن نهر دجلة من بهرسير إذ أنه منع الجيش الإسلامي من استعمالها لعبور النهر ومهاجمته في المدائن. وهكذا منع يزدجرد سعداً من تأمين حرية عمل الجيش العربي بعبور النهر الذي زادت مياهه بسبب الشتاء، الأمر الذي أخّر عبور المسلمين النهر وسمح للملك الفارسي بتأمين «حرية عمله» ونقل كنوزه وأمواله من المدائن إلى نهاوند.

وهكذا نرى أن عدم تطبيق مبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل» من قبل الجيش العربي منع هذا الجيش من تحقيق هدفه بملاحقة ملك الفرس ومحاصرة المدائن ومنع يزدجرد وأغنياء الفرس من نقل أموالهم وكنوزهم منها. لقد كان بإمكان سعد بن أبي وقاص إصدار الأمر باجتياز النهر فوراً بعد سيطرته على بهرسير، إلا أنه تردّد فاخطأ في تقديراته.

لذلك تعمد مدارس الحرب العليا حالياً إلى تدريب كبار القادة على اتخاذ قرارات عملانية سريعة من خلال إخضاعهم لدروس استراتيجية تحت عنوان «حل مسألة تكتية» يقوم الضباط خلالها بتحليل سريع للوضع العام وباتخاذ القرار المناسب بشأنه بسرعة. فالقرار المناسب ينبغي أن يتخذ في الوقت والمكان المناسبين كي تأتي نتيجته إيجابية.

٢ - كلّف سعد الفرسان بعبور النهر أولاً واحتلال رأس جسر على الضفة الأخرى لحماية عبور المشاة.

وعبور المجاري المائية الضخمة، فيما العدو يحتل الصفة المقابلة، هو عملية تكتيكية معقّدة تقوم مدارس الأركان العليا حالياً في أوروبا خاصة بتدريبها لكبار ضباط

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٦٧.

الجيش المدعوين لقيادات الوحدات الكبرى. وتنفذ هذه العملية على مراحل. فخلال المرحلة الأولى تعبر قوةٌ ليلاً بزوارق سريعة فتحتل بقعة من الأرض على الضفة المقابلة تسمى «رأس الجسر». وفي مرحلة ثانية تعبر قوة جديدة تعمل على توسيع رأس الجسر فتسيطر على التلال المشرّفة على مجرى الماء طاردة العدو منها وذلك بهدف تأمين عبور آمن لعظيم الجيش في مرحلة ثالثة.

وبالفعل، طبق سعد نفس المبادىء التي ذكرت إذ انتدب ستمائة من الفرسان الشجعان المتطوّعين وكلفهم بالعبور أولاً وحماية عبور باقي الجيش للنهر. ولما اعترض الفرس طريقهم داخل مجرى الماء، جرت معركة بالرماح تمكن المسلمون من الانتصار فيها وإكمال العبور والسيطرة على الضفة المقابلة للمجرى.

وكانت المعركة في دجلة أول قتال يخوضه المسلمون في الماء. ولما كان القتال بالسيوف في النهر صعباً بسبب عدم تحكّم الحصان في تقدّمه أو تراجعه، فقد أشار قائد فرقة العبور على المسلمين، وفق الطبري، باستعمال الرماح. وهذا ما حصل بالفعل، فتمكّن جيش المسلمين من عبور النهر دون فقدان أي من مقاتليه.

٣ - أفاد المسلمون بعبورهم السريع للنهر من عنصر المباغتة إذ أن الفرس فوجئوا بسرعة وصولهم إلى المدائن فأسقط بيدهم وفروا إلى حلوان. فانتهت المعركة دون حصار للمدينة التي غنم فيها المسلمون غنائم كثيرة وثمينة من أموالٍ ومواشٍ ومجوهرات وأطياب ومآكل.

٤ - لقد انتصر العرب المسلمون في معركة المدائن كونهم أحسنوا تطبيق مبادىء الحرب، رغم تأخّرهم في تحقيق حرية العمل في عبورهم لنهر دجلة، وذلك كما يلي:

- المبدأ الأول أي نسبية الأهداف للوسائل بتطبيقهم قواعد الحشد والتعبئة العامة.
- المبدأ الثاني أي حرية العمل من خلال مفاجأة الفرس بعبورهم النهر بالطريقة الصحيحة التي ذكرناها أعلاه.
- المبدأ الثالث أي الحصيل الأقصى للوسائل من خلال حسن استعمال الخيول في اجتياز النهر وتأمين عبور كامل الجيش وتهديده مدينة المدائن.

الفصل الثاني
الفتوحات في شمال العراق

لم تتوقّف الفتوحات الإسلامية في المدائن، إنما تعدّتها شمالاً وشرقاً حيث تمّ فتح شمال العراق والأهواز والري وجرجان وطبرستان وأذربيجان وخراسان والسوس وجنديسابور واصفهان. وهذا ما سنفصّله في الفصول اللاحقة.

فعلى صعيد شمال العراق، وبعد أن أقام يزدجرد في حلوان، راح يجند الفرس لقتال المسلمين. وكان مهران الرازي، الذي كلّفه العاهل الفارسي الدفاع عن المدائن، قد اتجه بعد سقوطها إلى جلولاء التي تبعد مسافة ١٥٠ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي منها. وراح مهران يقيم الخنادق والتحصينات، واصطحب معه عائلات المقاتلين الذين جعلهم وراءه، وذلك بقصد منع الجند من الفرار.

أولاً – معركة جلولاء(١)

أما يزدجرد فقد راح يرسل النجدات إلى مهران في جلولاء.

كتب ابن خلدون عن تجنيد يزدجرد للمقاتلين وتمركز مهران في جلولاء ما يلي:(٢)

«ولما انتهى الفرس بالهرب إلى جلولاء، وافترقت الطرق من هنالك بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس، وقضوا هنالك خشية الافتراق، واجتمعوا على مهران الرازي،

(١) سميت جلولاء لتجليل الأرض بالجثث.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٠.

وخندقوا على أنفسهم وأحاطوا الخندق بحسك الحديد، وتقدم يزدجرد إلى حلوان».

وتابع الطبري الرواية، فكتب:(١)

«تذامروا وقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به لنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبلينا عذراً. فأقاموا في خندقهم وقد أحاطوا به الحسك من الخشب إلا طرقهم».

ولما علم سعد بن أبي وقاص بإجتماع الفرس في جلولاء، كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستشيره في الوضع. ونقل ابن الأثير جواب الخليفة، فكتب:(٢)

«فكتب إليه عمر: سرّح هاشم بن عتبة إلى جلولاء، واجعل على مقدّمته القعقاع ابن عمرو، وعلى ميمنة مسعر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، واجعل على ساقته عمرو بن مرّة الجهني. وإن هزم الله الفرس، فاجعل القعقاع بين السواد والجبل على حد سوادكم، وليكن الجند اثني عشر ألفاً».

والاثنا عشر ألفاً، أمر بأن يكونوا من سادات المسلمين ووجوه المهاجرين والأنصار، ورؤوس العرب، وذلك في صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة.

خرج هاشم على رأس الجيش وسار نحو جلولاء مدة أربعة أيام حتى بلغها وأحاط بها وحاصر الفرس داخلها وبينهم وبينه الخندق الذي كان قد حفره مهران وجعل له معبراً يدخل منه الجنود ويخرجون. كما ترك وراء الخندق ساحة متسعة زرع بعدها من جهة المسلمين حسك الخشب لمنع الخيل من اجتيازها، وترك ممراً ضيقاً بين الحسك.(٣)

والظاهر أن يزدجرد وسعد كانا يرسلان النجدات في صورة شبه دائمة إلى جيشيهما في جلولاء.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٦٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٤.

(٣) الحسك: خوازيق كبيرة.

كتب ابن كثير عن مجرى معركة جلولاء:(١)

«فساروا حتى انتهوا إلى المجوس وهم بجلولاء قد خندقوا عليهم، فحاصرهم هاشم ابن عتبة، وكانوا يخرجون من بلدهم للقتال في كلّ وقت فيقاتلون قتالاً لم يسمع بمثله. وجعل كسرى يبعث إليهم الأمداد، وكذلك سعد يبعث المدد إلى ابن أخيه، مرة بعد أخرى. وحمي القتال، واشتد النزال، واضطرمت نار الحرب، وقام في الناس هاشم فخطبهم غير مرة، فحرّضهم على القتال والتوكّل على الله. وقد تعاقدت الفرس وتعاهدت، وحلفوا بالنار أن لا يفروا أبداً حتى يفنوا العرب. فلما كان الموقف الأخير وهو يوم الفيصل والفرقان، تواقفوا من أول النهار، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله حتى فني النشاب من الطرفين، وتقصفت الرماح من هؤلاء ومن هؤلاء، وصاروا إلى السيوف والطبرزينات،(٢) وحانت صلاة الظهر فصلّى المسلمون إيماءً. وذهبت فرقة المجوس وجاءت مكانها أخرى، فقام القعقاع بن عمرو في المسلمين فقال: أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون؟ قالوا: نعم إنّا كالّون وهم مريحون، فقال: بل إنّا حاملون عليهم ومجدون في طلبهم، حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم. فحمل وحمل الناس، فأما القعقاع فإنه صمّم الحملة في جماعة من الفرسان والأبطال والشجعان، حتى انتهى إلى باب الخندق. وأقبل الليل بظلامه وجالت بقية الأبطال بمن معهم في الناس وجعلوا يأخذون في التحاجز من أجل إقبال الليل، وفي الأبطال يومئذ طليحة الأسدي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وقيس بن مكشوح، وحجر بن عدي. ولم يعلموا بما صنعه القعقاع في ظلمة الليل، ولم يشعروا بذلك، لولا مناديه ينادي: أين أيها المسلمون، هذا أميركم على باب خندقهم. فلما سمع ذلك المجوس فرّوا، وحمل المسلمون نحو القعقاع بن عمرو فإذا هو على باب الخندق قد ملكه عليهم، وهربت الفرس كلّ مهرب. وأخذهم

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦٧.

(٢) الطبرزينات: نوع من السلاح الأبيض يشبه الفؤوس.

المسلمون من كلّ وجه، وقعدوا لهم كلّ مرصد، فقتل منهم في ذلك الموقف مائة ألف حتى جلّلوا وجه الأرض بالقتلى، فلذلك سميت جلولاء. وغنموا من الأمور والسلاح والذهب والفضة قريباً مما غنموا من المدائن قبلها».

كما كتب الطبري عن الموضوع نفسه:[1]

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عُقبة بن مكرم، عن بطان بن بشر، قال: لما نزل هاشم على مهران بجَلولاء حصرهم في خندقهم، فكانوا يزاحفون المسلمين في زُهاء وأهاويل. وجعل هاشم يقوم في الناس، ويقول: إنّ هذا المنزل له ما بعده. وجعل سعد يمُدّه بالفرسان حتى إذا كان أخيراً احتفلوا للمسلمين؛ فخرجوا عليهم، فقال هاشم في الناس، فقال: أبلوا الله بلاء حسناً يتمّ لكم على الأجر والمغنَم، ، واعملوا لله. فالتقوا فاقتتلوا، وبعث الله عليهم ريحاً أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلاّ المحاجزة، فتهافت فرسانهم في الخندق؛ فلم يجدوا بُدّاً من أن يجعلوا فُرَضاً مما يليهم؛ تصعد منه خيلهم؛ فأفسدوا حصنهم. وبلغ ذلك المسلمين، فنظروا إليه، فقالوا: أننهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه! فلما نهَد المسلمون الثانية خرج القوم، فرموا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسَك الحديد لكيلا يقدم عليهم الخيل، وتركوا للمجال وجهاً، فخرجوا على المسلمين منه، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله إلاّ ليلة الهرير، إلاّ أنه كان أكمش وأعجل. وانتهى القعقاع بن عمرو في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خندقهم، فأخذ به، وأمر منادياً فنادى: يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبلوا إليه؛ ولا يمنعنّكم من بينكم وبينه من دخوله. وإنما أمر بذلك ليقوّي المسلمين به. فحمل المسلمون ولا يشكّون إلاّ أن هاشماً فيه، فلم يقم لحملتهم شيء، حتى انتهوا إلى باب الخندق، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو، وقد أخذ به؛ وأخذ المشركون في هزيمة يمنة ويسرة عن المجال الذي بحيال خندقهم؛ فهلكوا فيما أعدّوا للمسلمين

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٦٩.

فعُقرت دوابّهم، وعادوا رجّالة. وأتبعهم المسلمون، فلم يفلت منهم إلاّ من لا يعدّ، وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف، فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فسميت جلولاء بما جلّلها من قتلاهم؛ فهي جلولاء الوقيعة».

وبالفعل، أمدّ سعد هاشماً بستمائة فارس على دفعات ثلاث وفيهم أبطال الفرسان المسلمين.

أما خطأ الفرس فهو، كما يروي الطبري، خروجهم من حصنهم والتصدّي للمسلمين خارجه في وقت لم يكن لدى المسلمين معدات حصار. ورغم ذلك كانت المعركة شديدة والقتال شرساً جداً.

أخيراً، شدّ المسلمون شدّة واحدة على قلب الجيش الفارسي الذي تراجع أمام الحملة فشكل ضغطاً على باقي الجيش الذي تصدّعت صفوفه وتراجعت، فعلق عدد كبير من مقاتليهم بأوتاد الخشب التي نصبوها. وكان المسلمون يتبعونهم بالقتال والفرس يتراجعون تراجعاً مضعضعاً، مما أسقط العديد من فرسانهم ورجّالتهم في الخندق الذي حفروه أيضاً بأنفسهم.

وعلّق المؤرّخون العرب، كالعادة، على البطولات الفردية للمسلمين وأبرزهم القعقاع بن عمرو الذي أعاد تنظيم القوى الإسلامية أمام الخندق وفيها خيرة مقاتليهم كطليحة بن خويلد الأسدي[1] وقيس بن مكشوح وعمرو بن معد يكرب. اثر ذلك جرى قتال ليلي بين الجانبين ذكّر المسلمين بليلة الهدير في معركة القادسية.

ونفّذ القعقاع حيلة ذكية إذ نادى المسلمين بأن أميرهم قد دخل الخندق، فشدّ هؤلاء شدّة قوية وراحت طلائعهم تبلغ حيث توقّف القعقاع أمام الخندق دافعين الفرس أمامهم الذين علقوا بحسك الحديد التي كانوا قد رموها سابقاً.[2]

وهكذا حوصر الفرس بين قوات القعقاع التي سدّت عليهم المداخل إلى معسكرهم وخندقهم، وبين مؤخّرة الجيش الإسلامي

---

(١) الذي كان قد ارتدّ سابقاً.

(٢) حسك الحديد هي قطع صغيرة حادة الرأس إذا داس عليها الرجل أو الفرس غرزت في رجله ومنعته من متابعة الحركة.

التي كانت تحاول بلوغ مكان القعقاع. فتساقط الفرس تحت ضربات سيوف المسلمين الذين حصروهم وأبادوهم رغم مبالغة الرواة في الكلام عن مائة ألف قتيل.

ونقل الطبري رواية عن شاهد عيان للمعركة فكتب: (١)

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبيدالله بن محفّز، عن أبيه، قال: إني لفي أوائل الجمهور، مُدخلهم ساباط ومظُلِمها، وإني لفي أوائل الجمهور حين عَبَروا دجلة، ودخلوا المدائن؛ ولقد أصبت بها تمثالاً لو قُسّم في بكر بن وائل لسدّ منهم مسدّاً، عليه جوهر، فأدّيته. فما لبثنا بالمدائن إلاّ قليلاً حتى بلغنا أن الأعاجم قد جمعت لنا بجلولاء جمعاً عظيماً، وقدّموا عيالاتهم إلى الجبال، وحبسوا الأموال؛ فبعث إليهم سعد عمرو ابن مالك بن عتبة بن أهيَب بن عبد مناف ابن زهرة. وكان جُند جلولاء اثني عشر ألفاً من المسلمين، على مقدّمتهم القعقاع بن عمرو، وكان قد خرج فيهم وجوه الناس وفرسانهم؛ فلما مرّوا ببابل مَهْروذ صالحه دهقانها، على أن يفرش له جريب أرض دراهم؛ ففعل وصالحه. ثمّ مضى حتى قدم عليهم بجَلولاء، فوجدهم قد خندقوا وتحصّنوا في خندقهم، ومعهم بيت مالهم، وتواثقوا وتعاهدوا بالنيران ألاّ يفرّوا. ونزل المسلمون قريباً منهم، وجعلت الأمداد تقدم على المشركين كلّ يوم من حَلوان، وجعل يمدّهم بكلّ من أمدّه من أهل الجبال، واستمدّ المسلمون سعداً فأمدّهم بمائتي فارس، ثمّ مائتين، ثمّ مائتين. ولما رأى أهل فارس أمداد المسلمين بادروا بقتال المسلمين. وعلى خيل المسلمين يومئذ طليحة بن فلان، أحد بني عبد الدار، وعلى خيل الأعاجم خرّزاد بن خرّهرمز - فاقتتلوا قتالاً شديداً، لم يقاتلوا المسلمين مثله في موطن من المواطن، حتى أنفدوا النبل؛ وحتى أنفدوا النّشّاب، وقصفوا الرماح حتى صاروا إلى السيوف والطّبرزينات. فكانوا بذلك صدْر نهارهم إلى الظهر؛ ولما حضرت الصلاة صلّى الناس

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

إيماء، حتى إذا كان بين الصّلاتين خَنَست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها. فأقبل القعقاع بن عمرو على الناس، فقال: أهالتْكم هذه؟ قالوا: نعم؛ نحن مُكلّون وهم مُريحون، والكالّ يخاف العجز إلاّ أن يُعقِب؛ فقال: إنّا حاملون عليهم ومجادّوهم وغير كافّين ولا مقلعين حتى يحكم الله بيننا [وبينهم]، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم، ولا يكذبنّ أحد منكم. فحمل فانفرجوا، فما نُهنِه أحد عن باب الخندق. وألبسهم الليل رواقه، فأخذوا يمنة ويسرة؛ وجاء في الأمداد طليحة وقيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب وحُجْر بن عديّ، فوافقوهم قد تحاجزوا مع الليل. ونادى منادي القعقاع بن عمرو: أين تحاجزون وأميركم في الخندق! فتفارّ المشركون، وحمل المسلمون، فأُدخل الخندق، فأتى فسطاطاً فيه مرافق وثياب؛ وإذا فُرش على إنسان فأنبُشه، فإذا امرأة كالغزال في حسن الشمس، فأخذتُها وثيابها، فأدّيت الثياب، وطلبت في الجارية حتى صارت إليّ فاتخذتها أمّ ولد».

الدروس المستقاة:

أ - أفاد القادة الفرس من تجربتهم في قتال المسلمين، فعمل مهران الرازي على تطبيق مبادىء الحرب في معركة جلولاء. وبغية تحقيق المبدأ الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، قام بجمع جيش كبير فيها، كما راح الملك يزدجرد يرسل إليه النجدات بصورة شبه دائمة.

ولتحقيق تطبيق مبدأ الحرب الثاني (حرية العمل) تحصّن مهران داخل جلولاء وأقام حولها الخنادق والتحصينات وأقفل بينها بحسك الحديد، وجعل له معبراً ضيقاً يدخل منه الجنود ويخرجون. وجعل وراء الخندق ساحة متسعة زرع بعضها بحسك الخشب لمنع فرسان المسلمين من اجتيازها.

أما مبدأ الحرب الثالث (الحصيل الأقصى للوسائل) فقد ساهم اصطحاب المقاتلين لعائلاتهم معهم إلى جلولاء في جعلهم يخوضون معارك ضارية ضدّ المسلمين حفظاً لعرضهم وممتلكاتهم.

ب - في المقابل، اختار المسلمون تكتيك الهجوم الذي رفع من معنويات

مقاتليهم. كما اختار الخليفة الفرقة الأولى التي ستحاصر المدينة من سادات المسلمين ووجوه المهاجرين والأنصار وقادة العرب، الأمر الذي عمل على دب الحماس في نفوس المقاتلين المسلمين.

ج - ارتكب الفرس خطأً بخروجهم من حصنهم ومحاولة التصدي لهجمات المسلمين خارجه ففقدوا بذلك حرية عملهم. فالجيش الإسلامي لم يكن مجهزاً بمعدات حصار تمكّنه من الدخول عنوة إلى المدينة المحصّنة والتي تحيط بها الخنادق وحسك الحديد وأوتاد الخشب.

كما أن ميدان المعركة لم يكن يتسع للجيش الفارسي الكبير الذي خرج من جلولاء نظراً لوجود التحصينات وأوتاد الخشب وحسك الحديد في بعض أقسامه. لذلك، ولما تراجع قلب الجيش الفارسي أمام هجوم الفرسان المسلمين، ضغط على باقي فرق الجيش التي تصدّعت وتراجعت فعلق مقاتلوها بأوتاد الخشب التي نصبوها. وهذا ما ضعضع صفوف الجيش الفارسي وأفقده حرية عمله ولم يتمكّن مقاتلوه من متابعة مناورتهم.

د - في المقابل، ساهمت حيلة القعقاع ابن عمرو في دفع المقاتلين المسلمين إلى الاستبسال في القتال الليلي ودفع الفرس أمامهم والذين أصبحوا محاصرين بين خندقهم والجيش الإسلامي المتقدّم لبلوغ الخندق.

وهكذا حوصر الفرس وفقدوا حرية عملهم ولم يستطع مقاتلوهم إعطاء الحصيل الأقصى لجهودهم بسبب تدافعهم نحو حسك الحديد وأوتاد الخشب، الأمر الذي أدى إلى خسارتهم المعركة رغم تفوّقهم بالعديد والعتاد والوسائل.

هـ - طبّق الجيش العربي استراتيجية «استغلال النصر»، فقام القعقاع على رأس فرقة كبيرة، بملاحقة فلول الفرس المنهزمين من جلولاء، فأدركهم في خانقين حيث جرت معركة سريعة انتصر فيها القعقاع وقتل قائد حامية جلولاء واستولى الجيش الإسلامي على غنائم كثيرة جداً.

وأراد سعد بن أبي وقاص متابعة الملاحقة إلى الداخل الفارسي، لكن الخليفة آثر التريث لتنظيم المناطق المفتتحة أولاً. وفي ذلك سياسة حكيمة

أذانّ متابعة الحملة وترك جيوب مقاومة في مؤخرات الجيش الزاحف تفقد هذا الجيش حرية التحرّك مع خطر قيام وحدات العدو بعمليات على طرق تموينه ووسائل اتصالاته.

ثانياً – المعارك في شمال العراق

طارد القعقاع، على رأس فرقة كبيرة أمدها سعد بثلاثة آلاف مقاتل، الفرس المنهزمين من جلولاء، فأدركهم في «خانقين» ومعهم النساء والذراري والأولاد. شنّ القعقاع على الفرس حملة سريعة انتهت بعد قتال قصير، قتل خلاله مهران واستطاع الفيرزان الفرار. واستولى القعقاع على سبي كثير ضرب به المثل فقيل: «سبي جلولاء».

وتابع القعقاع مطاردة فلول الفرس نحو حلوان، فيما عاد هاشم بن عتبة بالغنائم والسبي إلى المدائن، حيث سلمها لسعد الذي كتب إلى الخليفة يستأذنه بملاحقة الفرس إلى أعماق بلادهم. لكن أمير المؤمنين رأى أن يتوقّف توسع المسلمين في العراق وتتوقف الفتوحات كي يتمكّن المسلمون من تنظيم أمورهم في المناطق التي افتتحت حتى ذلك الوقت.

كتب الطبري عن رغبة الخليفة في توقف الفتوحات مؤقتاً:[١]

«وكتبوا إلى عمر بفتح جَلُولاء وبنزول القعقاع حُلوان واستأذنوه في إتباعهم، فأبى، وقال: لوددت أنّ بين السواد وبين الجبل سدّاً لا يخلُصون إلينا ولا نخلُص إليهم؛ حسبُنا من الرّيف السواد، إنّي آثرت سلامة المسلمين على الأنفال. قالوا: ولما بعث هاشم القعقاع في آثار القوم، أدرك مِهران بخانقين، فقتله وأدرك الفيرزان فنزل، وتوقّل في الظِّراب، وخلّى فرسه. وأصاب القعقاع سبايا، فبعث بهم إلى هاشم من سباياهم، واقتسموهم فيما اقتسموا من الفيء؛ فاتُّخذن، فولدن في المسلمين».

أما يزدجرد فإنه لما علم بهزيمة جلولاء، ترك حُلوان واتجه إلى الري[٢] مع نسائه وكنوزه وكلف بمدينة حلوان «خسروشنوم».

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٧٠.

(٢) الري: مدينة كبيرة غنية وينتسب إليها الكثير من العلماء.

في هذا الوقت وصل القعقاع إلى حلوان، بعد أن هزم جموع الفرس في خانقين فتصدّى له خسروشنوم مع حامية حلوان بعد أن جعل على مقدّمته دهقان حلوان «زينبدي».

اشتبك الجيشان في قتال بالقرب من حلوان قتل فيه دهقانها «زينبدي» وهرب خسروشنوم ورجاله ودخل القعقاع وجيشه حلوان حيث توقف بناءً لأمر الخليفة.

كتب ابن كثير عن القتال حول حلوان ما يأتي:(١)

«ولما انقضت الوقعة أقام هشام بن عتبة بجلولاء عن أمر عمر بن الخطاب - في كتابه إلى سعد - وتقدم القعقاع بن عمرو إلى حلوان، عن أمر عمر أيضاً ليكون ردءاً للمسلمين هنالك، ومرابطاً لكسرى حيث هرب. فسار كما قدمنا، وأدرك أمير الوقعة وهو مهران الرازي، فقتله وهرب منه الفيرزان. فلما وصل إلى كسرى وأخبره بما كان من أمر جلولاء، وما جرى على الفرس بعده، وكيف قتل منهم مائة ألف، وأدرك مهران فقتل، هرب عند ذلك كسرى من حلوان إلى الري، واستناب على حلوان أميراً يقال له خسروشنوم. فتقدّم إليه القعقاع بن عمرو، وبرز إليه خسروشنوم إلى مكان خارج من حلوان، فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً. ثمّ فتح الله ونصر المسلمين وانهزم خسروشنوم، وساق القعقاع إلى حلوان فتسلّمها ودخلها المسلمون فغنموا وسبوا. وأقاموا بها، وضربوا الجزية على من حولها من الكور والأقاليم، بعدما دعوا إلى الدخول في الإسلام فأبوا إلاّ الجزية».

كما كتب ابن خلدون عن الموضوع نفسه ما يلي:(٢)

«وأتبعهم القعقاع بالطلب إلى خانقين، وأجفل يزدجرد من حلوان إلى الريّ، واستخلف عليها خشرشوم وجاء القعقاع إلى حلوان فبرز إليه خشرشوم. وعلى مقدّمته الرمى فقتله القعقاع وهرب خشرشوم من ورائه. وملك القعقاع حلوان

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦٩.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤١.

وكتب إلى عمر بالفتح واستأذنه في اتباعهم فأبى وقال: وددت أن بين السواد والجبل سدّاً حصيناً من ريف السواد، فقد آثرت سلامة المسلمين على الأنفال».

أ - قضية أراضي سواد العراق:

وعن أرض سواد العراق وسبب عدم قسمتها على المحاربين كونها فتحت عنوة، يروي ابن خلدون روايات عدّة رأينا وجوب لحظها هنا. والسبب أن عمر بن الخطاب عطّل عملية توزيع أراضي سواد العراق على المحاربين، متخذاً قرارات تشريعية ومعطياً لنفسه صلاحيات قانونية، الأمر الذي لم يفعله الخليفة أبو بكر قبله.

كتب ابن خلدون عن موضوع تعطيل تقسيم الأراضي بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب:[1]

«كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص حين فتح السواد:

«أمّا بعد فقد بلغني كتابك، تذكر أنّ الناس سألوك أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم، فإذا أتاك كتابي فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس. واترك الأرض والأنهار لعمّالها، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فإنّك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء».

وحدّثني الحسين قال حدّثنا وَكيع عن فُضَيل بن غزوان عن عبد الله بن حازم قال: سألت مجاهداً عن أرض السواد فقال: لا تشترى ولا تباع. قال: نقول لأنّها فُتحت عنوةً، ولم تقسم فهي لجميع المسلمين.

وحدّثني الوليد بن صالح، عن الواقدي، عن ابن أبي سَبرة، عن صالح بن كَيسان، عن سليمان بن يسار قال: أقرّ عمر بن الخطّاب السواد لمن في أصلاب الرجال وارحام النساء وجعلهم ذمّة تؤخذ منهم الجزية ومن أرضهم الخراج، وهم ذمّة لا رِقّ عليهم. قال سليمان: وكان الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل أهل السواد فَيئاً، فأخبرتُه بما كان من عمر في ذلك فورّعه الله عنهم.

---

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

حدّثني الحسين بن الأسود قال: حدّثنا يحيى بن أدم عن اسرائيل عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مُضَرِّب انّ عمر بن الخطّاب أراد قسمة السواد بين المسلمين، فأمر أن يحصوا فوجد الرجل منهم نصيبه ثلاثة من الفلاحين، فشاور أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك، فقال عليّ: دعهم يكونوا مادّة للمسلمين. فبعث عثمان بن حُنيف الأنصاري، فوضع عليه(١) ثمانية وأربعين، وأربعة وعشرين، واثنى عشر.

حدّثنا أبو نصر التمّار قال: حدّثنا شريك، عن الأجلح، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ثعلبة بن يزيد، عن علي قال: لولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض، لقسمت السواد بينكم».

ب - فتوحات أخرى في الشمال:

كانت قوات المسلمين بعد معركة حلوان قد أصبحت موزعة كما يلي:

- سعد بن أبي وقاص مع جيشه في المدائن.
- جرير بن عبدالله البجلي في جلولاء مع فرقة من الفرسان.
- القعقاع بن عمرو مع فرقته في حلوان.
- عتبة بن غزوان في البصرة.(٢)
- هاشم بن عقبة قائداً لفرقة الفرسان التي كلفت ملاحقة فلول الفرس بين المدائن وجلولاء.

وبالفعل أخضع هاشم كلّ المدن والقرى في تلك المنطقة، كما صالح على الجزية من الفرس دهاقنة مهروذ ودسكرة وبندبنجين. وأسلم دهاقنة النهرين وبابل ونهر الملك.

ج - تمصير الكوفة:

كان سعد بن أبي وقاص قد ترك المدائن إلى الكوفة ولحق به القعقاع إليها بعد أن ولّى على حلوان أحد الفرس الذين أسلموا واسمه «قباذ».(٣)

---

(١) أي نصيب الرجل.

(٢) لقد عمّرها فيما بعد وأسكن فيها المسلمين.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦٩.

كتب البلاذري عن تمصير الكوفة ما يلي:[1]

«حدّثني محمّد بن سعد قال: حدّثنا محمّد بن عمر الواقدي، عن عبد الحميد ابن جعفر وغيره، أنّ عمر بن الخطّاب كتب إلى سعد بن أبي وقّاص يأمره ان يتّخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً،[2] وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً. فأتى الأنبار وأراد أن يتّخذها منزلاً، فكثُر على الناس الذباب فتحوّل إلى موضع آخر، فلم يصلح فتحوّل إلى الكوفة فاختطها وأقطع الناس والمنازل وأنزل القبائل منازلهم، وبنى مسجدها وذلك في سنة ١٧.

وحدّثني عليّ بن المغيرة الاثرم قال: حدّثني أبو عبيدة معمَر بن المثنّى عن أشياخه قال: وأخبرني هشام بن الكلبي عن أبيه، ومشايخ الكوفيّين قالوا: لمّا فرغ سعد بن أبي وقّاص من وقعة القادسيّة وجّه إلى المدائن، فصالح أهل الرّوميّة وبَهُرسير، ثمّ افتتح المدائن وأخذ أسبانبُر وكُردبَنداذ عنوةً، فأنزلها جندها فاحتووها، فكتب إلى سعد أن حوّلهم فحوّلهم إلى سوق حكمة، وبعضهم يقول حوّلهم إلى كُويفة دون الكوفة. وقال الاثرم وقد قيل التكوّف الاجتماع، وقيل أيضاً أنّ المواضع المستديرة من الرمل تسمّى كوفاني، وبعضهم يسمّي الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفة. قالوا: فأصابهم البَعوض، فكتب سعد إلى عمر يعلمه أنّ الناس قد بُعْضُوا وتأذّوا بذلك، فكتب إليه عمر أنّ العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلاّ ما يصلح الابل، فارتد لهم موضعاً عدناً، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً. وولّى الاختطاط للناس أبا الهَيَّاج الأسَدي عمرو بن مالك بن جُنادة. ثمّ أنّ عبد المسيح بن بُقَيلة أتى سعداً وقال له: أدلّك على أرض انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن المباقّ فدلّه على موضع الكوفة اليوم، وكان يقال لها سورستان. فلمّا انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلاً

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٨٧ – ٣٨٩.

(٢) القيروان: مجموعة من الخيل – قافلة.

فعلا بسهم قَبِل مَهبّ القبلة، فاعلم على موقعه، ثمّ علا بسهم آخر قبل مهبّ الشمال، وأعلم على موقعه، ثمّ علا بسهم قبل مهبّ الجنوب، واعلم على موقعه، ثمّ علا بسهم قبل مهبّ الصبا، فاعلم على موقعه، ثمّ وضع مسجدها. ودار إمارتها في مقام العالي وما حوله، وأسهم لنِزار وأهل اليمن بسهمين على أنّه من خرج بسهمه أوّلاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما. فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقيّ، وصارت خطط نزار في الجانب الغربيّ من وراء تلك العلامات، وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الإمارة. ثمّ أنّ المغيرة بن شعبة وسّعه، وبناه زياد فأحكمه، وبنى دار الإمارة، وكان زياد يقول أنفقت على كلّ أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مائة. وبنى فيها عمرو بن حُريث المخزومي بناء، وكان زياد يستخلفه على الكوفة إذا شخص إلى البصرة. ثمّ بنى العمّال فيها فضيّقوا رحابها وأفنيتها».

د - بناء البصرة:

روى ابن خلدون عن بناء البصرة وتخطيطها، وعن المعارك التي خاضها عتبة ابن غزوان واليها الأول، فكتب:(١)

«كان عمر عندما بعث المُثنّى إلى الحيرة بعث قَتَبة بن قتادة السَلوسِيّ إلى البصرة، فكان يغير بتلك الناحية. ثمّ استمدّ عمر فبعث إليه شُرَيْح بن عامر بن سعد بن بكر، فأقبل إلى البصرة ومضى إلى الأهواز ولقيه مسلحة الأعاجم فقتلوه. فبعث عمر عتبة بن غزوان والياً على تلك الناحية، وكتب إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدّه بعرفَجَة بن هرثمة، وأمره ان يقيم بالتخم بين أرض العرب وأرض العجم. فانتهى إلى حيال الجسر وبلغ صاحب الفرات خبرهم، فأقبل في أربعة آلاف وعتبة في خمسمائة، والتقوا فقتلوا الأعاجم أجمعين، وأسروا صاحب الفرات.

ثمّ نزل البصرة في ربيع سنة أربع عشرة، وقيل: إن البصرة بصرت سنة ست عشرة بعد جلولاء وتكريت. أرسل سعد إليها عتبة فأقام بها شهراً وخرج إليه أهل الأبلّة، وكانت

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٢ - ٩٤٤.

مرفأ للسفن من الصين فهزمهم عتبة وأحجرهم في المدينة. ورجع إلى عسكره ورعب الفرس فخرجوا عن الابلّة وحملوا ما خف وخلوا المدينة وعبروا النهر ودخلها المسلمون، فغنموا ما فيها واقتسموه. ثمّ اختطّ البصرة وبدأ بالمسجد فبناه بالقصب وجمع له أهل دست ميان، فلقيهم عتبة فهزمهم وأخذ مرزبانها أسيراً، وأخذ قتادة منطقته فبعث بها إلى عمر. وسأل عنهم فقيل له انثالت عليهم الدنيا، فهم يهيلون الذهب والفِضّة، فرغب الناس في البصرة وأتوها.

ثمّ سار عتبة إلي عمر بعد أن بعث مُجاشع بن مسعود في جيش إلي الفرات واستخلف المغيرة بن شعبة على الصلاة إلى قدوم مجاشع. وجاء ألف بيكان من عظماء الفرس إلى المسلمين، ولقيهم المغيرة بن شُعبَة بالمِرغاب، وبينما هم في القتال إذ لحق بهم النساء وقد اتخذن خُمُرَهُنّ رايات، فانهزم الأعاجم وكتبوا بالفتح إلى عمر، فردّ عتبة إلى عمله فمات في طريقه. وقيل: إن إمارة عتبة كانت سنة خمس عشرة وقيل ست عشرة، فوليها ستة أشهر، واستعمل عمر بعده المغيرة بن شعبة سنتين. فلما رمي بما رمي به عزله، واستعمل أبا موسى وقيل استعمل بعده عتبة أبا سبرة وبعده المغيرة».

هـ - فتح تكريت والموصل:

في هذا الوقت، كان «الانطاق» قائد جيش الموصل قد جمع جنداً كثيراً من فلول المنهزمين في المعارك السابقة مع المسلمين، كما أرسل له يزدجرد المدد. واتجه «الانطاق» مع جيشه إلى تكريت[1] حيث أقام الخنادق لحماية أرضه ومعه قبائل عربية.

ولمّا بلغ خبر «الانطلاق» إلى سعد، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه الموافقة على إرسال جيش إلى تكريت لمقاتلة جيش الموصل فيها.

كتب ابن الأثير عن رسالة سعد وجواب الخليفة ما يلي:[2]

---

(١) تبعد تكريت عن المدائن مائتين وعشرين كيلومتراً، وتقع على دجلة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٨.

«وفي هذه السنة فتحت تكريت في جمادى، وسبب ذلك أنّ الأنطاق سار من الموصل إلى تكريت وخَندَق [فيه] عليه ليحمي أرضه، ومعه الروم، وإياد، وتغلب، والنمر، والشهارجة. فبلغ ذلك سعداً فكتب إلى عمر فكتب إليه عمر أن سرِّح إليه عبدالله بن المعتمّ واستعمل على مقدّمته ربعي بن الأفكل، [وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذهلي، وعلى ميسرته فرات بن حيان العجلي، وعلى ساقته هانيء بن قيس]، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة».

وسار عبدالله بن المعتمّ من المدائن متجهاً إلى تكريت ومعه جيش مولّف من خمسة آلاف مقاتل، وعلى مينته الحارث وعلى ميسرته فرات وعلى ساقته هانيء وعلي الخيل عرفجة.[1] وبوصوله أمام المدينة توقف وأرسل بعض الفرسان للاستطلاع، فأبلغوه أن الفرس قد قاموا بحفر خندق حول جيشهم المؤلّف من خليط من الفرس والروم وقبائل تغلب والنمر وإياد العربية.

لم يتمكّن الجيش الإسلامي من فتح تكريت بسرعة رغم الهجمات المتكرّرة عليها لأسباب أهمها:

- عدم توفر معدات حصار لديه.
- امتداد الخندق حول المدينة والذي منع المقاتلين العرب، خاصة الفرسان، من بلوغ سورها بسهولة.

إنما، ورغم ذلك، تمكن الجيش لاحقاً من فتح المدينة عنوة بتعاونه مع مقاتلي قبائل العرب المتواجدة فيها، وفق الطبري الذي كتب:[2]

«فحصرهم أربعين يوماً، فتزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً؛ وكانوا أهون شوْكة، وأسرع أمراً من أهل جَلولاء. ووكّل عبدالله ابن المعتمّ بالعرب ليدعوهم إليه وإلى نصرته على الرّوم؛ فهم لا يُخفون عليه شيئاً. ولما رأت الرّوم أنهم لا يخرجون خَرْجة إلاّ كانت عليهم، ويُهزمون في كلّ ما

(١) ذكرت أسماؤهم أعلاه.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٧٤.

زاحفوهم؛ تركوا أمراءهم، ونقلوا متاعهم إلى السفن. وأقبلت العيون من تغلب وإياد والنّمر إلى عبدالله بن المعتمّ بالخبر، وسألوه للعرب السلم، وأخبروه أنهم قد استجابوا له؛ فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، وأقرّوا بما جاء به من عند الله؛ ثمّ أعلمونا رأيكم. فرجعوا إليهم بذلك، فردّوهم إليه بالإسلام؛ فردّهم إليهم، وقال: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التي تلينا لندخل عليهم منها، فخذوا بالأبواب التي تلي دِجلة، وكبّروا واقتلوا من قدرتم عليه؛ فانطلقوا حتى تُواطئوهم على ذلك. ونهد عبدالله والمسلمون لما يليهم وكبّروا، وكبّرت تغلب وإياد والنَّمر؛ وقد أخذوا بالأبواب؛ فحسب القوم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم، فدخلوا عليهم مما يلي دِجْلة، فبادروا الأبواب التي عليها المسلمون فأخذتم السيوف؛ سيوف المسلمين مستقبلتهم، وسيوف الرّبَعيّين الذين أسلموا ليلتئذ من خلفهم؛ فلم يفلت من أهل الخندق إلاّ مَنْ أسلم من تغلب وإياد والنّمر».

لم يسلم من سكان تكريت إلاّ من أسلم من الاعراب من إياد وتغلب والنمر[1]. وهكذا فتحت تكريت.

أما الموصل فقد كان الخليفة أمر في كتابه إلى سعد، في حال فتحه تكريت، أن يرسل ربعي بن الأفكل ومن معه إليها لفتح الحصنين فيها.

أرسل سعد ابن الأفكل العنزي بجيش كبير وعززهم بقبائل العرب الذين أسلموا حديثاً من تغلب وإياد والنمر الذين راحوا يسيرون ليلاً ويبيتون نهاراً بسبب الحر. وأرسل أمامه بعضاً من فرسان العرب ليخبروا أهل الحصنين أن العرب انتصروا في تكريت، ففعلوا.

وصل جيش المسلمين إلى الحصنين قبل أن يتمكّن من كان فيهما من التحضير للمعركة، ودخل إليهما فهرب قسم من أهلهما واعتنق الباقون الاسلام. وتمركز ربعي في حصن الموصل وتولّى عرفجة بن هرثمة الخراج.

(١) هي الموصل حالياً وكانت قديماً تضم نينوى والموصل. ونينوى حصن أشوري قديم فيه قبر النبي يونس.

كتب ابن كثير عن فتح الموصل ونينوى ما يلي:(١)

«وقد كان عمر عهد في كتابه إذا نصروا على تكريت أن يبعثوا ربعي بن الأفكل إلى الحصنين وهي الموصل سريعاً، فسار إليها كما أمر عمر، ومعه سرية كثيرة، وجماعة من الأبطال، فسار إليها حتى فجأها قبل وصول الأخبار إليها. فما كان إلاّ أن واقفها حتى أجابوا إلى الصلح فضربت عليهم الذلّة عن يد وهم صاغرون. ثمّ قسمت الأموال التي تحصّلت من تكريت، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف، وسهم الراجل ألف درهم. وبعثوا بالأخماس مع فرات بن حيان، وبالفتح مع الحارث بن حسان، وولي إمرة حرب الموصل ربعي بن الأفكل، وولي الخراج بها عرفجة بن هرثمة».

و - فتح ما سبذان:

وفتح المسلمون أيضاً في شمال العراق «ما سبذان». وسبب ذلك أن هاشماً بن عتبة، لما عاد من جلولاء إلى المدائن، بلغ سعداً بن أبي وقاص أن ابن الهرمزان، ويدعى «آذين»، قد جمع مجموعة من الفرس وخرج بهم إلى السهل لحرب المسلمين.

وكالعادة، كتب سعد إلى عمر بن الخطاب يعلمه بخروجه، فأمره عمر بإرسال جيش لمقاتلته.

كتب ابن الأثير عن فتح ماسبذان ما يأتي:(٢)

«ولما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن بلغ سعداً أنّ آذين بن الهرمزان قد جمع جمعاً وخرج بهم إلى السهل. [فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر إبعث إليهم ضرار بن الخطاب في جُند، واجعل على مقدمته ابن الهذيل الأسدي، وعلى مجنبتيه عبدالله بن وهب الراسي، والمضارب بن فلان العجلي]. فأرسل إليهم ضرّار بن الخطاب في جيش فالتقوا بسهل ما سبذان فاقتتلوا، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخذ ضرار آذين أسيراً فضرب رقبته. ثمّ خرج في الطلب حتى انتهى إلى

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٧٠.

(٢) ماسبذان هي مدن عدّة على ماء اسمه «سبذان».

السيروان فأخذ ماسبذان عنوة فهرب أهلها في الجبال فدعاهم فاستجابوا له وأقام بها حتى تحوّل سعد إلى الكوفة فأرسل إليه فنزل الكوفة، واستخلف على ماسبذان ابن الهذيل الأسدي فكانت أحد فروج الكوفة. وقيل: إن فتحها كان بعد وقعة نهاوند».

وهكذ فتح المسلمون ماسبذان إكمالاً للفتوحات التي كانت تجري شمال العراق تمهيداً لأسلمة المنطقة بكاملها.

وما يلفت في كتاب الخليفة إلى سعد، كما في كتبه السابقة إليه، أن عمراً حدد بنفسه من سيقود الجيش الذي سيرسل، ومن يقود مقدّمته وميسرته وميمنته وقلبه والساقة، رغم أن سعداً هو قائد عام للقوات الاسلامية في الشرق، وكان قد أظهر عبقرية عسكرية وطبّق استراتيجيات تظهره من كبار قادة عصره. إلاّ أن هذه الطريقة في إدارة الأمور كانت قد اتُّبعت من قبل الخليفة الأول أبي بكر ودَأب الخليفة الثاني عمر على إتباعها.[1]

ز - فتح قرقيسياء وهيت:

ولـمّـا رأى الروم توسّع المسلمين وفتوحاتهم في شمال العراق، اجتمعوا في حمص، حيث جندوا جيشاً كبيراً وأرسلوه إلى هيت لقتال المسلمين.

وكالعادة، استشار سعد أمير المؤمنين الذي أمره بإرسال جيش بقيادة عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف.

كتب الطبري عن فتح قرقيساء وهيت ما يأتي:[2]

«قال ابن جرجير وغيره: لما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن وكان أهل الجزيرة قد أمدوا أهل حمص على قتال أبي عبيدة وخالد - لمّا كان هرقل بقنسرين - واجتمع أهل الجزيرة في مدينة هيت، كتب سعد إلى عمر في ذلك. فكتب إليه أن يبعث إليهم جيشاً، وأن يؤمّر عليهم عمر بن مالك ابن عتبة بن نوفل بن عبد مناف. فسار فيمن معه من المسلمين إلى هيت، فوجدهم قد خندقوا عليهم، فحاصرهم حيناً فلم يظفر

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧١.

بهم. فسار في طائفة من أصحابه واستخلف على محاصرة هيت الحارث بن يزيد، فراح عمر بن مالك إلى قرقيسيا فأخذها عنوة، وأنابوا إلى بذل الجزية. وكتب إلى نائبه على هيت: إن لم يصالحوا أن يحفر من وراء خندقهم خندقاً، ويجعل له أبواباً من ناحيته. فلما بلغهم ذلك أنابوا إلى المصالحة».

وهكذا استجاب أهل هيت لعرض الحارث وجلا الفرس عنها وبقي فيها العرب الذين اعتنقت غالبيتهم الاسلام.

كلّ هذه الأحداث التي جرت في شمال العراق وأدت إلى اكتمال عملية فتحه ودخوله في عالم الإسلام، حصلت في السنة الرابعة عشرة للهجرة.

ح - الدروس المستقاة من معارك شمال العراق:

١ - درج الخليفتان أبو بكر وعمر بن الخطاب على تحديد تفاصيل تسيير حملات الفتوحات الكبرى، ولهذا التدبير حسنات وسيئات. فمن حسناته أن الخليفة هو المسؤول الأول في العالم الإسلامي وخليفة رسول الله، لذلك فإن أوامره تحفّز القادة والمقاتلين الذين اختارهم للمهمات. ومن سيئاته أن القائد العسكري المكلف بإرسال الحملة مطّلع، بحكم وجوده العملاني، على تفاصيل عن الأرض وإمكانات قادته قد يكون الخليفة لا يعرفها.

فالقيادة العامة تكلف الوحدة الكبرى بالمهمّة، وتترك لقائد هذه الوحدة صلاحية تحديد تفاصيل التنفيذ لسببين:

- الأول، معرفته العميقة بمرؤوسيه وإمكاناتهم.
- الثاني، تحمّله المسؤولية في حال الفشل في تنفيذ المهمّة التي اضطلع بنفسه بها.

٢ - أحسن عبدالله المعتمّ بإرسال مفرزة استطلاع أمامه إلى تكريت وذلك تجنّباً لمفاجآت العدو. فالوحدة الكبرى، وعند تقدّمها باتجاه العدو، غالباً ما تؤمّن طليعتها ومجنبيتها بفصل مفارز خاصة تكون مهمتها الحؤول دون تعرّض الوحدة لكمائن أو لمفاجآت غير مأمونة العواقب.

٣ - طبّق القائد العربي قواعد الحدّة والاستمرارية والتصميم في حصاره لمدينة تكريت، الأمر الذي أعطى نتائجه إذ دبّ الوهن في نفوس المحاصرين داخل المدينة

فحمل المقاتلون متاعهم إلى السفن تحضيراً لفرارهم.

واستغل ابن المعتمّ الوضع المعنوي المتدهور داخل تكريت مركّزاً على قبائل العرب التي استجاب أبناؤها له وغدروا بالروم وفتحوا أبواب السور، الأمر الذي ساهم في دخول المسلمين إلى المدينة وفتحها.

فانحياز بعض وحدات الجيش الذي يخوض القتال إلى الخصم خلال المعركة هي حال سُجّل حصولها مرات عديدة خلال عصور التاريخ، نذكر منها الحالين التاليين:

- في معركة وادي لكّة، التي فتحت أبواب الأندلس أمام جيش طارق بن زياد، ترك أبناء الملك الاسباني المخلوع غيطشة جانب الملك رودريك ملتحقين مع وحداتهم بجيش طارق، الأمر الذي ساهم في انتصاره الساحق على القوط.
- خلال معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ التي انتصر فيها السلطان العثماني سليم الأول على السلطان المملوكي قانصوه الغوري والتي أنهت وجود دولة المماليك في الشرق الأدنى وأقامت مكانها السلطنة العثمانية، إنحاز الأمير اللبناني فخر الدين الأول إلى جانب العثمانيين خالعاً طاعة المماليك الذين خسروا المعركة.

٤ - في معركة الموصل، قرّر سعد التأثير في معنويات مقاتلي الحصنين فبعث رسولاً إليهم يخبرهم بسقوط تكريت في يد العرب، الأمر الذي أعطى نتيجة جيّدة إذ أنه، وبوصول الجيش الاسلامي إليهما، فرّ قسم من أهلهما واعتنق الباقون الاسلام.

أما ابن الافكل فقد طبّق قاعدة الانتقال السريع نحو الموصل لمفاجأة حاميتها. وبالفعل بلغها جيشه قبل أن يتمكّن من في حصنيها من التحضّر للقتال. فالمفاجأة تؤمن حرية العمل والحصيل الأقصى للوسائل.

٥ - درج القائد الكبير سعد بن أبي وقاص على استشارة الخليفة عمر بن الخطاب قبل إقدامه على إرسال جيوش جديدة لتتوغل في شمال العراق، لا سيما وأن الخليفة آثر التريث في متابعة الحملة

بهدف تنظيم المناطق التي افتتحت وإعادة تنظيم القوى العربية الاسلامية.

فالقائد الناجح يجب أن يتمتع بانضباط فكري يجعله يعمل بوحي أفكار القيادة السياسية التي يتبع لها، لأن المغامرت العسكرية التي تنفذ دون دراسات معمّقة للوضع السياسي والعسكري، قد تؤدّي إلى خسائر كبرى. لقد سبق وأوردنا أثناء معالجتنا لحروب الردة مثالاً عن مخالفة أمر الخليفة أبي بكر أدى إلى نكبة للمسلمين. فقد كان أبو بكر قد أرسل عكرمة بن أبي جهل في جيش لقتال مسيلمة اليمني، وأتبعه بشرحبيل بن حسنة. لكن عكرمة لم ينتظر شرحبيل بل هاجم مسيلمة الذي هزمه، وكان ذلك سنة ١١هـ.[١]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢١٨ - ٢١٩.

لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يمكن مراجعة الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

الفصل الثالث
الفتوحات في بلاد فارس

عملت الهزائم المتتالية التي تعرّضت لها الجيوش الفارسية في مختلف مناطق المملكة على زعزعة دعائمها وترنّحها تحت ضربات المسلمين التي تتابعت بعد الفتوحات في شمال العراق، لتتعدّى ميدان العراق وتصل إلى كلّ المناطق التي كانت تسيطر عليها المملكة الساسانية.

وهكذا توالت الفتوحات الإسلامية لتصل إلى الأهواز والري وجرجان وقوس وطبرستان واذربيجان وخراسان والسوس وجنديسابور ونهاوند وأصفهان، إذ راحت الحصون الفارسية تسقط الواحد تلو الآخر، والمدن تدخل في ذمّة المسلمين مدينة في اثر مدينة.

فمعركة نهاوند التي جنّد الفرس لها جيشاً فاق بعدده عدد الجيش الذي جمعوه في القادسية، إذ بلغ ١٥٠ ألف مقاتل، خسرها الفرس، فسميت معركة «فتح الفتوح». ثمّ جاء سقوط أصفهان ليؤكّد زعزعة أركان الدولة الفارسية. هذه المعارك التي حصلت بعد إتمام فتح شمال العراق سنحاول التركيز عليها في هذا الفصل.

إنما، وقبل الحديث عن هذه المعارك، رأينا وجوب لحظ مغامرة بحرية لم يكن العرب قد اعتادوها في حروبهم الأولى، وهي غزو فارس من البحرين.

أولاً – غزوة فارس من البحرين

من المعروف أن الحروب الأولى في الإسلام في عهد النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين لم تكن بحرية لأن المقاتلين

العرب، ومنذ الجاهلية، قد تعوّدوا القتال على أرض صلبة، ولم يكونوا قد بنوا أساطيلهم بعدً، لأن الأسطول الأول بُني في عهد معاوية بن أبي سفيان.

وكتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص قبل غزوه مصر شهير في عالم الفتوحات، إذ كتب له: «لا تجعل بيني وبين المسلمين ماء». حتى في العصر الأموي، وعندما كتب والي المغرب موسى ابن نُصير يستشير الخليفة في غزو الأندلس، أجابه الخليفة: «لا تجعل بيني وبين المسلمين ماء ولا تغرّر بالمسلمين».

لذلك، فإن الغزوة البحرية التي نفذها والي البحرين العلاء بن الحضرمي في السنة السابعة عشرة للهجرة يمكن تسميتها بـ«المغامرة البحرية».

فما هي تفاصيل هذه الغزوة؟

كتب ابن الأثير عن أسباب الغزوة وانتقال السفن عبر الخليج العربي إلى بلاد فارس:[1]

«قيل: كان عمر يقول لمّا أخذت الأهواز وما يليها: «وددتُ أنّ بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا».

وقد كان العلاء بن الحضرمي على البحرين أيام أبي بكر فعزله عمر وجعل موضعه قدامة ابن مظعون، ثمّ عزل قدامة وأعاد العلاء يناوىء سعد بن أبي وقاص ففاز العلاء في قتال أهل الردة بالفضل. فلما ظفر سعد بأهل القادسية وأزاح الأكاسرة [عن الدار وأخذ حدود ما يلي السواد] جاء بأعظم مما فعله العلاء، فأراد العلاء أن يصنع في الفرس شيئاً ولم ينظر في [ما بين فضل] الطاعة والمعصية: وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر ونهى غيره أيضاً اتباعاً لرسول الله ﷺ وأبي بكر، وخوف الغرر. فندب العلاء الناس إلى فارس فأجابوه وفرّقهم أجناداً، على أحدها الجارود بن المعلى، وعلى الآخر سوار بن همام، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى، وخليد على جميع الناس، وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر. فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس فخرجوا إلى إصْطَخْر، وبإزائهم أهل فارس، وعليهم الهربذ، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم، فقام

---
(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

خليد في الناس فخطبهم، ثمّ قال: «أما بعد فإنّ القوم لم يدعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفن والأرض لمن غلب ﴿واستَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وَإنَّها لَكَبِيْرَةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِيْن﴾[1] فأجابوه إلى ذلك».

وبعد أن أدّى المسلمون صلاة الظهر جرى قتال شديد في مكان يدعى «طاوس» حيث أبلى المسلمون بلاءً حسناً ملحقين بالفرس خسائر جسيمة، فيما استشهد منهم الجارود وسوار. لكن، وأمام التفوّق في العدد، حاول المسلمون التراجع نحو البحر، فخرج إليهم جيش فارسي من اصطخر يقوده «شهرك» وسد عليهم الطريق بعد أن كان رجال هربذ قد أغرقوا سفنهم. وهكذا حصر المسلمون بين جيشين فارسيين.

صمد المسلمون أمام الجيش إلى أن بلغ أمرهم الخليفة عمر بن الخطاب الذي أرسل إليهم مدداً.

كتب ابن كثير واصفاً ردّ فعل الخليفة وإرساله المدد ومجرى المعركة التي انتهت بهزيمة الفرس وتخليص المحاصرين من المسلمين وإكمال فتح منطقة اصطخر:[2]

«ولما بلغ عمر ما صنع العلاء بن الحضرمي، اشتدّ غضبه عليه، وبعث إليه فعزله وتوعّده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه. فقال: إلحق بسعد بن أبي وقاص، فخرج العلاء إلى سعد بن أبي وقاص مضافاً إليه، وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان: إن العلاء بن الحضرمي خرج بجيش فأقطعهم أهل فارس وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك، فخشيت عليهم أن لا ينصروا، أن يغلبوا وينشبوا،[3] فاندب إليهم الناس وأضممهم إليك من قبل أن يجتاحوا. فندب عتبة المسلمين وأخبرهم بكتاب عمر إليه في ذلك، فانتدب جماعة من الأمراء الأبطال، منهم سعد[4] بن أبي وقاص، وعاصم بن عمرو، وعرفجة بن

---

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٨٢ - ٨٣.

(٣) ينشبوا أي يرموا «القوس والنشاب» أي النبال.

(٤) ليس سعد إنما في مرجع آخر هاشم.

هرثمة، وحذيفة بن محصن، والأحنف بن قيس، وغيرهم، في اثني عشر ألفاً. وعلى الجميع أبو سبرة بن أبي رهم. فخرجوا على البغال يجنبون[1] الخيل سراعاً، فساروا على الساحل لا يلقون أحداً حتى انتهوا إلى موضع الوقعة التي كانت بين المسلمين، من أصحاب العلاء، وبين أهل فارس بالمكان المسمّى بطاوس. وإذا خليد ابن المنذر ومن معه من المسلمين محصورون قد أحاط بهم العدو من كلّ جانب، وقد تداعت عليهم تلك الأمم من كلّ وجه، وقد تكاملت أمداد المشركين، ولم يبق إلاّ القتال. فقدم المسلمون إليهم في أحوج ما هم فيه إليهم، فالتقوا مع المشركين رأساً، فكسر أبو سبرة المشركين كسرة عظيمة. وقتل منهم مقتلة عظيمة جداً، وأخذ منهم أموالاً جزيلة باهرة، واستنقذ خليداً ومن معه من المسلمين من أيديهم، وأعز به الإسلام وأهله، ودفع الشرك وأذله ولله الحمد والمنة ثمّ عادوا إلى عتبة بن غزوان أي البصرة».

- **الدروس المستقاة:**

- نفّذ والي البحرين حملة بحرية، اعتبرت الأولى في تاريخ الإسلام، رغم أوامر الخليفة بعدم خوض قتال بحراً نظراً لعدم تدرّب المسلمين على مثل هذا النوع من القتال. ويعدّ ما قام به العلاء، في اللغة العسكرية، عصياناً لا سيما أمام عدو متفوّق عليه عدداً وعدّة، وفي أرض جديدة على المسلمين وباستعمال وسائل انتقال غير آمنة.

وبالفعل، تمكّن الفرس من تطويق المسلمين ومنعهم من العودة إلى البحر للفرار بسفنهم رغم استبسال قادتهم ومقاتليهم في القتال. وهذا ما دفع الخليفة إلى إرسال مدد إلى منطقة اصطخر تمكنت في إعادة السيطرة للمسلمين عليها.

لقد أخطأ العلاء في تقدير الموقف ومقارنة قوته مع قوّة العدو فاخلّ بمبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل». كما أنه فقد حرية عمله عندما طوّقه المشركون ومنعوه من بلوغ وسائل نقله أي السفن، وأصبح على القيادة التي يتبع لها العمل على فك الحصار عنه.

---

(١) يجنبون أي يركبون الخيول وإلى جانب كلّ واحد منهم فرس ثانية لاستعمالها عند الحاجة.

لقد سبق وأوردنا في هذه الموسوعة أنه، وعندما تطوّق وحدة عسكرية، يصبح فكّ الطوق عنها هدف قيادتها الأول وذلك من خلال قيامها بهجوم مركّز على أحد جوانب الطوق وخرقه. وفي حال تعذّر ذلك، تكلف وحدة عسكرية أخرى بمهمّة فك الحصار، وهذا ما أمر به الخليفة عمر بن الخطاب، فنُفّذ على أتم وجه.

ثانياً – فتح الأهواز

الأهواز هي إقليم خوزستان[1] ويشمل ست مدن هي:

تستر، جنديسابور، السوس، رام هرمز، سوق العتيق، وسوق الأهواز.

والأهواز، كانت ما تزال، رغم فتوحات شمال العراق، منطقة متوترة، يفرّ إليها الهاربون من أمام المسلمين. وقد سبق وتكلّمنا عن فرار الهرمزان، أحد قادة جيش رسيم، إليها بعد معركة بابل.[2]

سيطر الهرمزان على منطقة الأهواز وجمع منها جيشاً كبيراً وراح يُغير على مواقع المسلمين، لا سيما في شمال شط العرب والبصرة حيث كان عتبة بن غزوان والياً عليها.

كتب ابن خلدون عن الوضع في الأهواز:[3]

«كتب إليّ السريّ، يذكر أن شعيباً حدّثه عن سيف بن عمر، عن محمد وطلحة والمهَلّب وعمرو، قالوا: كان الهُرمزان أحدَ البيوتات السبعة في أهل فارس، وكانت أمته مِهْرَجان قَذَق وكُور الأهواز، فهؤلاء بيوتات دون سائر أهل فارس. فلما انهزم يوم القادسيّة كان وجهه إلى أمته، فملكهم وقاتل بهم مَن أرادهم، فكان الهُرْمزان يُغير على أهل مَيْسان ودسْتِمَيْسان من وجهين، من مناذر ونهرتيري».

استنجد عتبة بن غزوان بسعد بن أبي وقاص الذي أسرع إلى إرسال قوة من خمسة آلاف مقاتل يقودها النعمان بن

(١) ايران اليوم.

(٢) انظر معركة بابل في الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص

مقرن المزني ونعيم بن مسعود اللذان أمرهما بأن يتقدّما نحو البصرة ويشكلا حاجزاً بين قوات الهرمزان وقوات عتبة.

أما عتبة فقد قرر أيضاً المشاركة في الجهاد فأرسل سلمي بن القين وحرملة بن قريظة في مجموعة مقاتلين، وهما من المهاجرين، إلى القبائل العربية من قومهما بني العم بن مالك لتجنيد مقاتلين منهم لقتال الفرس إلى جانب المسلمين.

روى ابن الأثير ان بني العم بن مالك، الذين كانوا ينزلون خوزستان قبل الإسلام تجاوبوا مع الدعوة وجندوا جنداً بموافقة غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي اللذين وعدوهما بالثورة وإرسال المدد إلى المسلمين.

روى ابن خلدون تفاصيل المعارك في الأهواز وصولاً إلى فتحها النهائي وأسر الهرمزان واقتسام الفيء، فكتب:(١)

«واستمدّ عتبة بن غزوان سعداً فأمدّه بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود. فنزل بين ثغور البصرة وثغور الأهواز. وبعث عتبة بن غزوان سَلمِي بن القين وحرملة بن قريضة من بني العَدَويّة من حَنْظَلَة، فنزل على ثغور البصرة بميسان ودعوا بني العمّ بن مالك، وكانوا ينزلون خراسان. فأهل البلاد يأمنونهم، واستجابوا وجاء منهم غالب الوائلي وكُلَيْب بن وائل الكَلْبي، فلقي سَلَميّ وحَرْمَلَة وواعداهما الثورة بمنادِر ونهرتيري. ونهض سلمي وحرملة يوم الموعد في التعبئة، وانهض نعيماً والتقوا هم والهُرْمُزان، وسلمي على أهل البصرة، ونعيم على أهل الكوفة. وأقبل إليهما المدد من قبل غالب وكليب، وقد ملك منادر ونهرتيري، فانهزم الهرمزان وقتل المسلمون من أهل فارس مقتلة وانتهوا في أتباعهم إلى شاطىء دجيل وملكوا ما دونها. وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وصل دجيل بينه وبين المسلمين. ثمّ طلب الهرمزان الصلح فصالحوه على الأهواز كلّها، ما خلا نهرتيري ومنادر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يردّ، وبقية المسالح على نهرتيري ومنادر، وفيهما غالب وكليب. ثمّ

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٦٣ - ٩٦٦.

وقع بينهما وبين الهرمزان اختلاف في التخم ووافقهما سَلَمِيّ وحرملة فنقض الهرمزان ومنع ما قبله وكثّف جنوده بالأكراد. وبعث عتبة بن غَزْوان حَرْقوص بن زُهَير السعدِيّ لقتاله، فانهزم وسار إلى رامَ هُرمُز. وفتح حرقوص سوق الأهواز ونزل بها واتسعت له البلاد إلى تستر. ووضع الجزية وكتب بالفتح، وبعث في أثر الهُرمُزان جَزْءَ ابن معاوية، فانتهى إلى قرية الشَغْر، ثمّ إلى دَوْرَق فملكها. وأقام بالبلاد وعمّرها، وطلب الهرمزان الصلح على ما بقي من البلاد.

ونزل حرقوص جبل الأهواز. وكان يزدجرد في خلال ذلك يمدّ ويحرّض أهل فارس، حتى اجتمعوا وتعاهدوا مع أهل الأهواز على النصرة. وبلغت الأخبار حرقوصاً وجزءاً وسَلَمِي وحَرْمَلَة فكتبوا إلى عمر؛ فكتب إلى سعد أن يبعث جنداً كثيفاً مع النُعمان بن مُقَرّن ينزلون منازل الهرمزان. وكتب إلى أبي موسى أن يبعث كذلك جنداً كثيفاً مع سعد بن عديّ أخي سُهَيل، ويكون فيهم البرّاء بن مالك ومجزأةُ ابن ثّور وعَرفَجة بن هرثَمَة وغيرهم. وعلى الجندين أبو سَبْرَة بن أبي رهم. فخرج النعمان بن مقرّن في أهل الكوفة فخلّف حرقوصاً وسلمي وحرملة إلى الهرمزان وهو برام هرمز. فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدّة ولقيه فانهزم ولحق بتستر. وجاء النعمان إلى رام هرمز فنزلها، وجاء أهل البصرة من بعده فلحقهم خبر الواقعة بسوق الأهواز، فساروا حتى أتوا تستر».

ثالثاً - فتح رَامَهرمُز[1] وتستر

كان الهرمزان قد فرّ أمام القوات الاسلامية، فيما كان حرقوص يتمركز مع قواته في سوق الأهواز. ولما جاءت أوامر الخليفة إلى حرقوص بوجوب ملاحقة الهرمزان، أرسل جَزءاً بن معاوية لمطاردته، فسار على رأس قوة يتعقّب فلول المنهزمين حتى بلغ قرية «الشغر» التي اعتصم فيها الهرمزان قبل انتقاله إلى «رامهرز»، فحاصرها من دون أن يتمكّن من فتحها. فتركها وراح يفتح المدن والقرى في تلك المنطقة داعياً

(١) مدينة مشهورة بنواحي خوزستان.

الفلاحين الذين هربوا للعودة إلى أرضهم لقاء دفع الجزية.

أما الهرمزان، فقد خرج إليه النعمان بن مقرِّن في أهل الكوفة، فالتقى الجمعان في «باربك» واقتتلوا قتالاً شديداً هزم خلاله الهرمزان ففرّ إلى تستر، وفتح النعمان رامهرز وصالح أهل كورة «إيذج».(١)

كتب ابن الأثير، مكملاً رواية الأحداث التي أدّت إلى فتح تستر وأسر الهرمزان، ما يلي:(٢)

«فأتاهم خبر الوقعة وهم بسوق الأهواز وأتاهم الخبر أنّ الهرمزان قد لحق بتستر فساروا نحوه، وسار النعمان أيضاً، وسار حرقوص، وسلمى، وحرملة؛ وجزء فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس، والجبال، والأهواز في الخنادق. وأمدّهم عمر بأبي موسى وجعله على أهل البصرة، وعلى الجميع أبو سبرة فحاصروهم أشهراً وأكثروا فيهم القتل. وقَتَل البَراء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك في ذلك الحصار إلى الفتح مائة مبارز سوى من قتل في غير ذلك، وقتل مثله مجزأة بن ثور، وكعب بن ثور، وعدَّة من أهل البصرة وأهل الكوفة.

وزاحفهم المشركون أيام تُسْتَر ثمانين زحفاً يكون لهم مرّة ومرة عليهم. فلمّا كان في آخر زحف منها واشتدّ القتال قال المسلمون: يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم [لنا] قال: «اللهم اهزمهم لنا واستشهدني» - وكان مجاب الدعوة، فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثمّ اقتحموها عليهم، ثمّ دخلوا مدينتهم، وأحاط بها المسلمون. فبينما هم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجلٌ إلى النعمان يستأمنه على أن يدله على مدخل يدخلون منه. ورمى في ناحية أبي موسى بسهم «إن أمنتموني دللتكم على مكان تأتون المدينة منه»، فأمّنوه في نشابة فرمى إليهم بأخرى، وقال: انهدوا مِن قِبَل مخرج الماء فإنّكم تقتحمونها.

فندب الناس إليه فانتدب له عامر بن عبد قيس وبش كثير ونهدوا لذلك المكان ليلاً.

---

(١) كورة بين خرزستان وأصفهان.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٠ - ٣٩١.

وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مع الرجل الذي يدلّهم على المدخل إلى المدينة فانتدب له بشر كثير فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج فدخلوا في السّرب والناس من خارج. فلما دخلوا المدينة كبّروا فيها وكبّر المسلمون من خارج وفتحت الأبواب فاجتلدوا فيها فأناموا كلّ مقاتل. وقصد الهرمزان القلعة فتحصّن بها وأطاف به الذين دخلوا فنزل إليهم على حكم عمر فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف، وسهم الراجل ألفاً. وجاء صاحب الرمية والرجل الذي خرج بنفسه فأمّنوهما ومَن أغلق بابه معهما».(١)

- الدروس المستقاة:

١ - لم يتمكّن القائد الإسلامي حرقوص من فتح قرية الشغر حيث يتحصّن الهرمزان رغم محاصرته لها، ففك الحصار عنها وراح يفتح باقي المدن والقرى في الأهواز.

لقد أحسن حرقوص تطبيق المبادىء والقواعد الاستراتيجية إذ أن الجيوش توجه

---

(١) نقل ابن الأثير رواية إرسال الهرمزان إلى الخليفة والحوار بينهما، وصولاً إلى إعلان إسلام الهرمزان، نرى وجوبْ ذكرها هنا لما فيها من معلومات مفيدة عن حكمة الخليفة عمر وحلمه وتصرّف المسلمين الشريف مع أعدائهم. كتب ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٣٩١ - ٣٩١:

«وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب وتاجه وكان مكللاً بالياقوت وحليته ليراه عمر والمسلمون. فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل: جلس في المسجد لوفد من الكوفة فوجدوه في المسجد متوسّداً برنسه وكان قد لبسه للوفد، فلما قاموا عنه توسّده. ونام فجلسوا دونه، وهو نائم والدرة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ قالوا: هوذا. فقال: أين حرسه وحُجّابه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب، ولا كاتب. قال: فينبغي أن يكون نبياً. قالوا: بل يعمل بعمل الأنبياء. فاستيقظ عمر بجلبة الناس فاستوى جالساً، ثمّ نظر إلى الهرمزان فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم. [فتأمله وتأمّل ما عليه، وقال: أعوذ بالله من النار وأستعين الله] فقال: الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وغيره أشباهه. فأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال له عمر: [هيه] يا هرمزن كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر إنّا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم [إذ لم يكن معنا ولا معكم]. فلما كان الآن معكم غلبتمونا. [فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية بأجتماعكم وتفرقنا]. =

عادة حملات هجومية فتختار محوراً رئيسياً للهجوم تضع عليه ثقلها العسكري، ومحوراً ثانوياً تتقدّم عليه قوّة فرعية. ويصدف أن تصطدم القوى المكلفة بالهجوم الرئيسي بعقبات توقفها من متابعة تقدّمها، فيما تتمكّن القوة الفرعية من تذليل العقبات أمامها. ففي هذه الحال، تبدّل القيادة أفضلياتها من محور إلى آخر فتتابع وحداتها هجومها الناجح على المحور الثانوي الذي يصبح رئيسياً.

وبالفعل، تمكّن حرقوص من فتح مناطق جديدة بعد رفعه الحصار عن القرية التي فشل في فتحها.

٢ - بعد أن طال حصار تستر وجرت وقائع عديدة دون أن يتمكّن المسلمون من فتحها، قام أحد سكانها بدلالة هؤلاء على مدخل غير محصّن بإمكانهم الدخول منه إلى المدينة، الأمر الذي أمّن لهم فتح المدينة عنوة. أما طريقة الاتصال بين الجيش الإسلامي والمخبر المذكور، فكان برمي سهام ثبتت عليها الرسائل.

كان على الهرمزان التثبت من أمرين داخل المدينة لمنع سقوطها، وهما:

١ - الأول، تحصين جميع جوانبها وعدم ترك أي مدخل بإمكان الجيش الذي يحاصر المدينة من دخوله إليها.

٢ - الثاني، التأكّد من حسن ولاء جميع القاطنين داخل المدينة ومراقبتهم لمنع التواصل بينهم وبين العدو الذي يحاصرها.

= ثمّ قال له: ما حجتك وما عذرك في انتقاضك مرة بعد أخرى؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك. قال: لا تخف ذلك. واستسقى ماءً فأتي به في قدح غليظ فقال لو متّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا. فأتي به في إناء يرضاه [فجعلت يده ترجف] فقال: إني أخاف ان أُقتل وأنا أشرب، فقال: عمر: لا بأس عليك حتى تشربه. فأكفأه، فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن استأمن به. فقال عمر له: إني قاتلك فقال: قد أمنتني. فقال: كذبت. قال أنس: صَدَق يا أمير المؤمنين قد أمنته. قال عمر: [ويحك] يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك. قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشربه، وقال له من حوله مثل ذلك. فأقبل على الهرمزان وقال: خدعتني والله لا أنخدع إلاّ أن تسلم فأسلم، ففرض له في ألفين وأنزله المدينة. وكان المترجم بينهما المغيرة بن شعبة وكان يفقه بالفارسية إلى أن جاء المترجم».

رابعاً – فتح السوس

سار أبو سبرة بن أبي رهم من تستر إلى السوس التي كانت مدينة حصينة يحكمها شهريار شقيق الهرمزان. وكان مع أبي سبرة مجموعة من الأعيان منهم أبو موس الاشعري والنعمان بن مقرن.

حاصر المسلمون السوس مدّة طويلة جرت خلالها مناوشات ومبارزات عديدة لم يحسم فيها النزاع، فحصل للمسلمين حول المدينة ضنك شديد بسبب مقتل العديد منهم خلال هذه المناوشات.

وفي أحد الأيام، أراد الفرس إثارة المسلمين، فصعد رجال دينهم وعلماؤهم إلى الأسوار وأشرفوا على المسلمين الذين يحاصرون المدينة ونادى مناديهم:(١)

«يا معشر العرب، إنّ ممّا عهد إلينا علماؤنا وأوائلنا أنه لا يفتح السوس إلاّ الدجّال أو قوم فيهم الدجال، فإن كان فيكم فستفتحونها».

ورأى أبو سبرة أن يسرع بشن الهجوم على السوس واحتلالها قبل أن يكتمل تجمّع الفرس الكبير في نهاوند فقسّم جيشه قبل شنّ الهجوم عليها، وشكّله كما يلي:

- جيش الكوفة بقيادة المقترب الأسود ابن ربيعة.
- جيش البصرة بقيادة أبي سبرة نفسه.
- الفرسان بقيادة صافٍ بن صياد.
- فرقة الرماة.

روى ابن كثير رواية عن فتح السوس بعد أن قام صافٍ بن صياد بدق الباب برجله مما أدى إلى قطع سلاسله وتكسر الاغلاق، وذلك بعد أن كان منادي أهل المدينة قد نادى بضرورة وجود دجّال مع المسلمين. لكن ابن كثير لم يورد صراحة أن صافياً دجال. كتب ابن كثير:(٢)

«واتفق أنه كان في جيش أبي موسى الأشعري صاف بن صياد، فأرسله أبو موسى فيمن يحاصره، فجاء إلى الباب فدقه برجله فتقطعت السلاسل، وتكسّرت الأغلاق،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٢ – ٣٩٣.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٨٦.

ودخل المسلمون البلد فقتلوا من وجدوا حتى نادوا بالأمان ودعوا إلى الصلح فأجابوهم إلى ذلك. وكان على السوس شهريار أخو الهرمزان، فاستحوذ المسلمون على السوس، وهو بلد قديم العمارة في الأرض يقال إنه أول مدينة وضعت على وجه الأرض والله أعلم. وذكر ابن جرير أنهم وجدوا قبر دانيال بالسوس، وأن أبا موسى لما قدم بها بعد مضي أبي سبرة إلى جنديسابور، كتب إلى عمر في أمره فكتب إليه أن يدفنه وأن يغيب عن الناس موضع قبره، ففعل».[1]

وبالفعل، اقتحم المسلمون الأسوار وشنوا هجوماً كاسحاً فاقتلعوا بوابة المدخل ودخلوا السوس حيث اشتبكوا مع الفرس في قتال عنيف، إلى أن استسلم الفرس. وطالب أهل السوس بالصلح فصالحهم المسلمون وأبقوا حامية في المدينة.

خامساً – فتح جنديسابور

كان الخليفة عمر بن الخطاب قد كتب إلى زرّ بن عبدالله بن كليب الفُقيمي[2] أن يسير إلى جنديسابور ويحاصرها، ففعل. فلما انتهى أبو سبرة من أمر السوس سار إلى جنديسابور وانضمّ إلى جيش زر في حصارها.

وحصلت مناوشات عديدة من دون أن يتمكّن المسلمون من فتح المدينة التي

---

(١) روى ابن الأثير رواية عن وفاة دانيال النبي في السوس فيها الكثير من الغرابة، نوردها هنا. كتب ابن الأثير: «وكان دانيال قد لزم نواحي فارس بعد بختنصر. فلما حضرته الوفاة ولم ير أحداً [ممن هو بين ظهريهم] على الإسلام أكرم كتاب الله عمن لم يجبه [ولم يقبل منه فأودعه ربه]، فقال: لابنه ائت ساحل البحر فاقذف بهذا الكتاب فيه فأخذه الغلام [وضن به] وغاب عنه وعاد، وقال له: قد فعلت. قال: ما صنع البحر [حين هوى فيه]؟ قال: ما صنع شيئاً. فغضب وقال: والله ما فعلت الذي أمرتُك به، فخرج من عنده وفعل [مثل] فعلته الأولى [ثمّ أتاه] فقال: كيف رأيت البحر صنع [حين هوى فيه]؟ قال: ماج واصطفق. فغضب أشد من الأول، وقال: والله ما فعلت الذي أمرتك به فعاد إلي البحر وألقاه فيه فانفلق البحر عن الأرض عن مثل التنور فهوى فيها، ثمّ انطبقت عليه واختلط الماء. فلما رجع إليه وأخبره بما رأى فقال: الآن صدقت. ومات دانيال بالسوس، وكان هناك يستسقى بجسده، فاستأذنوا عمر فيه فأمر بدفنه».

(٢) كان زرّ من أصحاب رسول الله ﷺ.

لجأ أهلها إلى داخل الأسوار وأقفلوا أبوابها.

وفي أحد الأيام فتحت أبواب المدينة فجأة وخرج سكانها بكلّ أمان وهدوء وهم يسوقون قطعانهم وينصبون أسواقهم وكأن القتال قد انتهى، الأمر الذي لم يفهم المسلمون سببه الذي كتب عنه الطبري ما يأتي:[1]

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة وأبي عمرو وأبي سفيان والمهلّب، قالوا: لما فرغ أبو سَبْرة من السُّوس خرج في جنده حتى نزل على جُندَي سابور، وزِرّ بن عبدالله بن كليب محاصرهم؛ فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال. فما زالوا مقيمين عليها حتى رُمي إليهم بالأمان عن عسكر المسلمين، وكان فَتحها وفَتح نهاوند في مقدار شهرين، فلم يفجأ المسلمين إلاّ وأبوابها تفتح، ثمّ خرج السَّرح، وخرجت الأسواق، وانبثّ أهلها. فأرسل المسلمون: أن مالكم؟ قالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم الجزاء على أن تمنعونا. فقالوا: ما فعلنا، فقلوا: ما كذبنا. فسأل المسلمون فيما بينهم؛ فإذا عبد يدعى مُكنِفاً كان أصله منها؛ هو الذي كتب لهم. فقالوا: إنما هو عبد، فقالوا: إنا لا نعرف حُرّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه، ولم نبدّل، فإن شئتم فاغدروا. فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إليهم: إنّ الله عظّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تَفُوا، ما دمتم من شكّ أجيزوهم، وفُوا لهم. فَوَفوا لهم، وانصرفوا عنهم».

هكذا فتحت جند يسابور صلحاً.

التعليق على فتح جند يسابور صلحاً:

مما لا شك فيه أن تصرّف القادة الكبار في الفتوحات الاسلامية خلال فتح مدن فارس كان له أبلغ الأثر في نفوس سكان المدن الذين كانوا يقبلون مصالحة المسلمين رغم وجود حصون قوية يمكنهم البقاء داخلها زمناً قد يتحوّل خلاله

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٠٥.

ونقل نفس الرواية ابن كثير وابن الأثير وابن خلدون.

المسلمون عن مدينتهم. ويعود الفضل أيضاً في التصرّفات النبيلة هذه إلى الخليفة عمر ابن الخطاب الذي كان يكثر من الوصايا لقادته وجنده بوجوب الرأفة والحلم.

والمثال الواضح على هذه السياسة نراه في فتح جند يسابور صلحاً بسهم أمان أرسله إلى داخلها أحد عبيد المسلمين.

سادساً – فتح حصن فارسي من قبل فرس اعتنقوا الإسلام

هذه السياسة الحليمة شجعت الكثير من أعيان الفرس على الدخول في الإسلام طوعاً وعلى خوض قتال عنيف ضد بني قومهم الذين كانوا ما يزالون على المجوسية.

ويذكر ابن كثير رواية اعتناق الإسلام من قبل ثلاثمائة رجل من أشراف الفرس كان ملكهم يزدجرد قد صرفهم خلال هربه أمام التقدّم الاسلامي. وقد أراد هؤلاء إظهار حسن إسلامهم فقاموا بمهاجمة حصن فارسي منيع واحتلاله لصالح المسلمين.

كتب ابن كثير عن هؤلاء ما يلي:(1)

«هذا وقد تحوّل يزدجرد من بلد إلى بلد حتى انتهى أمره إلى الإقامة بأصبهان، وقد كان صرف طائفة من أشراف أصحابه قريباً من ثلاثمائة من العظماء عليهم رجل يقال له سياه. فكانوا يفرون من المسلمين من بلد إلى بلد حتى فتح المسلمون تستر واصطخر، فقال سياه لأصحابه: إن هؤلاء بعد الشقاء والذلة ملكوا أماكن الملوك الأقدمين، ولا يلقون جنداً إلاّ كسروه، والله ما هذا عن باطل. – ودخل في قلبه الإسلام وعظمته – فقالوا له: نحن تبع لك. وبعث عمار بن ياسر في غضون ذلك يدعوهم إلى الله، فأرسلوا إلى أبي موسى الأشعري بإسلامهم [وكتب فيهم إلى عمر في ذلك يدعوهم إلى الله، فأمره أن يفرض لهم في ألفين ألفين، وفرض لستة منهم في ألفين وخمسمائة، وحسن إسلامهم]. وكان لهم نكاية عظيمة في قتال قومهم حتى بلغ من أمرهم أنهم حاصروا حصناً فامتنع عليهم فجاء أحدهم فرمى بنفسه في الليل على باب الحصن وضمخ ثيابه بدم. فلما نظروا إليه حسبوا أنه منهم، ففتحوا إليه باب

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٥.

الحصن ليأووه فثار إلى البواب فقتله، وجاء بقية أصحابه ففتحوا ذلك الحصن، وقتلوا من فيه من المجوس».

سابعاً – إرسال الألوية الإسلامية إلى فارس

بعد فتح جنديسابور أمر الخليفة عمر بن الخطاب ببعض الغييرات في فارس في بداية السنة الثامنة عشرة للهجرة. وكان ولاة المسلمين حينئذٍ موزعين كما يأتي:(١)

- على مكة، عتاب بن أسيد.
- على اليمن يعلى بن مُنبّه.
- على اليمامة والبحرين عثمان بن أبي وقاص.
- على عمان حذيفة بن محض.
- على الشام يزيد أبي سفيان.
- على الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقاص.
- على قضاء الكوفة أبو قرّة.
- على البصرة وأرضها أبو موسى الأشعري.
- على قضاء البصرة أبو مريم الحنفي.

أما الألوية التي دفعها الخليفة إلى أصحابها في نهاية السنة السابعة عشرة للهجرة، فقد كتب عنها ابن الأثير:(٢)

«وبعث بألوية من ولّى مع سهيل بن عدي فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء أردشير خرة وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء إصطخر إلى عثمان ابن أبي العاص الثقفي، ولواء فسا ودارا بجرد إلى سارية بن زنيم الكناني، ولواء كرمان إلى سهيل بن عدي، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، وكان من الصحابة، ولواء مكران إلى الحكم بن عمير التغلبي. فخرجوا ولم يتهيأ مسيرهم إلاّ سنة ثمانية عشرة، وأمدّهم عمر بنفر من أهل الكوفة، فأمد سهيل بن عدي بعبدالله بن عتبان، وأمد الأحنف بعلقمة بن النضر وبعبدالله بن أبي عقيل وبربعي بن عامر، [وبابن أم غزال]. وأمد عاصم بن عمرو بعبدالله بن عمير الأشجعي، وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق في جموع».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٥.

ملحق رقم ١

سيّر بعض القادة الذين شاركوا في المعارك ضد فارس[1]

الحارث بن هاشم

أخو أبي جهل أسلم يوم الفتح، وكان سيداً شريفاً في الإسلام كما كان في الجاهلية، استشهد بالشام في هذه السنة ١٨ في قول. وتزوّج عمر بعده بامرأته فاطمة.

شرحبيل بن حسنة

أحد أمراء الأرباع، وهو أمير فلسطين، وهو شرحبيل بن عبدالله بن المطاع بن قطن الكندي حليف بني زهرة، وحسنة أمه، نسب إليها وغلب عليه ذلك. أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة وجهّزه الصدّيق إلى الشام، فكان أميراً على ربع الجيش، وكذلك في الدولة العمرية. وطعن هو وأبو عبيدة وأبو مالك الأشعري في يوم واحد سنة ثماني عشرة. له حديثان روى ابن ماجه أحدهما في الوضوء وغيره.

عامر بن عبدالله بن الجرّاج (أبو عبيدة)

ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي أبو عبيدة بن الجرّاح الفهري، أمين الأمة الاسلامية، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الخمسة الذين أسلموا

---

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، صفحات ٩١ - ١١٧.

في يوم واحد، وهم عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة ابن الجراح. أسلموا على يدي الصدّيق. ولما هاجروا آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، وقيل بين محمّد بن مسلمة. وقد شهد بدراً وما بعدها، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ أمَّة أميناً وَأمينُ هذهِ الأُمَّةِ أبُو عُبَيْدَةُ بنُ الجَرَّاح» ثبت ذلك في الصحيحين. وثبت في الصحيحين أيضاً أن الصدّيق قال يوم السقيفة: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوه - يعني عمر بن الخطاب وأبا عبيدة - وبعثه الصديق أميراً على ربع الجيش إلى الشام، ثمّ لما انتدب خالداً من العراق كان أميراً على أبي عبيدة وغيره لعلمه بالحروب. فلما انتهت الخلافة إلى عمر عزل خالداً وولى أبا عبيدة بن الجراح، وأمره أن يستشير خالداً، فجمع للأمة بين أمانة أبي عبيدة وشجاعة خالد. قال ابن عساكر: وهو أول من سمي أمير الأمراء بالشام. قالوا: وكان أبو عبيدة طوالاً نحيفاً أجنى(١) معروق الوجه، خفيف اللحية، أهتم(٢)، وذلك لأنه لما انتزع الحلقتين من وجنتي رسول الله ﷺ يوم أحد خاف أن يؤلم رسول الله ﷺ فتحامل على ثنيتيه فسقطتا، فما رُئِيَ أحسن هتماً منه. توفي بالطاعون عام عمواس في سنة ست عشرة، وقيل ثمانية عشرة للهجرة، بقرية فحل، وقيل بالجابية. وعمره يوم توفي ثمان وخمسون سنة.

الفضل بن عباس بن عبد المطلب

كان حسناً وسيماً جميلاً، أردفه رسول الله ﷺ وراءه يوم النحر من حجة الوداع، وهو شاب حسن. وقد شهد فتح الشام، واستشهد بطاعون عمواس، في قول محمّد ابن سعد والزبير بن بكار وأبي حاتم وابن الرقي وهو الصحيح. وقيل يوم مرج الصفر، وقيل بأجنادين. ويقال باليرموك سنة ثمان وعشرين.

---

(١) آجنى: أي منحني الظهر.

(٢) الأهتم: المنكسر الثنايا.

معاذ بن جبل

ابن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن [سعد] بن علي ابن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن المدني صحابي جليل كبير القدر. قال الواقدي: كان طوالاً حسن الشعر والثغر براق الثنايا، لم يولد له. وقال غيره: بل ولد له ولد وهو عبد الرحمن. شهد معه اليرموك. وقد شهد معاذ العقبة. ولما هاجر الناس آخى رسول الله ﷺ بينه وبين ابن مسعود. وحكى الواقدي الإجماع على ذلك. وقد قال محمد بن إسحاق: آخى بينه وبين جعفر بن أبي طالب، وشهد بدراً وما بعدها. وكان أحد الأربعة من الخزرج، الذين جمعوا القرآن في حياة النبي ﷺ، وهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ ابن جبل، وأبو زيد عمر بن أنس بن مالك.

وصح في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي من طريق حيوة بن شريح عن عقبة بن مسلم عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن الصنابحي عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا مُعَاذُ وَاللهِ لأُحِبُّكَ فَلا تَدَعَنَّ أنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ اللَّهُمَّ أعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وفي المسند والنسائي وابن ماجه من طريق أبي قلابة عن أنس مرفوعاً: «وَأَعْلَمُهُمْ بِالحَلاَلِ وَالحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ». وقد بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وقال له: بِمَ تَحْكُمُ؟ فقال: بكتاب الله وبالحديث. وكذلك أقره الصديق على ذلك يعلّم الناس الخيرَ باليمن. ثمّ هاجر إلى الشام فكان بها حتى مات بعد ما استخلفه أبو عبيدة حين طعن ثم طعن بعده في السنة ١٨هـ. وقد قال عمر بن الخطاب: إنّ معاذاً يُبْعَثُ أَمَامَ العُلَمَاءِ بِرَبْوَةٍ. وقال ابن مسعود: كنا نشبهه بإبراهيم الخليل. وقال ابن مسعود: إن معاذاً كان قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين. وكانت وفاته شرقي غوربيسان سنة ثماني عشرة. وقيل سنة تسع عشرة وقيل سبع عشرة، عن ثمان وثلاثين سنة.

يزيد بن أبي سفيان

أبو خالد صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أخو معاوية، وكان يزيد أكبر وأفضل. وكان يقال له يزيد الخير. أسلم عام الفتح، وحضر حنيناً وأعطاه رسول الله ﷺ مائة من الإبل وأربعين أوقية، واستعمله الصديق على ربع الجيش إلى الشام، وهو أول أمير وصل إليها، ومشى الصديق في ركابه يوصيه، وبعث معه أبا عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة فهؤلاء أمراء الأرباع. ولما افتتحوا دمشق دخل هو من باب الجابية الصغير عنوة كخالد في دخوله من الباب الشرقي عنوة. وكان الصدّيق قد وعده بإمرتها، فوليها عن أمر عمر وأنفذ له ما وعده الصديق، وكان أول من وليها من المسلمين. المشهور أنه مات في طاعون عمواس كما تقدم. وزعم الوليد بن مسلم أنه توفي سنة تسع عشرة بعد ما فتح قيسارية. ولما مات كان قد استخلف أخاه معاوية على دمشق فأمضى عمر بن الخطاب له ذلك رضي الله عنهم. وليس له في الكتب شيء، وقد روى عنه أبو عبدالله الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذي يُصَلّي وَلا يُتِمُّ رُكُوعَهُ وَلاَ سُجُودَهُ مَثَلُ الجَائعِ الَّذي لاَ يَأْكُلُ إلاَّ التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَين لاَ يُغْنِيانِ عَنْهُ شَيئاً».

أبو جندل بن سهيل

ابن عمرو، وقيل اسمه العاص أسلم قديماً وقد جاء يوم صلح الحديبية مسلماً يرسف في قيوده لأنه كان قد استضعف فرده أبوه وأبى أن يصالح حتى يرد. ثمّ لحق أبو جندل بأبي بصير إلى سيف البحر، ثمّ هاجر إلى المدينة وشهد فتح الشام. وقد تأول آية الخمر ثمّ رجع، ومات بطاعون مواس.

طليحة بن خويلد

ابن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان ابن فقعس بن طريف بن عمر بن قعير بن الحارث بن ثعلبة بن داود بن أسد بن خزيمة الأسدي الفقعسي. كان ممن شهد

الخندق من ناحية المشركين ثمّ أسلم سنة تسع، ووفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة. ثمّ ارتدّ بعد وفاة رسول الله ﷺ في أيام الصديق، وادعى النبوة كما تقدّم. وروى ابن عساكر أنه ادعى النبوة في حياة رسول الله ﷺ وأنّ ابنه خيال قدم على رسول الله ﷺ فسأله: ما اسم الذي يأتي إلى أبيك؟ فقال: ذو النون الذي لا يكذب ولا يخون، ولا يكون كما يكون. فقال: لقد سمّي ملكاً عظيم الشأن، ثمّ قال لابنه: قتلك الله وحرمك الشهادة. ورده كما جاء. فقتل خيال في الردة في بعض الوقائع قتله عكاشة ابن محصن ثمّ قتل طليحة عكاشة وله مع المسلمين وقائع. ثمّ خذله الله على يدي خالد بن الوليد، وتفرّق جنده فهرب حتى دخل الشام فنزل على آل جفنة، فأقام عندهم حتى مات الصديق حياء منه. ثم رجع إلى الإسلام واعتمر، ثمّ جاء يسلّم على عمر فقال له: أغرب عني فإنك قاتل الرجلين الصالحين، عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم، فقال: يا أمير المؤمنين هما رجلان أكرمهما الله على يدي ولم يهني بأيديهما. فأعجب عمر كلامه ورضي عنه.

وكتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يشاور ولا يولّى شيئاً من الأمر. ثمّ عاد إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك وبعض حروب كالقادسية ونهاوند الفرس، وكان من الشجعان المذكورين، والأبطال المشهورين، وقد حسن إسلامه بعد هذا كلّه. وذكره محمّد بن سعد في الطبقة الرابعة من الصحابة وقال: كان يعد بألف فارس لشدّته وشجاعته وبصره بالحرب. وقال أبو نصر بن مأكولا: أسلم ثمّ ارتدّ ثمّ أسلم وحسن إسلامه، وكان يعدل بألف فارس.

وقال سيف بن عمر عن مبشر بن الفضيل عن جابر بن عبدالله. قال: بالله الذي لا إله إلاّ هو ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كما هجمنا عليهم من أمانتهم وزهدهم، طليحة بن خويلد الأسدي، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن المكشوح. قال ابن عساكر: ذكر أبو الحسين محمّد بن أحمد بن الفراس الوراق أنّ طليحة استشهد بنهاوند سنة إحدى وعشرين مع النعمان بن مقرن، وعمرو بن معديكرب.

عمرو بن معديكرب

ابن عبدالله بن عمرو بن عاصم بن عمرو بن زبيد الأصغر بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن شيبة، وهو زبيد الأكبر بن الحارث بن صعف بن سعد العشيرة بن فدحج الزبيدي المذحجي أبو ثور، أحد الفرسان المشاهير الأبطال، والشجعان المذاكير. قدم على رسول الله ﷺ سنة تسع، وقيل عشر مع وفد مراد، وقيل في وفد زبيد قومه. وقد ارتدّ مع الأسود العنسي فسار إليه خالد بن سعيد بن العاص، فقاتله فضربه خالد بن سعد بالسيف على عاتقه فهرب وقومه، وقد استلب خالد سيفه الصمصامة. ثمّ أُسر ودفع إلى أبي بكر فأنّبه وعاتبه واستتابه فتاب وحسن إسلامه بعد ذلك، فسيّره إلى الشام، فشهد اليرموك. ثم أمره عمر بالمسير إلى سعد وكتب بالوصاة به، وأن يشاور ولا يولى شيئاً، فنفع الله به الإسلام وأهله؛ وأبلى بلاءً حسناً يوم القادسية. وقيل إنه قتل بها، وقيل بنهاوند، وقيل مات عطشاً في بعض القرى يقال لها روذة.

وكان عمرو بع معديكرب رضي الله عنه من الشعراء المجيدين.

العلاء بن الحضرمي

أمير البحرين لرسول الله ﷺ وأقرّه عليها أبو بكر ثمّ عمر. تقدّم أنه توفي سنة أربع عشرة ومنهم من يقول إنه تأخّر إلى سنة إحدى وعشرين، وعزله عمر عن البحرين وولى مكانه أبا هريرة. وأمّره عمر على الكوفة فمات قبل أن يصل إليها. وقد ذكرنا قصته في سيره بجيشه على وجه الماء، وغزوه فارس من البحرين.

النعمان بن مقرن بن عائذ المزني

أمير وقعة نهاوند، صحابي جليل. قدم مع قومه من مزينة في أربعمائة راكب، ثمّ سكن البصرة وبعثه الفاروق أميراً على الجنود إلى نهاوند، ففتح الله على يديه فتحاً عظيماً. ومكّن الله له في تلك البلاد، ومكّنه من رقاب أولئك العباد، ومكّن به للمسلمين هنالك إلى يوم التناد، ومنحه النصر في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأتاح له بعدما أراه ما أحبّ شهادة عظيمة وذلك غاية المراد.

الفصل الرابع
معركة نهاوند

أخيراً انهارت مملكة فارس تحت ضربات الجيوش الإسلامية، التي راحت تتقدّم في عمق المنطقة الساسانية كما سبق الحديث في بداية الفصل السابق.

وانهيار مملكة فارس كان مقدّراً تمشّياً مع نظرية صعود الأمم وهبوطها والتي تنصّ على أن الدولة، بعد توسعها الكبير، تمرّ في مرحلة دعة ومراوحة تبدأ بعدها بالتراجع والسقوط. فقد تكلّمنا في فصول سابقة عن الوضع المتردي في البلاط الفارسي وعن الانقلابات والتغيرات في الحكام الساسانيين، وصولاً إلى تمليك نساء عدّة وإلى تسلّم الحكم من قبل فتى من أساس ملكي هو يزدجرد.

أما سبب إطالة أمد المقاومة الفارسية فكان بقاء الملك يزدجرد في الحكم. كتب ابن خلدون عن ذلك:[١]

«لمّا جاء الأحنف بن قيس بالهرمزان إلى عمر قال له: يا أمير المؤمنين؛ لا يزال أهل فارس يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم، فلو أذنت بالانسياخ في بلادهم فأزلنا ملكهم، انقطع رجاؤهم».

وهكذا ظهر أن إزالة يزدجرد عن قيادة الفرس تؤدي إلى تراجع المقاومة لدى الشعب الفارسي الذي بدأ باعتناق الإسلام. وهذا ما حصل بعد معركة نهاوند التي تأخّرت بسبب حدثين مهمين سنتكلّم عنهما، رغم أن لا علاقة لهما بالمعارك، إنما كان لهما تأثير في مجرى القتال عامة، وهما:

- طاعون عمواس.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٦٨.

- المجاعة والجدب في عام الرمادة.

أولاً - طاعون عمواس

في السنة الثامنة عشرة للهجرة نزل في عمواس بالشام مرضى الطاعون فمات فيه خيرة رجالات المسلمين، كأبي عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة ابن سهيل وعامر بن غيلان.

ولما أصيب أبو عبيدة بالطاعون واشتعل به الوجع وبلغ ذلك الخليفة كتب إليه عمر أن اخرج من الشام، فلم يقبل أبو عبيدة.

نقل ابن الأثير أن «عمراً، لما قرأ كتاب أبي عبيدة، بكى فقال الناس: يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة؟ فقال: لا وكأن قد».[(١)]

كما نقل أن أبا عبيدة عندما أصيب استخلف معاذ بن جبل، فلما أصيب معاذ استخلف على الناس عمراً بن العاص الذي قام فخطب في الناس، فقال: «أيها الناس أن هذا الوجع وقع، فإنما يشتعل اشتعال النار، فتجبلوا منه في الجبال».[(٢)]

وقيل أن عمراً بن الخطاب زار الشام بعد الطاعون. كتب ابن الأثير عن هذه الزيارة:[(٣)]

«لمّا هلك الناس في الطاعون كتب أُمَراء الأجناد إلى عمر بما في أيديهم من المواريث فجمع الناس واستشارهم وقال لهم: «قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بُلدانهم لأنظر في آثارهم فأشيروا عليّ».

فقال عليّ: يا أمير المؤمنين: إنّ الكوفة للهجرة بعد الهجرة. وإنّها لقُبَّةُ الإسلام ليأتينّها يوم لا يبقى مسلم إلاّ وَحَنّ إليها لينتصرن بأهلها كما انتصر بالحجارة من قوم لوط.

فقال عمر: إنّ مواريث أهل عمواس قد ضاعت، فأبدأ بالشام فأقسم المواريث وأقيم لهم ما في نفسي، ثمّ أرجع، فأتقلّب في البلاد وأبدي إليهم أمري».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٩.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٠٠ - ٤٠١.

فسار عن المدينة واستخلف عليها عليّ ابن أبي طالب واتخذ أيلة طريقاً، فلما دنا منها ركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه. فلما تلقّاه الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم، يعني نفسه. فساروا أمامهم وانتهى هو إلى أيلة فنزلها، وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين إليها ونزلها فرجعوا [إليه] وأعطى عمر الأسقف بها قميصه وقد تخرّق ظهره ليغسله، ويرقعه ففعل. وأخذه ولبسه وخاط له الأسقف قميصاً غيره فلم يأخذه. فلما قدم الشام قسّم الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف، وسدّ فروج الشام ومسالحها، وأخذ يدورها. واستعمل عبدالله بن قيس على السواحل من كلّ كورة، واستعمل معاوية، وعزل شرحبيل بن حَسَنة وقام يَعْذُرُه في الناس. وقال: «إنّي لم أعزله عن سخطة ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل».

واستعمل عمرو بن عتبة على الأهراء. وقسم مواريث أهل عَمَوَاس فورث بعض الورثة من بعض وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كلّ منهم. وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهل بيته فلم يرجع منهم إلاّ أربعة، ورجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة.

ولمّا كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس: لو أمرت بلالاً فأذّن. فأمره فأذّن فما بقي أحدٌ [كان] أدرك النبيّ ﷺ وبلال يؤذن [له] إلاّ وبكى حتى بلّ لحيته وعمر أشدّهم بكاء. وبكى من لم يدركه ببكائهم ولذكرهم رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: إنّ الرها؛ وحرّان، والرقّة فتحت هذه السنة على يد عياض بن غنم، وإنّ عين الوردة، وهي رأس عين فتحت فيها على يد عمير بن سعد».

مات في طاعون عمواس خمسة وعشرون ألفاً.(١)

ثانياً – القحط وعام الرمادة

وفي العام الثامن عشر للهجرة حصلت مجاعة شديدة في المدينة بسبب القحط والجدب.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٠٩.

كتب ابن خلدون:(١)

«وأصاب الناس سنة ثماني عشرة قحطٌ شديد وجدب أعقب جوعاً بَعُدَ العهد بمثله مع طاعون أتى على جميع الناس. وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيا الناس، وكتب إلى الأمراء بالأمصار يستمدّهم لأهل المدينة. فجاء أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من الطعام، وأصلح عمرو ابن العاص بحر القُلزُم وأرسل فيه الطعام من مصر فرخص السعر، واستقى عمر بالناس فخطب الناس وصلّى. ثمّ قام وأخذ بيد العباس وتوسّل به ثمّ بكى وجثا على ركبتيه يدعو إلى أن مُطِر الناس».

وكتب الطبري أيضاً عن الجوع في تلك السنة:(٢)

«وكانت الرمادة جوعاً أصاب الناس بالمدينة وما حولها فأهلكهم حتى جعلت الوحشُ تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قُبحها، وانه لمقفر.

وخرج عمر ومعه العباس ماشياً، فخطب فأوجز، ثمّ صلى، ثمّ جثا لركبتيه وقال: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارضَ عنا. ثمّ انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا الغدران».

ثالثاً – معركة نهاوند

تابع ملك الفرس يزدجرد هربه من أمام المسلمين الذين راحوا يفتحون المدينة تلو الأخرى ويحققون النصر تلو النصر. واستقرّ يزدجرد في «مرو» حيث اتصل به قادة الفرس وعظماؤهم الذين قرروا التحرّك مجدداً وتجنيد جيش كبير يجمعونه من كلّ الأقاليم الفارسية بهدف محاربة المسلمين.

وكتب الملك إلى عماله لجمع جيش لهذه الغاية. كتب ابن خلدون عن ذلك:(٣)

«لما فتحت الأهواز ويزدجرد بمرو كاتبوه واستنجدوه، فبعث إلى الملوك ما بين

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٦٩.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٠٨.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٧٣.

الـبـاب والسـنـد وخـراسـان وحـلـوان يستمدّهم، فأجابوه واجتمعوا إلى نهاوند وعلى الفرس الفيرزان في مئة وخمسين ألف مقاتل».

وأخذ عظماء الفرس، بعد أن اختاروا نهاوند مكاناً لحشد جيوشهم، يتوافدون إليها فكثرت أعدادهم فيها.

في هذا الوقت كان الخليفة عمر قد عزل سعداً عن القيادة العامة في فارس وعيّن مكانه النعمان بن مقرن لوشاية به.[١]

أ - ظروف المعركة:

كتب ابن كثير عن تحضيرات الفرس للمعركة:[٢]

---

(١) عن سبب وظروف عزل سعد كتب ابن الأثير، جزء ٢، ص ٤١١ - ٤١٢:

«وثار بسعد قومٌ سعوا به وألّبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس، وكان ممن تحرّك في أمره الجراح بن سنان الأسدي في نفر فقال لهم عمر: والله ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكم.

فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس، وكان محمّد صاحب العمال يقتص آثار من شكى زمان عمر، فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه، فمما سأل عنه جماعةً إلاّ أثنوا عليه خَيْراً سوى مَنْ مالأ الجراح الأسدي فإنهم سكتوا ولم يقولوا: سُوءاً ولا يسوغ لهم [ويتعمّدون ترك الثناء]، حتى انتهى إلى بني عبس فسألهم فقال أسامة بن قتادة: «اللهمّ إنّه لا يقسّم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السرية».

فقال سعد: «اللهم إن كان قالها رياءً وكذباً وسمعةً فاعم بصره وأكثر عياله، وعرّضه لمضلات الفتن». فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسّها فإذا عثر عليه قال: دعوةُ سعد الرجل المبارك.

ثمّ دعا سعد على أولئك النفر فقال: «اللهم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً ورياءً فاجهد بلادهم فجهدوا، وقُطّع الجراح بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي عليه السلام ليغتاله بساباط، وشُدح قبيصة بالحجارة، وقُتل أربد بالوج وبنعال السيوف».

وقال سعد: «إنّي أول رجل أهراق دماً من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحدٍ قبلي. ولقد رأيتُني خمس الإسلام وبنو أسد تزعم أنّي لا أحسن أصلي، وأنّ الصيد يلهيني!».

وخرج محمّد بسعد وبهم معه إلى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر فقال: كيف تصلّي يا سعد؟

قال: أطيل الأوليين واحذف الآخرين. فقال: هكذا الظن بك يا أبا اسحاق. ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بيّنًا. وقال: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟

فقال: عبدالله بن عبدالله بن عتبان فأقرّه فكان سبب نهاوند وبعثها زمن سعد».

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٣ - ١٠٤.

«وكان الذي هاج هذه الوقعة أن المسلمين لما افتتحوا الأهواز ومنعوا جيش العلاء من أيديهم واستولوا على دار الملك القديم من اصطخر مع ما حازوا من دار مملكتهم حديثاً، وهي المدائن، وأخذ تلك المدائن والأقاليم والكور والبلدان الكثيرة، فحموا عند ذلك واستجاشهم يزدجرد الذي تقهقر من بلد إلى بلد حتى صار إلى أصبهان مبعداً طريداً، لكنه في أسرة من قومه وماله. وكتب إلى ناحية نهاوند وما والاها من الجبال والبلدان، فتجمّعوا وتراسلوا حتى كمل لهم من الجنود ما لم يجتمع لهم قبل ذلك».

والمقصود أن أهل فارس اجتمعوا من كلّ فجّ عميق بأرض نهاوند، حتى اجتمع منهم مائة وخمسون ألف مقاتل، وعليهم الفيرزان، ويقال: بندار، ويقال ذو الحاجب. وتذامروا فيما بينهم، وقالوا: «إن محمّداً الذي جاء العرب لم يتعرّض لبلادنا، ولا أبو بكر الذي قام بعده تعرض لنا في دار ملكنا، وإن عمر بن الخطاب هذا لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا في عقر دارنا، وأخذ بيت المملكة وليس بمنته حتى يخرجكم من بلادكم». فتعاهدوا وتعاقدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة ثمّ يشغلوا عمر عن بلاده، وتواثقوا من أنفسهم وكتبوا بذلك عليهم كتاباً.

وعن مداولات الخليفة عمر بن الخطاب مع أهل الرأي من أصحابه كتب ابن الأثير:(١)

«وكان سعد كتب إلى عمر بالخبر ثمّ شافهه به لما قدم عليه، وقال له: «إنّ أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح وأن يبدأوهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوّهم».

فجمع عمر الناس واستشارهم، وقال لهم: «هذا يومٌ له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قِبلي ومَنْ قدرتُ عليه فأنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين ثمّ أستنفرهم وأكون لهم رِدْءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب. فإن فتح الله عليهم صببتُهم في بلدانهم».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، صفحة ٤١٢ - ٤١٤.

فـقـال طـلـحـة بـن عـبـيـد الله: يـا أمـيـر المؤمنين قد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلابل واحتنكتك التجارب وأنت وشأنك ورأيك لا ننبو في يديك ولا نكل عليك إلـيك هـذا الأمـر. فـمُرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب و[فدنا نفد] وقُدْنا ننقد. فإنّك وليٌّ هذا الأمر وقد بلوت وجربت واختبرت فلم ينكشف شيءٌ من عواقب قضاء الله لك إلاّ عن خيارهم.

ثمّ جلس فعاد عمر فقام عثمان فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا مـن يَـمَـنـهـم. ثـمّ تسير أنت بأهل [هذين] الحَرَمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فإنّك إذا سرتَ [بمن معك] قلّ عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزاً وأكثر. يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية ولا تمنع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منهـا بحريز. إنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام، فاشهده برأيك وأعوانك، ولا تغن عنه. وجلس.

فعاد عمر [فقال: إنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام فتكلّموا].

فقام إليه علي بن أبي طالب فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنّك إن أشخصت أهـل الشـام مـن شـامـهـم سـارت الـروم إلـى ذراريـهـم، وإن أشـخـصت أهـل الـيـمـن مـن يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم. وإنك إن أشـخـصـت مـن هـذه الأرض انـتـقـضت عـلـيك الـعرب من أطرافها وأقطارها حتى يـكـون مـا تـدع وراءك أهـم إلـيك مـمـا بين يديك من العورات والعيالات.

أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليتفرّقوا فيها ثلاث فِرق فرقة في حـرمـهـم وذراريـهـم، وفـرقـة فـي أهـل عـهـدهـم حتى لا ينتقضوا. ولتسر فرقةٌ إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم. إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير المؤمنين أمير الـعـرب وأصـلـهـا فكان ذلك أشـد لـكـلـبـهـم عليك. وأمّا ما ذكرت من مسير القوم فإنّ الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما [ما ذكرتَ مِن] عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر.

فقال عمر: هذا هو الرأي كنت أحب أن أتابع عليه».

وكان النعمان[1] يومئذٍ قد اقتحم جنديسابور بجمع من أهل الكوفة، كما اقتحم السوس، فكتب إليه عمر بأمره بالمسير إلى «ماه» لتجتمع الجيوش عليه، فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى الفيرزان ومن معه. جاء في كتاب الخليفة إلى النعمان ما يلي:[2]

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرّن، سلامٌ عليك؛ فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أمّا بعد؛ فإنه قد بلَغني أنّ جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند؛ فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله؛ بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيَهم، ولا تمنعهم حقّهم فتكفّرهم؛ ولا تدخلنّهم غَيضة، فإنّ رجلاً من المسلمين أحبّ إليّ من مائة ألف دينار. والسلام عليك.

فسِر في وجهك ذلك حتى تأتي «ماه»، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها. فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى فيرزان ومن تجمّع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم. واستنصروا الله واكثروا من قول «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله - والسلام عليك».

ب - التحضيرات للمعركة:

قرّر الخليفة تعزيز النعمان بن مقرن بالنجدات، فكتب إلى خليفة سعد بن أبي وقاص على الكوفة عبدالله بن عتبان بأمره باستنفار أهل الكوفة والتوجّه إلى منطقة «ماه» في الأهواز، ومنها إلى نهاوند، وأن يكون قائد جيش الكوفة حذيفة بن اليمان.[3]

سار حذيفة في جيش كثيف نحو النعمان وسار معه خلق كثير من أمراء العراق.

كتب ابن كثير عن توجه حذيفة نحو النعمان:[4]

«وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق، وقد أرصد في كلّ كورة ما يكفيها من

(١) النعمان بن مقرن.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء٢ ، ص ٥١٨.

(٣) البلاذري، مرجع سابق، ص ٤٢٤.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٥.

المقاتلة، وجعل الحرس في كلّ ناحية، واحتاطوا احتياطاً عظيماً. ثمّ انتهوا إلى النعمان ابن مقرن حيث اتعدوا،[1] فدفع حذيفة بن اليمان إلى النعمان كتاب عمر وفيه الأمر له بما يعتمده في هذه الوقعة، فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً من المقاتلة، فيما رواه سيف عن الشعبي. فمنهم من سادات الصحابة ورؤوس العرب خلق كثير وجمع غفير منهم عبدالله بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن أبي سلمة، والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي».

وأرسل الخليفة من المدينة المنوّرة إلى الكوفة قريباً بن ظفر العبدي والسائب بن الأقرع الثقفي ليلتحقا بالجيش الخارج إلى النعمان، وكلّف السائب بأن يكون أميناً للأقباض وقسم الفيء.[2]

وبغية حماية مؤخّرة الجيش المنطلق إلى نهاوند، قرّر الخليفة تكليف فرقة بمهمة منع وصول الامدادات الفارسية إلى نهاوند حيث كتب إلى ثلث جيش البصرة الموزع بين إقليم فارس والأهواز بقيادة سلمي بن القين وحرملة بن مريطة، والمقترب الأسود ابن ربيعة بان يشغل الفرس لإبعادهم عن قطاع نهاوند.[3]

كما أرسل الخليفة إلى مجاشع مسعود السلمي للالتحاق بمؤخّرة جيش النعمان. وأوصى النعمان، بعد توليته الجيش، بأنه إذا أصيب فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أصيب فجرير بن عبدالله البجلي، فإن أصيب فالمغيرة بن شعبة، فإن أصيب فالاشعث بن قيس.[4]

أما الفرس فكانوا يتجمّعون داخل مدينة نهاوند، وهي مدينة قديمة قيل أنها من بناء نوح وأصل اسمها «نوح أوند» أي نوح وضع. وهي مدينة جبلية تتصل من شرقها وشمالها بهمذان. أما مدخلها الذي توقّف المسلمون مقابله فهو من جهة الجنوب. وكان عدد

---

(١) اتعدوا: تواعدوا.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥١٩.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٧٤.

(٤) البلاذري، مرجع سابق، ص ٤٢٥.

الفرس داخل المدينة وفق المؤرخين قد بلغ مائة وخمسين ألفاً.

ج - خطة المسلمين لفتح نهاوند:

بعد أن التحقت كلّ الفرق الإسلامية بالنعمان الذي أصبح عدد جيشه ثلاثين ألفاً، أمر بالتقدّم نحو نهاوند بعد أن أرسل مجموعات لاستطلاع الطريق خوفاً من الوقوع في كمائن للفرس. ومن هذه المجموعات مجموعة طليحة بن خويلد التي وصلت إلى مشارف نهاوند فجمعت المعلومات اللازمة عن وضع الفرس.[1]

كتب ابن الأثير عن هذه الدوريات الاستطلاعية:[2]

«ومضى طليحة وعمرو بن معد يكرب، فلما كان آخر الليل رجع عمرو فقالوا: ما رجعك؟ قال: سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً [وخفتُ أن يؤخذ علينا الطريق] فرجعت. ومضى طليحة [ولم يحفل بهما] حتى انتهى إلى نهاوند، وبين موضع المسلمين الذي هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخاً، فقال الناس: ارتدّ طليحة الثانية، فعلم كلام القوم [واطّلع على الأخبار] ورجع، فلما رأوه كبروا فقال: ما شأنكم؟ فأعلموه بالذي خافوا عليه، فقال: والله لو لم يكن دين إلاّ العربي ما كنت لأجزر العجم الطماطم هذه العرب العاربة. فأعلم النعمان أنه ليس بيهم وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد».

د - السير نحو العدو (سير الاقتراب):

وسار النعمان وجيشه على تعبئة ومعه الشخصيات الاسلامية وقادة الفرق على الشكل التالي:[3]

- على المقدّمة نعيم بن مقرن (شقيقه).
- على الميمنة حذيفة بن اليمان.
- على الميسرة سويد بن مقرن (شقيقه).
- على الفرسان القعقاع بن عمرو.
- على المؤخرة مجاشع بن مسعود.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٦.

أما الفرس في نهاوند، فكان يقودهم الفيرزان وعلى ميمنته الزردق، وعلى ميسرته بهمن جاذويه، وعلى الفرسان أنوشق.(١)

هـ - القتال خارج الأسوار:

وصف ابن كثير وصول الجيش العربي وتمركزه مقابل جيش الفرس خارج أسوار نهاوند والقتال خارج هذه الأسوار، فكتب:(٢)

«فسار النعمان على تعبئته وعلى المقدّمة نعيم بن مقرن، وعلى المجنبتين حذيفة وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، حتى انتهوا إلى الفرس وعليهم الفيرزان، ومعه من الجيش كلّ من غاب عن القادسية في تلك الأيام المتقدّمة، وهو في مائة وخمسين ألفاً. فلما تراءى الجمعان كبّر النعمان وكبّر المسلمون ثلاث تكبيرات، فزلزلت الأعاجم ورعبوا من ذلك رعباً شديداً. ثمّ أمر النعمان بحطّ الأثقال وهو واقف، فحط الناس أثقالهم، وتركوا رحالهم، وضربوا خيامهم وقبابهم. وضربت خيمة للنعمان عظيمة، فلم ير بالعراق خيمة عظيمة أعظم من بناء هذه الخيمة. وحين حطّوا الأثقال أمر النعمان بالقتال وكان يوم الأربعاء، فاقتتلوا ذلك اليوم والذي بعده والحرب سجال. فلما كان يوم الجمعة انحجزوا في حصنهم، وحاصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله، والأعاجم يخرجون إذا أرادوا ويرجعون إلى حصونهم إذا أرادوا».

و - حصار نهاوند وسقوطها:

حاصر المسلمون نهاوند بثلاثين ألفاً وفيها مائة وخمسون ألفاً من الفرس.(٣) وكان الفرس إذا رغبوا القتال خرجوا من حصنهم فقاتلهم المسلمون. فإذا لم يرغبوا ذلك بقوا داخل الحصن.(٤) ولم يهاجم

---

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، جزء ٤، ص ٩٧٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٦.

(٣) بالنسبة لأعداد المقاتلين ينبغي أخذها بتحفّظ كون المؤرّخين القدماء كانوا يميلون إلى تضخيمها.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٥.

المسلمون الحصن لأسباب عديدة، منها عدم وجود عتاد حصار معهم وكون عددهم لا يتناسب مع موجبات الهجوم ضد مائة وخمسين ألفاً يتحصنون داخل حصن.

وبعث قائد الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ليكلّمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبة. كتب ابن كثير عن مقابلة المغيرة مع أمير الفرس:(١)

«وقد بعث أمير الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ليكلّمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبة، فذكر من عظم ما رأى عليه من لبسه ومجلسه، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب واستهانته بهم، وأنهم كانوا أطول الناس جوعاً، وأقلّهم داراً وقدراً. وقال: ما يمنع هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلاّ مجاً من جيفكم، فإن تذهبوا نخلّ عنكم، وإن تأبوا؟ نزركم مصارعكم. قال: فتشهدت وحمدت الله وقلت: لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت، حتى بعث الله رسوله فوعدنا النصر في الدنيا، والخير في الآخرة وما زلنا نتعرّف من ربنا النصر منذ بعث الله رسوله إلينا. وقد جئناكم في بلادكم وإنّا لن نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على بلادكم وما في أيديكم أو نقتل بأرضكم. فقال: أما والله إن الأعور لقد صدقكم ما في نفسه».

وفي أحد الأيام أرسل قائد الفرس إلى النعمان يسأله: «أما أن تعبروا إلينا بنهاوند. وأما أن نعبر إليكم»، فقال النعمان «اعبروا». فخرج الفرس من نهاوند وتقاتلوا مع المسلمين في معركة شديدة لم يكن النصر فيها إلى جانب أي منهما، فتراجع الفرس إلى مدينتهم المحصّنة وطاردهم المسلمون حتى الأسوار.

وطال الحصار ولم يستطع المسلمون شيئاً حيال موقع نهاوند الجبلي الحصين. ولحق بهم ضنك شديد بعد أن حلّ فصل الشتاء، فكثر الحديث بين الجند عن هذا الوضع الصعب، ما حدا بالنعمان إلى جمع أهل الرأي من جيشه للتشاور.

كتب ابن كثير عن اجتماع النعمان بقادة جيشه وعن الخطة التي طلع بها الاجتماع:(١)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٦.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٦ - ١٠٨.

«فلما طال على المسلمين هذا الحال واستمرّ، جمع النعمان بن مقرن أهل الرأي من الجيش، وتشاوروا في ذلك، وكيف يكون من أمرهم حتى يتواجهوا هم والمشركون في صعيد واحد. فتكلّم عمرو ابن أبي سلمة أولاً - وهو أسنّ من كان هناك - فقال: إن بقاءهم على ما هم عليه أضرّ عليهم من الذي يطلبه منهم وأبقى على المسلمين. فرد الجميع عليه وقالوا: إنا لعلى يقين من إظهار ديننا، وإنجاز موعود الله لنا. وتكلّم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم. فردوا جميعاً عليه وقالوا: إنما تناطح بنا الجدران والجدران أعوان لهم علينا. وتكلّم طليحة الأسدي فقال: إنهما لم يصيبا، وإني أرى أن تبعث سرية فتحدق بهم ويناوشوهم بالقتال ويحمشوهم[1] فإذا برزوا إليهم فليفروا إلينا هراباً. فإذا استطردوا وراءهم وانتموا إلينا عزمنا أيضاً على الفرار كلنا، فإنهم حينئذ لا يشكون في الهزيمة فيخرجون من حصونهم عن بكرة أبيهم. فإذا تكامل خروجهم رجعنا إليهم فجالدناهم حتى يقضي الله بيننا. فاستجاد الناس هذا الرأي، وأمر النعمان على المجردة القعقاع بن عمرو، وأمرهم أن يذهبوا إلى البلد فيحاصروهم وحدهم ويهربوا بين أيديهم إذا برزوا إليهم، ففعل القعقاع ذلك. فلمّا برزوا من حصونهم نكص[2] القعقاع بمن معه ثمّ نكص ثمّ نكص فاغتنمها الأعاجم، ففعلوا ما ظن طليحة. وقالوا: هي هي، فخرجوا بأجمعهم ولم يبق بالبلد من المقاتلة إلاّ من يحفظ لهم الأبواب، حتى انتهوا إلى الجيش، والنعمان ابن مقرن على تعبئته. وذلك في صدر نهار جمعة، فعزم الناس على مصادمتهم، فنهاهم النعمان وأمرهم أن لا يقاتلوا حتى تزول الشمس، وتهبّ الأرواح، وينزل النصر كما كان رسول الله ﷺ يفعل. وألحّ الناس على النعمان في الحملة فلم يفعل - وكان رجلاً ثابتاً - فلما حان الزوال صلّى بالمسلمين ثمّ ركب برذوناً له أحوى[3] قريباً من الأرض،

---

(١) حمش القوم: أغضبهم.

(٢) نكص: تراجع.

(٣) أحوى: ضرب لونه إلى السواد.

فجعل يقف على كلّ راية ويحثهم على الصبر ويأمرهم بالثبات، ويقدم إلى المسلمين أنه يكبر الأولى فيتأهّب الناس للحملة، ويكبر الثانية فلا يبقى لأحد أهبة، ثمّ الثالثة ومعها الحملة الصادقة. ثمّ رجع إلى موقفه.

وتعبأت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفاً هائلة، في عدد وعُدد لم ير مثله، وقد تغلغل كثير منهم بعضهم في بعض وألقوا حسك الحديد وراء ظهورهم حتى لا يمكنهم الهرب ولا الفرار، ولا التحيز.

ثمّ إن النعمان بن مقرن رضي الله عنه كبر الأولى وهزّ الراية فتأهّب الناس للحملة، ثمّ كبر الثانية وهزّ الراية فتأهّبوا أيضاً، ثمّ كبر الثالثة وحمل وحمل الناس على المشركين. وجعلت راية النعمان تنقضّ على الفرس كانقضاض العقاب على الفريسة، حتى تصافحوا بالسيوف فاقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله في موقف من المواقف المتقدّمة، ولا سمع السامعون بوقعة مثلها. قتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبق وجه الأرض دماً، بحيث إن الدواب كانت تطبع فيه، حتى قيل إن الأمير النعمان بن مقرن زلق به حصانه في ذلك الدم فوقع وجاءه سهم في خاصرته فقتله، ولم يشعر به أحد سوى أخيه سويد، وقيل نعيم. وقيل غطاه بثوبه وأخفى موته ودفع الراية إلى حذيفة ابن اليمان، فأقام حذيفة أخاه نعيماً مكانه، وأمر بكتم موته حتى ينفصل الحال لئلا ينهزم الناس. فلما أظلم الليل انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون. وكان الكفار قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل وحفروا حولهم خندقاً، فلما انهزموا وقعوا في الخندق وفي تلك الأودية نحو مائة ألف وجعلوا يتساقطون في أودية بلادهم فهلك منهم بشر كثير نحو مائة ألف أو يزيدون، سوى من قتل في المعركة، ولم يفلت منهم إلاّ الشريد. وكان الفيرزان أميرهم قد صرع في المعركة، فانفلت وانهزم وأتبعه نعيم بن مقرن، وقدم القعقاع بين يديه. وقصد الفيرزان همدان فلحقه القعقاع وأدركه عند ثنية همدان، وقد أقبل منها بغال كثير وحُمُر تحمل عسلاً، فلا يستطع الفيرزان صعودها منهم، وذلك لحينه. فترجّل وتعلّق في الجبل فاتبعه

القعقاع حتى قتله، وقال المسلمون يومئذ: إن لله جنوداً من عسل، ثمّ غنموا ذلك العسل وما خالطه من الأحمال وسميت تلك الثنية ثنية العسل».

وهكذا نجحت خطة طليحة بن خويلد واستشهد في المعركة قائد المسلمين، لكنهم ربحوا المعركة.

ولمّا قتل النعمان أسرع شقيقه نعيم وغطى جثته بعباءة كي لا يراها المقاتلون فتتراجع حميّتهم. وتسلّم قيادة الجند حذيفة بن اليمان.

قدّر المؤرّخون عدد قتلى نهاوند من الفرس بمائة ألف.[1]

لاحق المسلمون المنهزمين من الفرس حتى همذان التي دخلوا أسوارها وتحصّنوا داخلها.

وحصل المسلمون على غنائم كثيرة تسلّمها السائب بن الأقرع صاحب الأقباض فأخرج الخمس منها وقسّم الباقي على المسلمين فأصاب الفارس ستة آلاف درهم والراجل ألفين. وأعطى حذيفة الذين كانوا مرابطين في مؤخّرة الجيش على حدود الأهواز حصصهم من الأنفال.

نقل الطبري رواية عن الغنائم، ثبّت خبرها ابن الأثير وابن كثير وغيرهما. كتب الطبري:[2]

«قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين نهاوند، أصابوا غنائم عظاماً. فوالله إني لأقسم بين الناس، إذ جاءني عِلْج من أهلها فقال: أتؤمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي؛ على أن أدلك على كنوز النّخيرجان - وهي كنوز آل كسرى - تكون لك ولصاحبك، لا يشرُكك فيها أحد؟ قال: قلت: نعم، قال: فابعث معي من أدلّه عليها، فبعثت معه، فأتى بسَفَطين عظيمين ليس فيهما إلاّ اللؤلؤ والزّبَرجد والياقوت. فلما فرغت من قسمِي بين الناس احتملتهما معي؛ ثمّ قدِمت على عمر بن الخطاب؛ فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح؛

---

(١) في هذا الرقم مبالغة.

ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥١٩ - ٥٢٠.

واستُشهد النعمان بن مقرّن رحمه الله. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! قال: ثمّ بكى فنشج، حتى إنّي لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كَتده. قال: فلما رأيتُ ما لقي قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعرف وجهه. فقال المستضعفون من المسلمين: لكنّ أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أمّ عمر! ثمّ قام ليدخل، فقلت: إنّ معي مالاً عظيماً قد جئت به، ثمّ أخبرته خبر السَّفطين، قال: أدخِلْهما بين المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك. قال: فأدخلتُهما بيت المال، وخرجت سريعاً إلى الكوفة. قال: وبات تلك الليلة التي خرجت فيها؛ فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني حتى دخلتُ الكوفة، فأنخت بعيري، وأناخ بعيره على عُرقوبي بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين، فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلاّ الآن. قال: قلت: ويْلك! ماذا ولماذا؟ قال: لا أدري والله، قال: فركبتُ معه حتى قدمت عليه، فما رآني قال: مالي ولابن أمّ السائب! بل ما لابن أمّ السائب ومالي! قال: قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ويحك! والله ما هو إلاّ أن نمت في الليلة التي خرجت فيها، فباتت ملائكة ربي تسحَبُني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً، يقولون: لنكوينّك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين؛ فخذهُما عنّي لا أبالك والحق بهما. فبعتهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم. قال: فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، «وغشِيَني التجار، فابتاعهما منّي عمرو بن حُريث المخزوميّ بألفي ألف؛ ثمّ خرج بهما إلى أرض الأعاجم، فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد».(١)

هكذا فتحت نهاوند في السنة الحادية والعشرين للهجرة، وقيل في السنة التاسعة عشرة للهجرة، في شهر محرّم.

ز - الدروس المستقاة من معركة نهاوند:

١ - للمرة الثانية، يقوم الخليفة عمر بن الخطاب بعزل قائد ناجح قدّم إنجازات

(١) هذه الرواية تظهر مدى حرص قادة المسلمين، وعلى رأسهم الخليفة، على أموال الدولة والمسلمين.

عسكرية كبيرة في سبيل الإسلام. فعلى جبهة الشام عزل أبرز قادتها، خالد بن الوليد، فيما كان المسلمون يتحضّرون لمعركة اليرموك الفاصلة. وعلى جبهة فارس عزل القائد الكبير سعد بن أبي وقاص بطل معركة القادسية فيما المسلمون على وشك خوض معركة نهاوند.

إن في استبدال القائد العام لجبهة معينة في خضمّ الحملة مغامرة عسكرية على السلطة المسؤولة تجنّبها. لكن القادة العسكريين المسلمين، وخلال المرحلة التي نعالجها في هذا الجزء، كانوا قد تمرّسوا على العمليات وأصبح بإمكان أي منهم متابعة معركة كان قد بدأها غيره بجدارة ودون حصول خلل في إدارتها. وهذا ما حصل على جبهتي الشام وفارس.

٢ - أحسن الفرس تطبيق قاعدة تعبئة القوى وحشدها وتجميعها بشكل اجتمع لديهم جيش بلغ مائة ألف مقاتل لخوض القتال ضد المسلمين.

أما الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقد طبّق استراتيجية التشاور مع معاونيه قبل أخذ القرار بشأن مجابهة الفرس في نهاوند، لذلك جاء قراره حولها الذي بعث به إلى النعمان بن مقرن صائباً. كما عاد وعزّزه بجيش كثيف من الكوفة، وبآخر من المدينة المنوّرة.

٣ - أحسن الخليفة في تطبيق مبادىء الحرب. فهو أمّن المبدأ الأول (نسبية الأهداف للوسائل) بحشده القوى من العراق والحجاز وتعزيز قائد الحملة بفرق من المدينة والكوفة والبصرة. المبدأ الثاني أي حرية العمل ساهمت توصيات الخليفة في تحقيقه من خلال ضبطه كلّ كُوَر المسلمين في بلاد فارس بما يكفيها من المقاتلين وحراستها لمنع الفرس من الاستيلاء عليها. كما كلّف فرقة من البصرة بحماية مؤخرة الجيش المتوجّه إلى نهاوند ومنع وصول الإمدادات الفارسية إليها واشغال الفرس عنها. وخوفاً من وقوع فراغ في قيادة الجيش، سمّى سلسلة من القادة المسلمين يخلف كلّ منهم الآخر في حال إصابته.

وهنا، لا يسعنا إلاّ التوقّف عند توصيات الخليفة هذه وأوامره، وكأنه هو الذي كان

يقود الجيوش العربية في نهاوند. فهذه الحكمة والاهتمام الكبير بالمعركة المقبلة رافقتا خلفاء المسلمين الأوائل الذي كان هم المسلمين همهم. وكان الخليفة عمر لا ينام قبل ان ترده أخبار المعركة القائمة، وكان يذرف الدموع على كلّ شهيد يقع. لذلك استطاع المسلمون اجتياز صعوبات السنين الأولى من عهود الخلفاء الراشدين.

٤ - بالمقابل، فإن الفرس، ورغم تفوّقهم العددي، وبدلاً من مواجهة المسلمين في قتال مكشوف خارج نهاوند، اختاروا حصر أنفسهم داخل المدينة ففقدوا بذلك حرية عملهم وتراجعت معنويات جنودهم إلى مستواها الأدنى.

٥ - رغم تحفظنا على صحة أعداد المقاتلين من الفريقين نظراً لميل المؤرخين الأوائل إلى زيادتها بالنسبة للأعداء وتخفيضها بالنسبة للمسلمين، فإننا نستغرب قيام جيش من ثلاثين ألف مقاتل بمحاصرة جيش آخر من مئة وخمسين ألف مقاتل داخل أسوار مدينة نهاوند.

٦ - أحسن القائد العربي النعمان بإرسال دوريات أمام جيشه المتقدّم نحو نهاوند للاستطلاع ونقل المعلومات له عن العدو تجنّباً للوقوع في مفاجآت غير مأمونة النتائج. وهذه الدوريات بما حملته من معلومات، ساهمت في محافظة المسلمين على حرية عملهم خلال سير الاقتراب من المدينة.

كذلك، وخلال سير الاقتراب نحو العدو، فرّق النعمان جيشه في مقدمة وميمنة وميسرة ومؤخرة وسار نحو نهاوند على تعبئة تامة، تحقيقاً لحرية عمله وخوفاً من مفاجآت العدو الممكنة. وهكذا، وبوصول الجيش العربي إلى نهاوند، باشر القتال فوراً فنفذ أول هجوم على المدينة.

٧ - لم يستطع المسلمون حسم موضوع الحصار بسرعة لأسباب أبرزها:

* عدم توفر معدات حصار لديهم من أكباش وسلالم ومنجنيقات وعرادات وما شابه.
* عدم تمرّسهم على مهمات محاصرة المدن واحتلالها.
* قلّة عدد جيشهم مقارنة بالجيش المحصور داخل المدينة.

* موقع نهاوند الحصين.

٨ - أحسن النعمان أيضاً بالتشاور مع أهل الرأي في جيشه إذ توصّل هؤلاء إلى خطة أدت إلى خداع الفرس وتخلّيهم عن حماية الأسوار لهم وخروجهم من المدينة ومواجهتهم المسلمين في معركة مكشوفة خارج الأسوار هزموا بنهايتها وتمّ فتح المدينة من قبل المسلمين.

٩ - أما الفرس، فإنهم أساؤوا تقدير قوتهم نسبة إلى قوّة عدوّهم فاعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأنهم المنتصرون وألقوا حسك الحديد وراء ظهورهم حتى لا يمكنهم الفرار. وكانت النتيجة ارتفاع عدد القتلى في صفوفهم بعد خسارتهم للمعركة.

١٠ - خلال المعركة، قتل قائد الجيش العربي فكتم معاونوه خبر مقتله خوفاً من انعكاس ذلك على معنويات جنده وحماسهم.

إن التدبير الذي اتخذه القادة العرب هو تدبير حكيم وصائب إذ أنّ قائد الجيش كان يعتبر، خلال المرحلة التي نعالجها في هذا الجزء، الملهم والمحرّك لعناصره، ويعجّل فقدانه في خسارة للمعركة.

لقد سجلت حالات عدّة في التاريخ العسكري كانت المعركة تنتهي بهزيمة للجيش الذي يقتل قائده فيها، نذكر منها على سبيل المثال:

* في الأندلس وقعت معركة دعيت «بلاط الشهداء» أو «بواتييه» بين المسلمين بقيادة القائد الكبير عبد الرحمن الغافقي والفرنجة بقيادة شارل مارتيل. وفيما كانت الحرب سجالاً بين الجيشين، استشهد القائد العربي فدبّت الفوضى في صفوف وحداته وخسر المسلمون المعركة.(١)
* في معركة القادسية التي عالجناها في الجزء السابق من هذه الموسوعة، انتهت المعركة بمقتل قائد الفرس رستم.
* في معركة وادي لكّة التي فتحت أبواب الأندلس أمام القائد المسلم طارق بن زياد، ساهم مصرع ملك القوط رودريك في انتهاء القتال لصالح الجيش الإسلامي.

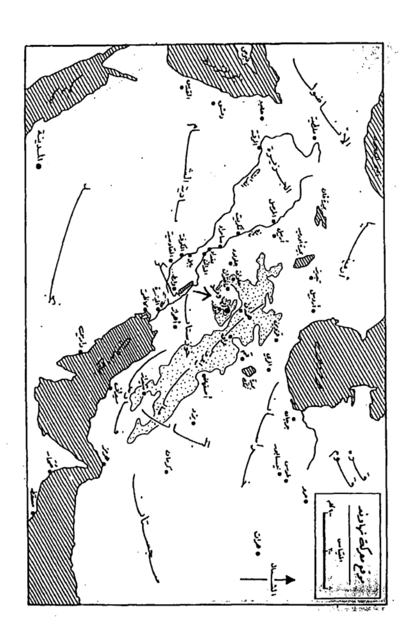
---

(١) سنعالج موضوع معركة بلاط الشهداء في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

١١ - طبّق المسلمون، بعد نهاية القتال في نهاوند، استراتيجية «استغلال النصر»، فلاحقوا فلول الفرس المنهزمين حتى حدود الأهواز.

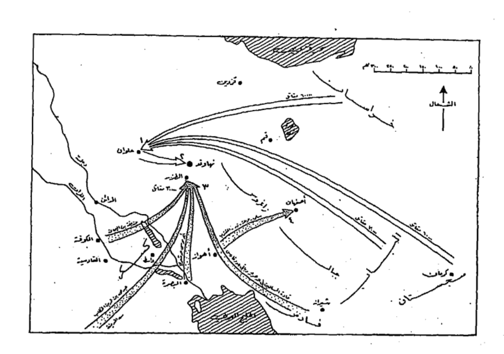
١٢ - جاءت نتيجة معركة نهاوند محطّمة لمعنويات الفرس فراحت مدنهم تتهاوى أمام ضغوط المسلمين الذين فتحوها صلحاً الواحدة تلو الأخرى، ومنها همذان والماهين والدينور وأسبذان والصميرة وقمّ وغيرها.

موقع معركة نهاوند



المستند: العميد ياسين سويد، الفن العسكري الإسلامي، شركة المطبوعات، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٩٧.

معركة نهاوند: التحضير للمعركة



١ - حشد الفرس.

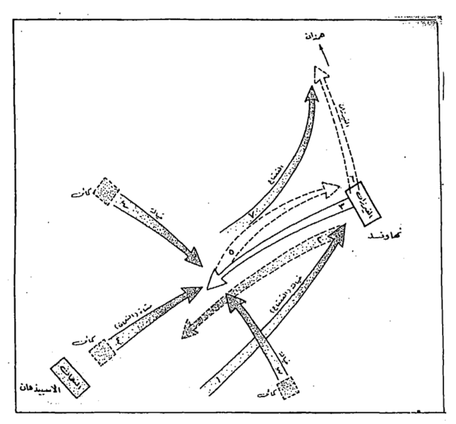
٢ - انتقال الفرس إلى نهاوند.

٣ - التحاق المسلمين بالنعمان.

٤ - قطع الامدادات عن نهاوند.

المستند: العميد ياسين سويد، ص ٢٩٨.

معركة نهاوند



معركة نهاوند

١ - اقتحام القعقاع لتحصينات الفرس بغية استفزازهم.

٢ - التراجع التكتي للقعقاع.

٣ - خروج الفرس من داخل الأسوار ومطاردتهم لخيالة القعقاع.

٤ - كمائن المسلمين تصدّ هجوم الفرس جبهياً وجانبياً.

٥ - تراجع الفرس وسقوطهم في الخندق.

٦ - هروب الفيرزان باتجاه همذان.

٧ - مطاردة القعقاع للفيرزان والقضاء على الأخير.

المستند: العميد ياسين سويد، ص ٢٩٩.

ملحق رقم ٢

سيرتا قائدين شاركا في معركة نهاوند(١)

المغيرة بن شعبة

ابن أبي عامر بن مسعود أبو عيسى ويقال: أبو عبدالله الثقفي، وعروة بن مسعود الثقفي عم أبيه. كان المغيرة من دهاة العرب، وذوي آرائها، أسلم عام الخندق بعدما قتل ثلاثة عشر رجلاً من ثقيف. وشهد الحديبيّة، وكان واقفاً يوم الصلح على رأس رسول الله ﷺ بالسيف صلتاً. وبعثه رسول الله ﷺ بعد إسلام أهل الطائف هو وأبو سفيان بن حرب فهدما اللات، وقدمنا كيفية هدمهما إياها. وبعثه الصدّيق إلى البحرين، وشهد اليمامة واليرموك فأصيبت عينه يومئذٍ، وقيل بل نظر إلى الشمس وهي كاسفة فذهب ضوء عينه. وشهد القادسية. وولاّه عمر فتوحاً كثيرة، منها همدان وميسان، وهو الذي كان رسول سعد إلى رستم فكلّمه بذلك الكلام البليغ فاستنابه عمر على البصرة. فلما شُهد عليه بالزنى ولم يثبت عزله عنها وولاّه الكوفة. واستمرّ به عثمان حيناً ثمّ عزله، فبقي معتزلاً حتى كان أمر الحكمين فلحق بمعاوية. فلما قتل علي وصالح معاوية الحسن ودخل الكوفة ولاّه عليها فلم يزل أميرها حتى مات. وقال أبو عبيد: مات سنة تسع وأربعين، وقال ابن عبد البر: سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة ثمان وخمسين. قال محمد بن سعد: وكان أصهب الشعر جداً، أكشف، مقلص

---

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، الجزء ٨، ص ٥١ إلى ص ٥٩.

الشفتين، أهتم[١] ضخم الهامة، عبل[٢] الذراعين، بعيد ما بين المنكبين. وقال الشعبي: القضاة أربعة أبو بكر، وعمر، وابن مسعود، وأبو موسى. والدهاة أربعة، معاوية، وعمرو، والمغيرة، وزياد، وقال الزهري: الدهاة في الفتنة خمسة، معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان معتزلاً، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبدالله بن بديل ابن ورقاء، وكانا مع علي. والشيعة يقولون: الأشباح خمسة: رسول الله، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، والأضداد خمسة أبو بكر، وعمر، ومعاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة.[٣] وقال الشعبي: سمعت المغيرة يقول: ما غلبني أحد إلاّ فتى مرة أردت أن أتزوّج امرأة فاستشرته فيها فقال: أيها الأمير! لا أرى لك أن تتزوجها، فقلت له: لم؟ فقال: إني رأيت رجلاً يقبلها. ثمّ بلغني عنه أنه تزوّجها، فقلت له: ألم تزعم أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ فقال: نعم! رأيت أباها يقبلها وهي صغيرة. وقال أيضاً: سمعت قبيصة ابن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلاّ بمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلّها. وقال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: كان المغيرة بن شعبة يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين يشتعلان، وصاحب الأربعة قرير العين. وكان يتزوّج أربعاً معاً ويطلقهنّ معاً. وقال عبدالله بن نافع الصائغ: أحصن المغيرة ثلاثمائة امرأة. وقال غيره: ألف امرأة وقيل مائة امرأة. وقيل ثمانين امرأة.

جرير بن عبدالله البجلي

أسلم بعد نزول المائدة، وكان إسلامه في رمضان سنة عشر، وكان قدومه ورسول الله

---

(١) اهتم: مكسور الثنايا.

(٢) عبل الذراعين: كبيرهما.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٢.

ﷺ يخطب، وكان قد قال في خطبته: «إنَّه يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ مِنْ هذا الفَجِّ[1] مِنْ خَيْرِ ذي يَمَنٍ، وَإنَّ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةَ مُلْكٍ»،[2] فلما دخل نظر الناس فكان كما وصف رسول الله ﷺ، وأخبروه بذلك. فحمد الله تعالى، ويروى أن رسول الله ﷺ لما جالسه بسط له رداءه وقال: «إذا جَاءَكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأكْرِمُوهُ».[3]

وفي الصحيحين أنه قال: ما حجبني رسول الله منذ أسلمت ولا رآني إلاّ تبسم. وكان عمر بن الخطاب يقول: جرير يوسف هذه الأمة.

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت جريراً كأن وجهه شقة قمر.

وقال الشعبي: كان جرير هو وجماعة مع عمر في بيت. فاشتم عمر من بعضهم ريحاً، فقال: عزمت على صاحب هذه الريح لما قام فتوضأ، فقال جرير: أو نقوم كلّنا فنتوضأ يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: نِعْمَ السَّيِّد كُنتَ في الجاهلية، ونِعمَ السَّيِّد أنت في الإسلام.

وقد كان عاملاً لعثمان على همدان، يقال إنه أصيبت عينه هناك. فلما قتل عثمان اعتزل علياً ومعاوية، ولم يزل مقيماً بالجزيرة حتى توفي بالسراة، سنة إحدى وخمسين، وفقاً للواقدي، وقيل سنة أربع وخمسين، وقيل سنة ست وخمسين.

---

(١) الفج: الطريق الواسع بين جبلين.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٥٩.

(٣) المرجع نفسه.

الفصل الخامس
الفتوحات في شرق فارس وشمالها

كانت هزيمة الفرس في نهاوند إيذاناً بسقوط المملكة الساسانية أمام مدّ العرب المسلمين. فهذه المعركة كانت أكبر المعارك بعد القادسية والمدائن، وقد حشد لها الفرس أعداداً كبيرة وكلفوا بها أبرز قادة جيشهم، الفيرزان. لذلك كان سقوط نهاوند بداية النهاية بالنسبة إلى حكم يزدجرد.

أولاً – فتح همذان والماهين وغيرهما

بعد هزيمة الفرس في نهاوند، فرّ قسم من جيشهم إلى همذان، فلحق بهم القعقاع بن عمرو على رأس فرقة من الفرسان العرب المسلمين وحاصروا المدينة بعد أن استولوا على الريف حولها. وكان قائد همذان «خسروشنوم» الذي كان أحد قادة جيش رستم في معركة القادسية.

وكان يزدجرد قد استخلف خسروشنوم على حلوان بعد أن هرب من القادسية. فلما علم هذا الأخير بما حلّ بنهاوند خرج إلى القعقاع وطلب منه الأمان لقاء الجزية. قبل القعقاع فدخل المسلمون همذان صلحاً.(١)

أما الخليفة عمر بن الخطاب، فبعد أن كان يعارض توغّل الجيوش الاسلامية داخل فارس خوفاً من انتشارها على مسافات واسعة لا يمكن معها تأمين مستلزمات الفتح، فإنه قرّر أن يمضي في الفتوحات قدماً بعد نجاح المسلمين في فتح نهاوند وهمذان. لذلك أمر بالتجييش وتكثيف الحملات

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٨.

بهدف القضاء على آخر مقاومات الفرس وقتل ملكهم يزدجرد بعدما تأكّد من أن المقاومات الفارسية ستبقى منتعشة طالما أن الملك الفارسي ما زال على قيد الحياة.

أما الماهين، فقد كتب ابن كثير عن الدخول إليها صلحاً:[١]

«وبلغ الخبر [أهل] الماهين بفتح همذان وملكها ونزول نعيم والقعقاع بها فاقتدوا بخسروشنوم فراسلوا حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا. وأجمعوا على القبول، وأجمعوا على إتيان حذيفة فخدعهم دينار - وهو أحد أولئك الملوك وكان أشرفهم قارن وقال: لا تلقوهم في جمالكم، ففعلوا، وخالفهم فأتاهم في الديباج والحليّ فأعطاهم حاجتهم. واحتمل المسلمون ما أرادوا وعاقدوه عليهم ولم يجد الآخرون بداً من متابعته والدخول في أمره، فقيل: ماه دينار لذلك».

كما فتح المسلمون الدينور صلحاً، وكان قد قصدها أبو موسى من نهاوند عندما جاء مدداً على بعث أهل البصرة، فأقام على الدينور خمسة أيام صالحه أهلها بعدها على الجزية، وصالحه أيضاً أهل شيروان عى مثل صلحهم.

أما السائب بن الأقرع فقد قصد الصيمرة[٢] ففتحها صلحاً.

كتب ابن خلدون عن فتح همذان والماهين:[٣]

«ولما اشتدّ الحصار بأهل همذان بعث خسروشنوم إلى نعيم والقعقاع في الصلح على قبول الجزية فأجابوه إلى ذلك. ثمّ اقتدى أهل الماهين، وهم الملوك الذين جاءوا لنصرة يزدجرد بأهل همذان، وبعثوا إلى حذيفة فصالحوه. وأمر عمر بالانسياح في بلاد الأعاجم».

والظاهر أن همذان عادت وانتفضت فكتب الخليفة إلى نعيم بن مقرن فعاد وافتتحها. كتب ابن خلدون عن انتفاضة همذان ما يلي:[٤]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢.

(٢) هي مدينة مهرجان قذق.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٧٧.

(٤) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٩٧٩.

«كان أهل همذان قد صالح عليهم خشروشنوم القعقاع ونعيماً وضمنهما، ثمّ انتقض فكتب عمر إلى نعيم أن يقصدها، فودّع حذيفة ورجع إليها من الطريق على تعبيته. فاستولى على بلادها أجمع حتى صالحوه على الجزية. وقيل أن فتحها كان سنة أربع وعشرين. فبينما نعيم يجول في نواحي همَذان إذ جاءه الخبر بخروج الدَيْلَم وأهل الريّ واسفِنديار أخو رستم بأهل أذربيجان. فاستخلف نعيم على همذان يزيد ابن قيس الهمذاني، وسار إليهم فاقتتلوا، وانهزم الفرس وكانت واقعتها مثل نهاوند وأعظم. وكتبوا إلى عمر بالفتح فأمر نعيماً بقصد الريّ والمقام بها بعد فتحها».

وعن فتح «الدينور وماسبذان والصَميرة» كتب البلاذري:(١)

«قالوا: انصرف أبو موسى الأشعري من نهاوند، وقد كان سار بنفسه إليها على بعث أهل البصرة مُمِدّاً للنعمان بن مُقَرِّن فمرّ بالدينور فأقام عليها خمسة أيام قوتل منها يوماً واحداً. ثمّ إنّ أهلها أقرّوا بالجزية والخراج وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فأجابهم إلى ذلك. وخلّف بها عامله في خيل، ثمّ مضى إلى ماسَبَذان فلم يقاتله أهلها. وصالحه أهل السِّيروان على مثل صلح الدينور، وعلى أن يُؤدّوا الجزية والخراج، وبثّ السرايا فيهم فغلب على أرضها. وقوم يقولون إنّ أبا موسى فتح ماسبذان قبل وقعة نهاوند. وبعث أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري، السائب بن الأقرع الثقفي؛ وهو صهره على ابنته، وهي أمّ محمّد بن السائب، إلى الصَّيموة مدينة مهرجانقذف، ففتحها صلحاً على حقن الدماء وترك السباء والصفح عن الصفراء والبيضاء وعلى أداء الجزية وخراج الأرض. وفتح جميع كور مهرجانقذف، وأثبت الخبر أنّه وجّه السائب من الأهواز ففتحها».

ثمّ جاء أبو موسى إلى قمّ وأقام عليها أياماً، ثمّ افتتحها، ووجه الأحنف بن قيس إلى قاشان فافتتحها عنوةً.(٢)

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٤٣٠ – ٤٣١.

(٢) البلاذري، المرجع نفسه، ص ٤٣٦.

ثانياً – فتح أصبهان

وضع الخليفة خطة تقضي بخروج الجيوش الإسلامية من الكوفة والبصرة بحيث يتولّى جيش الكوفة فتح أصبهان والري وأذربيجان، ويتولى جيش البصرة فتح كرمان.

وكان الفرس قد تجمّعوا بعد سقوط نهاوند وهمذان في أصبهان[١]، فكتب الخليفة إلى عبدالله بن عبدالله بن عتبان خليفة سعد بن أبي وقاص على الكوفة بفتح باب التطوّع في المدائن لشنّ حملة على أصبهان.

كتب ابن الأثير عن حملة عبدالله على أصبهان وفتح المدينة ما يلي:[٢]

«وسار عبدالله فيمن كان معه ومن تبعه من جند النعمان بنهاوند نحو أصبهان، وعلى جندها الاستندار، وعلى مقدمته شهربراز بن جاذويه شيخ كبير في جمع عظيم [فالتقى المسلمون] ومقدّمة المشركين برستاق لأصبهان فاقتتلوا قتالاً شديداً. ودعا الشيخ إلى البراز فبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحي فقتله وانهزم أهل أصبهان فسمي ذلك الرستاق رستاق الشيخ إلى اليوم. وصالحهم الاستندار على رستاق الشيخ وهو أول رستاق أخذ من أصبهان. ثمّ سار عبدالله إلى مدينة جَيّ وهي مدينة أصبَهان فانتهى إليها والملك بأصبهان الفاذوسفان، فنزل بالناس على جَيّ وحاصرها وقاتلها ثمّ صالحه الفاذوسفان على أصبهان وأنّ على مَن أقام الجزية وأقام على ماله وأن يجري مَن أخذت أرضه عنوه مجراهم، ومَن أبى وذهب كان لكم أرضه.

وقدم أبو موسى على عبدالله من ناحية الأهواز وقد صالح فخرج القوم من جَيّ ودخلوا في الذمة إلاّ ثلاثين رجلاً من أهل

---

(١) أصبهان مدينة كبيرة، وهي عاصمة إقليم الجبال. قيل ان الاسكندر المقدوني هو الذي بناها. وهي تتألّف من مدينتين متجاورتين: جَيّ واليهودية. وقد اشتهرت بخصب أراضيها. وكان لها سور عال عليه أبراج وفي كلّ برج مقاتلون للدفاع عن المدينة التي تقوم في وسطها قلعة قوية بنيت على تلّة تشرف على جي واليهودية. – ويقال لها أيضاً «أصفهان».

(٢) ابن الأثير مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢٢.

أصبهان [خالفوا قومهم وتجمّعوا و] لحقوا بكرمان.

ودخل عبدالله وأبو موسى جَيّاً، وكتب بذلك إلى عمر فقدم كتاب عمر إلى عبدالله أن سِرْ حتى تقدم على سُهيل بن عدي فتكون معه على قتال مَنْ بكرمان. فسار واستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع ولحق بسهيل قبل أن يصل إلى كرمان».

البلاذري، بدوره، روى رواية الفتح في شكل فيه بعض الاختلاف عن رواية ابن كثير إذ كتب:(١)

وحدّثني محمّد بن سعد قال حدّثني الهيثم بن جميل عن حمّاد بن سَلَمة عن محمّد بن إسحاق، قال: وجّه عمر بن بُدَيل الخزاعي إلى أصبهان وكان مرزبانها مُسِناً يسمّى الفادُوسفان فحاصره وكاتب أهل المدينة فخذّلهم عنه. فلمّا رأى الشيخ التياث الناس عليه، اختار ثلاثين رجلاً من الرماة يثق ببأسهم وطاعتهم، ثمّ خرج من المدينة هارباً يريد كرمان ليتبع يزدَجِرد ويلحق به. فانتهى خبره إلى عبدالله بن بُدَيل، فاتبعه في خيل كثيفة، فالتفت الأعجمي إليه وقد علا شرفاً، فقال: اتّق على نفسك فليس يسقط لمن ترى سهم فإن حملت رميناك، وإن شئت أن تُبارزنا بارزناك. فبارز الأعجميّ فضربه ضربة وقعت على قَرَبُوس سرجه فكسرته وقطعت اللّبب، ثم قال له: يا هذا ما أحبّ قتلك فانّي أراك عاقلاً شجاعاً، فهل لك في أن أرجع معك فأصالحك على إداء الجزية عن أهل بلدي، فمن أقام كان ذمّة، ومن هرب لم تعرض له، وادفع المدينة إليك. فرجع ابن بُدَيل معه، ففتح جَيّ، ووفى بما أعطاه، وقال: يا أهل أصبهان رأيتكم لياماً متخاذلين، فكنتم أهلاً لما فعلت بكم.

قالوا: وسار ابن بُدَيل في نواحي أصبهان سهلها وجبلها، فغلب عليها وعاملهم في الخراج نحو ما عامل عليه أهل الأهواز.

قالوا: وكان فتح أصبهان وأرضها في بعض سنة ٢٣ و٢٤. وقد رُوي أنّ عمر بن الخطّاب وجّه عبدالله بن بُديل في جيش فوافى أبا موسى وقد فتح قُمّ وقاشان فغزَوا جميعاً أصبهان، وعلى مقدّمة أبي موسى الأشعري الأحنف بن قيس ففتحا اليهودية

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

جميعاً على ما وصفنا. ثمّ فتح ابن بُديل جَيّ وسارا جميعاً في أرض أصبهان فغلبا عليها. وأصحُّ الأخبار أن أبا موسى فتح قم وقاشان، وأن عبدالله بن بُدَيل فتح جي واليهودية».

ومن الروايتين نرى أن جي فتحت بعد قتال لم يربح فيه أي من الجانبين، تلته مبارزة بين القائدين، وقد فتحت صلحاً. كما افتتحت الحصون والمعاقل المجاورة لأصبهان في «جفرباذ» و«رستاق العميرة الكبرى» و«قلعة ماربين» صلحاً وفرضت الجزية على سكانها.

وعين الخليفة «عمر بن سراقة» على أصبهان بعد فتحها.

ثالثاً – خطة المسلمين بعد فتح أصبهان

بعد فتح أصبهان رأى الخليفة وجوب إكمال عملية الفتوحات في بلاد فارس لهدفين:

– الأول: سقوط كلّ مقاطعات فارس في يد العرب تمهيداً لدخولها إلى عالم الإسلام.

– الثاني: ضمان عدم متابعة ثورات أهل فارس على الحكم الإسلامي.

وهكذا قرّر عمر بن الخطاب توسيع عمليات الفتوح بحيث يتولى جيش الكوفة فتح مناطق الشمال والشمال الغربي، ويهتم جيش البصرة بإكمال الفتوحات في الشرق والجنوب الشرقي.

وكان قائد جيش الكوفة نعيم بن مقرن قد أعاد إخضاع أهل همذان الذين ثاروا على المسلمين ناقضين العهد بينهم. لذلك أصبحت الخطة تقضي بـ:[١]

أ – مهمة جيش الكوفة:

– توجه نعيم بن مقرن لفتح مقاطعة الري.

– بعدها يرسل أخاه سويد بن مقرن لفتح جرجان وطبرستان.

– يكلف بكيراً بن عبدالله وعتبة بن فرقد فتح أذربيجان.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٣٥ – ٥٣٧.

- ثمّ بعدها يتجه عمر بن سراقة إلى الباب لفتحه.

ب - مهمة جيش البصرة:

- يتجه مجاشع بن مسعود السلمي إلى «أردشير حزة» و«سابور» لفتحهما.
- يتوجه سارية بن زنيم الكناني إلى «فسا» و«دارابجرد» لفتحهما.
- يكلف عثمان بن أبي العاص بفتح «اصطخر» منطلقاً من البحرين.
- يكلف سهيل بن عدي وعبدالله بن عتبان بفتح كرمان، ثمّ ينضمان إلى الحكم بن عمرو التغلبي وشهاب بن مخازن لفتح مكران.
- يكلف عاصم بن عمرو التميمي بفتح سجستان.
- يطارد الأحنف بن قيس ملك فارس يزدجرد في خراسان.

هذه الخطة الجريئة كان على الجيوش العربية أن تنفذها وصولاً إلى فتح كامل المنطقة التي تسيطر عليها فارس وإنهاء وجود هذه الدولة وإدخال جماعاتها والشعوب التابعة لها في الدين الإسلامي.

رابعاً - موقف الفرس

مقابل هذه الخطة الجريئة حاول ملك الفرس يزدجرد إعادة تنظيم جيشه لإنقاذ بلاده من السقوط النهائي بيد المسلمين وصون عرشه من الانهيار. فطلب من ولاة الأقاليم في آذربيجان وخراسان وفارس ومكران إرسال المدد إليه إلى الري.

وبالفعل وصلته الإمدادات من هؤلاء الولاة فانتقل بها إلى أصبهان. ولما علم باندحار جيشه أمام أصبهان، تركها إلى كرمان فيما خرج الجيش من المدينة لقتال المسلمين.

خامساً - فتح قزوين(١) وزنجان(٢)

كتب ابن الأثير عن فتح قزوين من قبل البرّاء بن عازب وغزوه الديلَم:(٣)

(١) قزوين: مدينة مشهورة ببلاد فارس قريبة من الريّ.

(٢) زنجان: بلد كبير مشهور في جبال فارس قريب من أبهر وقزوين.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢٦.

«لما سيّر المغيرة جريراً إلى همذان ففتحها، سيّر البراء بن عازب في جيش إلى قزوين وأمره أن يسير إليها فإن فتحها غزا الديلم منها. وإنما كان مغزاهم قبل من دستبي»، فسار البراء حتى أبهر - وهو حصن - فقاتلوه ثمّ طلبوا الأمان فأمّنهم وصالحهم. ثمّ غزا قزوين، فلما بلغ أهلها الخبر أرسلوا إلى الديلم يطلبون النصرة فوعدوهم. ووصل المسلمون إليهم فخرجوا لقتالهم والديلم وُقوفٌ على الجبل لا يمدّون يداً. فلما رأى أهلُ قزوين ذلك طلبوا الصلح على صلح أبهر.

وغزا البراء الديلم حتى أدّوا إليه الاتاوة، وغزا جيلان، والطيلسان وفتح زنجان عنوة. ولما ولي الوليد بن عقبة الكوفة غزا الديلم، وجيلان، وموقان، والبير، والطيلسان ثمّ انصرف».

ملاحظة:

وهكذا يكون الجيش العربي قد طبّق استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية فقاتل كلاً من المدن الفارسية لوحدها فيما كان الفرس يشاهدون سقوط مدنهم الواحدة تلو الأخرى دون أن يجتمعوا معاً لحرب المسلمين، الأمر الذي حاولوا تجنّبه في معركة «واج الروذ».

سادساً - فتح الريّ

بعد فتح همذان مجدداً قسّم نعيم بن مقرن إقليم همذان إلى خمس مناطق وكلف قائداً مسلماً بتسيير أمور كلّ منطقة. وهؤلاء القادة هم: عصمت بن عبدالله الضبي ومهلهل بن زيد الخيل الطائي وسماك بن عبيد العبسي وسِماك بن مخرمة الأسدي وسماك بن خرشة الأنصاري.[1]

وعندما علم ملوك البلدان المجاورة بالاستعدادات الاسلامية للفتح، تراسلوا في ما بينهم وقرروا توحيد جيوشهم لمجابهة المسلمين في همذان.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٣٦.

أ - وقعة «واج الروذ»:

- كتب الطبري عن توحّد ملوك الفرس وعن القتال الذي جرى في «واج الروذ» ما يأتي:[1]

«فبينما نُعيم في مدينة هَمَذان في توطئتها في اثني عشر ألفاً من الجند تكاتب الدَّيْلم وأهل الرّي وأهل أذربيجان. ثمّ خرج موتا في الدّيلم حتى ينزل بواج روذ؛ وأقبل الزينبيّ أبو الفرُّخان في أهل الرّيّ حتى انضمّ إليه، وأقبل إسفندياذ أخو رستم في أهل أذربيجان؛ حتى انضمّ إليه. وتحصّن أمراء مسالح دَسْتَبى، وبعثوا إلى نعيم بالخبر، فاستخلف يزيد بن قيس، وخرج إليهم في الناس حتى نزل عليهم بواج الرّوذ، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً؛ وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند؛ ولم تكن دونها. وقتل من القوم مقتلة عظيمة لا يحصَون ولا تقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار. وقد كانوا كتبوا إلى عمر باجتماعهم، ففزع منها عمر، واهتمّ بحربها، وتوقع ما يأتيه عنهم، فلم يفاجأه إلاّ البريد بالبشارة. فقال: أبشير! فقال: بل عروة؛ فلما ثنى عليه: أبشير؟ فطِن، فقال: بشير؛ فقال عمر: رسول نُعَيم؟ قال: رسول نُعَيم، قال: الخبر؟ قال: البشرى بالفتح والنصر. وأخبره الخبر؛ فحمد الله، وأمر بالكتاب فقرىء على الناس؛ فحمدوا الله. ثمّ قدم سِماك بن مخرمة وسِماك بن عُبيد وسِماك ابن خرَشة في وفود من أهل الكوفة بالأخماس على عمر، فنسبهم، فانتسب له سِماك وسِماك وسِماك، فقال: بارك الله فيكم؛ اللهمّ اسْمُك بهم الإسلام وأيّدهم بالإسلام».

وبالفعل، اشتبك الجيشان في معركة قاسية صمد خلالها المسلمون فراح أعداؤهم يهربون أمامهم. وقتل ملك الديلم «موتا» فيما فرّ ملكا الري وأذربيجان.

وغنم المسلمون غنائم كثيرة في وقعة «واج الروذ» من الخيول والإبل والأسلحة، فبعث نعيم بالخمس من الغنائم إلى الخليفة ووزع الباقي على المقاتلين.

---

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٥٣٦.

ب - القتال على الريّ:

أرسل الخليفة أوامره الجديدة إلى نعيم مع الرسول الذي بلّغه خبر وقعة «واج الروذ» فكتب له:(١)

«أما بعد، فاستخلف على همذان، وأمدّ بُكَير بن عبدالله بسماك بن خرشة، وسرْ حتى تقدّم الرّيّ، فتلقى جمعهم، ثمّ أقِم بها، فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد».

فأقرّ نعيم يزيد بن قيس الهمذاني على همذان وسار في جيشه باتجاه الري. بعد أن خرّب «واج روذ».

وكان ملك الري «سِيا وَخش بن مهران» قد عاد بمن بقي من جيشه إلى بلاده وهرب ملك أذربيجان إلى بلاده أيضاً. وكان يحكم الري يومئذٍ أسرتان: الأسرة التي ينتمي إليها «سيا وخش» تهتم بالأمور السياسية، فيما تهتم بأمور الجند أسرة يرأسها «أبو الفرخان» أو «الزينبي»، مع تحاسد بين العائلتين.

كلف «سيا وخش» «الزينبي» بالتصدي لنعيم فالتقى الجيش الفارسي بالجيش الإسلامي في جبل الري بجانب المدينة، فاقتتلا قتالاً شديداً إلى أن سالم «الزينبي» نُعيماً وعاهده على مساعدته في قتال ملك الري.

نقل الطبري وابن الأثير والبلاذري باقي الرواية التي بنهايتها تمّ فتح الري عنوة، فكتب ابن الأثير:(٢)

«ثم انصرف نعيم من بواج روذ حتى قدم الري وخرج الزينبي أبو الفرخان من الريّ فلقي نعيماً طالباً الصلح ومسالماً له ومخالفاً لملك الريّ وهو سياوخش بن مرهان بن بهرام جوبين. فاستمد سياوخش أهل دُنباوند، وطبرستان، وقومس، وجرجان فأمدّوه خوفاً من المسلمين فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل الري إلى جنب مدينتها فاقتتلوا به. وكان الزينبيّ قال لنعيم: إنّ القوم كثير وأنت في قلة فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهدهم أنت فإنهم إذا خرجنا عليهم لم يثبتوا لك. فبعث معه نعيم خيلاً من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر

---

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٥٣٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

القوم. وبيّتهم نعيم بياتاً فشغلهم عن مدينتهم فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعوا التكبير من ورائهم فانهزموا فقتلوا مقتلة عدواً بالقصب فيها. وأفاء الله على المسلمين بالري نحواً من في المدائن. وصالحه الزينبي على الري ومرزبه عليهم نعيم[1] فلم يزل شرف الري في أهل الزينبي، [الأكبر ومنهم شهرام، وفرخام، وسقط آل بهرام]. وأخرب نعيم مدينتهم وهي التي يقال لها «العتيقة». وأمر الزينبي فبنى مدينة الريّ الحدثي. وكتب نعيم إلى عمر بالفتح وانفذ الأخماس، وكان البشير المضارب العجلي. وراسله المصمغان في الصلح على شيء يفتدي به منه على دنباوند فأجابه إلى ذلك. وقد قيل: إن فتح الري كان على يد قرظة بن كعب، وقيل: كان فتحها سنة إحدى وعشرين، وقيل غير ذلك والله أعلم».

غنم المسلمون من الري غنائم توازي غنائمهم من المدائن فأرسل نعيم خمسها إلى الخليفة ووزع الباقي على المقاتلين.

وبعد أن تمّ فتح الري، أرسل نعيم سماك ابن خريشة مدداً إلى بكير بن عبدالله الذي كان الخليفة قد كلفه فتح آذربيجان.

أما في جهة الفرس، فإن حاكم مدينة «دنباوند» القريبة من الري واسمه «مردانشاه مُصمُغان» قرر، بعد أن علم بسقوط الري، افتداء مدينته من دون أن يدخلها المسلمون أو أن تدخل في ذمتهم أو حمايتهم. قبل نعيم بهذا الصلح وأعطى «مصمغان» كتاب أمان جاء فيه:[2]

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من نُعيم بن مقرّن لمَرْدَانْشاه مَصْمُغان دُنْباوند وأهل دُنْباوند والخُوار واللارز والشِّرّز. إنك آمن ومن دخل معك على الكفّ، أن تكفّ أهل أرضك، وتتقي من ولي الفرْج بمائتي ألف درهم وَزْن سبعة في كلّ سنة، لا يغار عليك، ولا يدخل عليك إلاّ بإذن؛ ما أقمت على ذلك حتى تغيِّر، ومن غيَّر فلا عهد له ولا لمن لا يسلمه. وكتب وشهد».[3]

(٢) أي جعله نُعيم مرزباناً عليهم.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ٥٣٨.

(٣) كان هذا أول كتاب صلح لا يدخل بموجبه المصالحون في ذمة المسلمين، إلا ان موقع المدينة الصعب يبرّر ربما ذلك إذ ان من الصعب جداً فتحها عنوة.

سابعاً – فتح قومس وجرجان وطبرستان

وتتابعت الفتوحات الإسلامية. فبعدما بلغ الخليفة عمر بن الخطاب نصر الريّ كتب إلى نعيم بن مقرن ليتابع الفتوح.

أ - فتح قومس:

كتب الطبري عن فتح قومس ما يلي:[1]

«قالوا: ولما كتب نُعيم بفتح الرّيّ مع المُضارب العجليّ، ووفّد بالأخماس كتب إليه عُمر: أن قدّم سُويد بن مقرّن إلى قومِس، وابعث على مقدمته سماك بن مخرَمة وعلى مجنّبتيه عُتَيبة بن النّهاس وهند بن عمرو الجمليّ. ففصل سُويد بن مقرّن في تعبيتِه من الرّيّ نحو قُومِس؛ فلم يقمْ له أحدٌ؛ فأخذها سِلْماً، وعسكر بها. فلمّا شربوا من نهر لهم يقال له ملاذ، فشا فيهم القصَر؛ فقال لهم سويد: غيّروا ماءكم حتى تعودوا كأهله؛ ففعلوا، واستمرؤوه. وكاتبه الذين لجؤوا إلى طبرستان منهم، والذين أخذوا المفاوز، فدعاهم إلى الصلح والجزاء، وكتب لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى سويد بن مقرّن أهل قومِس ومن حَشَوا من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم، على أن يؤدّوا الجزية عن يد؛ عن كلّ حالم بقدر طاقته؛ وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا، وعلى أن يدلّوا، وعليهم نُزْل مَن نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدّلوا واستخفّوا بعهدهم فالذمّة منهم بريئة. وكتب وشهد».

وكانت قومس تبعد حوالى ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً عن الريّ، لذلك اعتبر فتحها توغلاً كبيراً في شرق بلاد فارس وتطوراً كبيراً في عملية إكمال فتح كلّ أنحاء تلك البلاد.

وفي قومس اعتنق حوالى أربعة آلاف فارسي الإسلام وانضموا إلى جيش المسلمين.

ب - فتح جرجان:

وفيما كان سويد بن مقرن في قومس أرسل كتاباً إلى مزربان جرجان «رزبان صول» يدعوه، إما للدخول في الإسلام أو

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٣٨.

للصلح لقاء الجزية أو للقتال. فاختار المرزبان مصالحة المسلمين لقاء الجزية، ودعا سويداً إلى دخول المدينة فدخلها في موكب مهيب وعسكر فيها حتى جبى الخراج ونظم حامياتها وتعهد بالدفاع عنها بجند من «ترك دهستان» مسقطاً عنهم الجزية.(١)

أما كتاب الصلح إلى أهل جرجان ودهستان فجاء فيه:(٢)

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من سُويد بن مقرّن لرُزبان صول بن رُزبان وأهل دِهستان وسائر أهل جُرجان؛ إنّ لكم الذّمة، وعلينا المنعة؛ على أنّ عليكم من الجزاء في كلّ سنة عى قدر طاقتكم؛ على كلّ حالم؛ ومن استعنّا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه. ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغيّر شيء من ذلك هو إليهم ما أدّوا وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وقروا المسلمين، ولم يبدُ منهم سلٌّ ولا غلٌّ، ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه؛ وعلى أنّ من سبّ مسلماً بُلغ جهده، ومن ضربه حلّ دمه. شهد سواد بن قطبة، وهند بن عمرو، وسماك بن مخرمة، وعتيبة بن النهاس. وكتب في سنة ثمان عشرة».

ج - فتح طبرستان:

ولما علم «الفرخان» اصبهبذ خراسان بسقوط جرجان وقومس سلماً، كتب بدوره إلى سويد بن مقرن يطلب الصلح عن مدينة طبرستان وجبل جيلان على أن يتواعدا ويؤدي شيئاً إلى المسلمين من غير نصر ولا معونة على أحد.

قبل سويد بعرض الاصبهنذ وكتب له كتاب صلح جاء فيه:(٣)

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من سويد بن مقرّن للفرّخان إصبهبذ خُراسان على طبرستان وجِيل جيلان من أهل العدوّ؛ إنك آمن بأمان الله عزّ وجلّ

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٣٨.

(٣) الطبري، المرجع نفسه، ص ٥٣٩.

على أن تكفّ لُصُوتَك وأهل حواشي أرضك ولا تُؤوي لنا بُغية، وتتّقي من ولى فَرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك. فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يُغير عليك، ولا يتطرّق أرضك، ولا يدخل عليك إلاّ بإذنك؛ سبيلنا عليكم بالإذن آمنة؛ وكذلك سبيلكم، ولا تؤون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدوّ، ولا تغلّون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم. شهد سواد بن قطبة التميميّ، وهند بن عمرو المُراديّ، وسماك بن مَخرمة الأسديّ، وسماك بن عُبيد العبسيّ، وعتيبة ابن النهّاس البكريّ. وكتب سنة ثمان عشرة».

ثامناً – الدروس المستقاة

أ – لم يجتمع القادة الفرس للدفاع عن قزوين وزنجان، فتمكّن المسلمون من محاربة كلّ قائد منفرداً عن الآخر فانتصروا عليهم مطبّقين، كما سبق القول، استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية.

ب – أما في معركة «واج الروذ»، فرغم توحيد ملوك الفرس جيوشهم مقابل الجيش العربي، فإن صمود المقاتل المسلم وتصميم نُعيم على النجاح أمنا انتصار المسلمين على الفرس.

فالجيوش الفارسية التي دأبت على التراجع أمام الحملة العربية على بلاد فارس منذ معركةالقادسية، أصبحت معنويات قادتها وجنودها في أدنى مستوياتها مقابل الجيوش الإسلامية المظفرة والتي كانت تعوّض عن النقص في عديدها بشدّة حوافز عناصرها وحماسهم ورغبتهم في المزيد من الانتصارات والغنائم.

ج – في الري كانت تحكم أسرتان فارسيتان متحاسدتان، تهتم إحداهما بالأمور السياسية والأخرى بالشأن العسكري ودون تنسيق بينهما. لقد سبق وأوردنا مطالعة طويلة في بداية هذا الجزء عن الخطر المتأتي عن خلافات السلطتين السياسية والعسكرية في دولة ما.

وبالفعل، تمّ الاتفاق بين قائد جيش الري وقائد جيش المسلمين على الصلح خلافاً لرأي ملك الري الذي طلب المدد من باقي

ملوك المدن الفارسية فأمدّوه خوفاً من المسلمين. لكن قائد جيش الري عاد وغَدر بالفرس وساعد العرب على دخول المدينة التي سقطت بيدهم.

د - من الملاحظ أيضاً أن غالبية مدن شمال وشرق فارس آثرت مصالحة المسلمين والدخول في ذمتهم بدل التصدّي لجيشهم الذي كان ينتقل من نصر إلى نصر. ومن أسباب ميل القادة الفرس للمصالحة، علاوة على خوفهم من شدة بأس المسلمين في القتال، حسن معاملة هؤلاء لسكان المدن المفتتحة صلحاً والتي تعكسها كتب القائد نُعمان إليهم. فعلى سبيل المثال، جاء في كتاب الصلح إلى جرجان ودهستان أن «عليهم الجزاء على قدر طاقتهم، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يُغيّر شيء من ذلك...».

فالتاريخ العسكري لم يُسجل رأفة وحسن معاملة مماثلة للشعوب المغلوبة.

الفصل السادس

متابعة الفتوحات في شرق وشمال فارس

تنفيذاً لأوامر الخليفة عمر بن الخطاب، تابع المسلمون توغّلهم في شمال وشرق بلاد فارس، بهدف إنهاء وجود المملكة الساسانية وتحويل المنطقة التابعة لها إلى منطقة ينتشر فيها الدين الإسلامي وتتبع للخلافة الراشدية في المدينة المنوّرة.

وهنا لا بدّ من التساؤل:

- كيف تمكّنت الجيوش الإسلامية من فتح جميع المدن والمناطق التي سبق الحديث عنها في وقت طالت خطوط مواصلاتها وتموينها واتصالاتها بقيادتها؟
- وكيف تمكنت الإدارة الإسلامية من تحويل فتح هذه المدن إلى إقامة دائمة؟

لا سيما أن مناطق الشرق الأدنى سبق وعرفت غزوات أخرى، ومرّ عليها فاتحون كثر لكنهم لم يستطيعوا البقاء. كما أن المملكة الساسانية التي كانت تسيطر كلياً على المناطق المعنية لم تتمكن من البقاء طويلاً فيها.

رغم صعوبة الإجابة على هذين السؤالين في صورة واضحة فإن المحللين السياسيين والعسكريين يرون أن من أهم الأسباب التي ساهمت في تحويل الفتح العسكري إلى إقامة دائمة كان اعتناق الشعوب القاطنة في المناطق التي افتتحها العرب الدين الإسلامي واعتبارهم أن الأمة الإسلامية تشمل كلّ المسلمين. لذلك فإن الفارسي الذي اعتنق الإسلام بعد فتح منطقته، لم يعتبر نفسه مغلوباً أو خاسراً، بل رأى نفسه وهو يعتنق الإسلام وكأن كل

مشكلاته قد حُلّت، من العبودية والاسترقاق والفقر والظلم والاستبداد... الخ.

زد على ذلك أن الفاتحين العرب المسلمين لم يميزوا في المعاملة ما بين المسلمين، أعرباً كانوا أم فرساً أم بيزنطيين أو غير ذلك، بل اعتبروا المسلم أخاً للمسلم، وأنّ لا فضل لمسلم على آخر إلاّ بالتقوى.

وسبب آخر، جاء لاحقاً، وساهم في إبقاء الوجود الإسلامي في بلاد فارس وغيرها كشمال افريقيا وبلاد الشام، وهو تعريب الدواوين واعتماد لغة القرآن كلغة رسمية في إدارة المناطق المفتتحة.

أما الإجابة على السؤال الأول فإن بعضها يأتي من جواب السؤال الثاني الذي سبق الحديث عنه. هذا إضافة إلى أن العرب اعتمدوا سياسة التموّن من المناطق المفتتحة. لذلك لم تكن الإدارة الإسلامية في المدينة المنوّرة مسؤولة مباشرة عن تموين الجيوش التي كانت تصادر كلّ أموال وممتلكات ومواشي وأرزاق المناطق التي تفتتح عنوة، وتتقاضى الجزية عن تلك المفتتحة صلحاً. وهكذا فإنّ قضية التموين، التي تشغل حالياً أذهان القادة العسكريين عند توجيه جيوشهم إلى مناطق بعيدة، لم يكن لها الأهمية نفسها خلال الفتوحات العربية الاسلامية.

أما التواصل ما بين قادة الجيوش والخلافة، فقد رأينا من دراسة المعارك أن الخليفة عمر بن الخطاب درج على توصية قادته قبل انطلاقهم في مهمة جديدة بكلّ ما ينبغي عليهم القيام به، وكان يرسل الرسل إليهم تباعاً أثناء تقدّمهم في الأرض العدوة. كما أن سرعة انتقال العربي التي تعودها منذ الجاهلية، إن كان ممتطياً فرساً عربية سريعة أو ناقة صبورة وسريعة، ساعد الجيوش العربية في نقل الأخبار والأوامر بالسرعة الممكنة.

وأما الحماس الديني والرغبة في نشر الدين الحنيف والأسباب الاقتصادية، أي الرغبة في الحصول على الغنائم التي تؤمّنها الفتوحات، فهي أيضاً أسباب مهمّة وبارزة ساعدت على انتصار العرب المسلمين في غالبية المعارك التي

خاضوها ضد الفرس والروم، رغم أن أعداد جيوشهم كانت أقل بكثير من الجيوش المقابلة التي لم يكن يجمعها جامع واحد، بل تفرّقها الخلافات السياسية والاجتماعية والدينية المتنوّعة.

بعد هذه المقدمة الضرورية، سنتابع درس الفتوحات الاسلامية في شرق وشمال بلاد فارس بدءاً بفتح أذربيجان.

أولاً – فتح اذربيجان

كما سبق الحديث، كان جيش الكوفة مكلفاً من قبل الخليفة عمر فتح أذربيجان بإرسال قائدين إليها هما بكير بن عبدالله وعتبة بن فرقد.(١)

وبالفعل، وبعد انتهاء نعيم بن مقرن من معركة الريّ، فرّ ملك أذربيجان «اسفنديار ابن الفرخزاذ» محاولاً اللحاق ببلاده.(٢) أما خطة المسلمين الرامية إلى فتح أذربيجان فكانت كالآتي:

– الجيش الأول، بقيادة بكير بن عبدالله الليثي، ينطلق من حلوان ويهاجم أذربيجان من الشرق.

– الجيش الثاني، بقيادة عتبة بن فرقد، يخرج من الموصل.

وأمر الخليفة نعيماً بأن يرسل سمّاك بن خرشة مدداً لبكير.

نقل ابن الأثير تفاصيل فتح اذربيجان، فكتب:(٣)

«قال فلما افتتح نعيم الريّ بعث سماك ابن خرشة الأنصاريّ – وليس بأبي دُجانة – ممداً لبكير بن عبدالله بأذربيجان، أمره عمر بذلك. فسار سماك نحو بكير وكان بكير حين بعث إليها سار حتى إذا طلع بجبال جرميذان طلع عليهم اسفنديار بن فرخزاذ مهزوماً من بواج روذ، فكان أول قتال لقيه بأذربيجان، فاقتتلوا فهزم الفرس وأخذ بكير اسفنديار أسيراً. فقال له اسفنديار: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ قال: بل الصلح. قال: امسكني عندك فإنّ أهل أذربيجان إن

---

(١) انظر الفصل الخامس – الفقرة الثالثة.

(٢) وهو شقيق رستم قائد الفرس في معركة القادسية.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢٩.

لم أصالح عليهم أو أجيء إليهم لم يقوموا لك وجلوا إلى الجبال التي حولها [من القبج والروم]. ومن كان على التحصن تحصن إلى يوم ما.

فأمسكه عنده وصارت البلاد إليه إلاّ ما كان من حصن. وقدم عليه سماك بن خرشة ممداً واسفنديار في أساره وقد افتتح ما يليه؛ وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه. وكتب بكير إلى عمر يستأذنه في التقدم فأذن له أن يتقدّم نحو الباب، وأن يستخلف على ما افتتحه. فاستخلف عليه عتبة بن فرقد فأقرّ عتبة سماك بن خرشة على عمل بكير الذي كان افتتحه. وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد. وكان بهرام بن فرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره حتى قَدِم عليه عتبة فاقتتلوا فانهزم بهرام. فلما بلغ خبره اسنفديار وهو في الأسر عند بكير قال: الآن تمّ الصلح وطُفِئت الحرب. فصالحه وأجاب إلى ذلك أهل أذربيجان كلّهم وعادت أذربيجان سلماً وكتب بذلك بكير وعتبة إلى عُمر وبعثا بما خَمّسا. ولما جمع عمر لعتبة عمل بكير كتب لأهل أذربيجان كتاباً بالصلح».

جاء في كتاب الصلح، الذي كتب سنة ثمان عشرة للهجرة، ما يأتي:[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عُتبة بن فرقد، عامل عمر بن الخطّاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان - سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مِلَلها - كلّهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومِللهم وشرائعهم؛ على أن يؤدّوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس على صبيّ ولا امرأة ولا زمن ليس في يديه شيء، ولا متعبّد متخلّ ليس في يديه من الدنيا شيء. لهم ذلك ولمن سكن معهم؛ وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته. ومَن حُشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة. ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك، ومَن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حِرْزه. وكتب جندب، وشهد بكير بن عبدالله الليثي وسماك بن خرشة الأنصاري».

وعين عتبة بن فرقد على القسم الشرقي من أذربيجان الذي فتحه بكير وسماك.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٣٩ - ٥٤٠.

ثانياً – فتح الباب

بعد أذربيجان قرر الخليفة عمر بن الخطاب فتح «الباب»[1] فقام بالترتيبات التالية:[2]

- إعادة أبي موسى الاشعري إلى البصرة.
- تكليف سُراقة بن عمرو «ذي النور» بفتح الباب مع تعبئة جيشه كما يأتي:

* عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي على المقدمة.
* حذيفة بن أُسيد الضغاري على الميمنة.
* بكير بن عبدالله الليثي على الميسرة.
* سلمان بن ربيعة الباهلي لقسمة الغنائم.

- ثمّ أمدّ عمر سراقة بحبيب بن مسلمة من الجزيرة بعد أن استخلف عليها زياد بن حنظلة.[3]

سار سرّاقة نحو الباب بالتعبئة التي أمر بها الخليفة حتى أشرف عليها وأرسل عبد الرحمن بن ربيعة في مقدّمة الجيش.

كتب الطبري واصفاً فتح الباب صلحاً:[4]

«ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على الملك بالباب – والملك بها يومئذ شهربراز، رجل من أهل فارس؛ وكان على ذلك الفرْج، وكان أصله من أهل شهربراز الملك الذي أفسد بني إسرائيل، وأعرى الشام منهم – فكاتبه شهربراز، واستأمنه على أن يأتيَه، ففعل فأتاه، فقال: إنّي بإزاء عدوّ كَلِب وأمم مختلفة، لا يُنسَبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يُعين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول. وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست من القبْج في شيء؛ ولا من الأرمن؛ وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم، وصَغْوي معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجِزْيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما

(١) تقع الباب شمال بلاد فارس على حدود بلاد الترك وهي غنية بثرواتها.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٨٢ – ٩٨٣.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤٠.

(٤) الطبري، المرجع نفسه، ص ٥٤٠.

تحبّون، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم. فقال عبد الرحمن: فوقي رجلٌ قد أظلّك فسرْ إليه، فجوّزه. فسار إلى سُراقة فلقيَه بمثل ذلك، فقال سراقة: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بدّ من الجزاء ممّن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك، وصار سنّة فيمن كان يحارب العدوّ من المشركين، وفيمن لم يكن عنده الجزاء، إلاّ أن يستنفروا فتوضع عنهم جزاء تلك السنة. وكتب سُراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك، فأجازه وحسّنه، وليس لتلك البلاد التي في ساحة تلك الجبال نَبك لم يقُم الأرمن بها إلاّ على أوفاز؛ وإنما هم سكان ممّن حولها ومن الطرّاء استأصلت الغارات نبكها من أهل القرار. وأرز أهل الجبال منهم إلى جبالهم، وجلوا عن قرار أرضهم، فكان لا يقيم بها إلاّ الجنود ومن أعانهم أو تجر إليهم؛ واكتتبوا من سُراقة بن عمرو كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملّتهم ألاّ يضارّوا ولا ينتقَضوا، وعلى أهل أرمينية والأبواب؛ الطرّاء منهم والثُّناء ومَن حولهم. فدخل معهم أن ينفروا لكلّ غارة، وينفذوا لكلّ أمر ناب أو لم يَنُب رآه الوالي صلاحاً؛ على أن توضع الجزاء عمّن أجاب إلى ذلك إلاّ الحَشر، والحَشْر عِوَضٌ من جزائهم. ومن استُغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنُّزل يوماً كاملاً، فإن حُشِروا وضع ذلك عنهم، وإن تركوا أخذوا به. شهد عبد الرحمن بن ربيعة، وسلمان بن ربيعة، وبُكير بن عبدالله. وكتب مَرضِيّ بن مقرّن وشهد».

وأقام سراقة في الباب وقرّر التوسع في فتوح البلدان المجاورة فوجّه بكيراً بن عبدالله إلى موقان، وحبيباً بن مسلمة إلى تفليس، وحذيفة بن أسيد إلى «جبال اللان»، وسلمان بن ربيعة إلى «الوجه الآخر».[1]

وكتب سراقة إلى أمير المؤمنين يعلمه بفتح الباب وبتوجيه القادة المذكورين إلى

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٥٤٠.

المناطق المخصصة لكلّ منهم، فوافق الخليفة على هذه الترتيبات.(١)

ثالثاً – فتح موقان

نقل ابن خلدون خبر إرسال القادة الأربعة من قبل سراقة الذي توفي بعد ذلك فأعطى الخليفة القيادة إلى عبد الرحمن بن ربيعة.

وبعد مدّة، عاد قادة البعوث الثلاثة: حبيب بن مسلمة وحذيفة بن أُسيد وسلمان ابن ربيعة من دون أن يستطيعوا تحقيق الفتوح المطلوبة. أما بكير بن عبدالله فقد تمكّن من إخضاع موقان التي طلب أهلها الصلح.

نقل ابن خلدون خبر فتح موقان وجبال ارمينيا، فكتب:(٢)

«ولما فرغ سراقة من الباب بعث أمراء إلى ما يليه من الجبال المحيطة بأرمينية، فأرسل بكير بن عبدالله إلى موقان، وحبيب ابن مسلمة إلى تفليس، وحذيفة بن اليمان إلى جبال اللات، وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر. وكتب بالخبر إلى عمر فلم يرج تمام ذلك لأنه فرج عظيم. ثمّ بلغه موت سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، فأقرّه عمر على فرج الباب، وأمره بغزو الترك ولم يفتح أحد من أولئك الأمراء إلاّ بكير بن عبدالله فانه فتح موقان، ثمّ تراجعوا على الجزية ديناراً عن كلّ حالم».

رابعاً – غزو الترك

بعد أن أقرّ الخليفة ولاية عبد الرحمن بن ربيعة على بلاد أرمينيا، أراد هذا الأخير متابعة الفتوح بغزو بلاد الترك فسار بجيشه نحوها ومعه شهربراز.

وراح عبد الرحمن يغزو بلاد الترك فهاجم مدينة بلنجر.(٣)

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٨٣.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٨٣ – ٩٨٤.
(٣) بلنجر: مدينة على بحر قزوين بناها كسرى انو شروان.

نقل الطبري خبر غزو بلاد الترك، فكتب:[1]

«قالوا: ولما بلغ عمر موت سُراقة واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة أقرّ عبد الرحمن على فَرْج الباب، وأمره بغزو التُّرك، فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب، فقال له شهربراز: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد بلَنْجر؛ قال: إنّا لنرضى منهم أن يدَعونا من دون الباب. قال: لكنّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم؛ وتالله إنّ معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الرّدم. قال: وماهم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنيّة، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرّمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم من يغلبهم، وحتى يُلفَتوا عن حالهم بمن غيّرهم. فغزا بلَنجر غزاة في زمن عمر لم تئم فيها امرأة، ولم ييتم فيها صبيّ، وبلغ خيله في غزاتها البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بَلَنجر. ثمّ غزا فسلِم، ثمّ غزا غزوات في زمان عثمان، وأصيب عبد الرحمن حين تبدّل أهل الكوفة في إمارة عثمان لاستعماله من كان ارتدّ استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك، وزادهم فساداً أن سادهم من طلب الدنيا.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الغصن بن القاسم، عن رجل، عن سلمان بن ربيعة، قال: لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله بين الترك والخروج عليه، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلاّ ومعه الملائكة تمنعه من الموت. فتحصّنوا منه وهربوا، فرجع بالغُنم والظَّفر، وذلك في إمارة عمر. ثمّ إنه غزاهم غزوات في زمن عثمان، ظفر كما كان يظفر، حتى إذا تبدّل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتدّ فغزاهم بعد ذلك، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض: إنهم لا يموتون، قال: انظروا، وفعلوا فاختفوا لهم في الغياض؛ فرمى رجلٌ منهم رجلاً من المسلمين على غِرّة فقتله، وهرب عنه أصحابه، فخرجوا عليه عند ذلك، فاقتتلوا فاشتدّ قتالهم. ونادى

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤١ - ٥٤٢.

منادٍ من الجوّ: صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنّة! فقاتل عبد الرحمن حتى قتل، وانكشف الناس. وأخذ الرّاية سلمان ابن ربيعة، فقاتل بها، ونادى المنادي من الجوّ: صبراً آل سلمان بن ربيعة! فقال سلمان: أَوَ ترى جزعاً! ثمّ خرج بالناس، وخرج سلمان وأبو هُريرة الدَّوسيّ على جيلان، فقطعوها إلى جُرجان. واجترأ الترك بعدها ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبد الرحمن، فهم يستسقون به حتى الآن».

وهكذا توغل عبد الرحمن في بلاد الترك حتى بلغ مدينة «البيضاء» على بحر قزوين، وتبعد ألفاً ومائة كيلومتر من بلنجر.

خامساً – سقوط إقليم فارس

كان إقليم فارس يشكل نواة المملكة الساسانية التي يقيم فيها بنو ساسان الذين ضموا إلى ملكهم أقاليم الأهواز والعراق والجزيرة وأذربيجان وأرمينيا والري وطبرستان وكرمان وسجستان وخراسان. لذلك كان ملك فارس يلقب بـ«ملك الملوك» و«شاهنشاه».

أ – تنظيم إقليم فارس:

وهنا لا بدّ من التوقف للحظ معلومات عن العدو الفارسي الذي كان يقاتله المسلمون، ولاسيما المعلومات عن نظامه الملكي والإداري والإقطاعي والعسكري.[(١)]

١ – النظام الملكي والملكية المطلقة:

كان عماده الملك الذي يتمتع بصلاحيات مطلقة ولا يقاسمه في سلطاته أو يراقب أعماله أحد. يعيش في جناح خاص ولا يستطيع أحد أن يقترب منه أو يشاهده إلاّ خلال الإحتفالات المهيبة والضخمة. يميز نفسه عن سائر الطبقات بالأحذية القصيرة الحمراء والسراويل الزرقاء وأغطية الرأس الضخمة. ينظم حفلات في بلاطه تتميز بالكثير من الأبهة والعظمة. لقد أخذ

(١) ريحانا، عميد دكتور، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، ١٩٩٦، ص ٩٩ – ١٠٢.

أباطرة بيزنطية عن البلاط الفارسي نظم الحفلات والطرائق الدبلوماسية.

لقب الملك «أوخشترا» أو المحارب مما يدل على قيام نظام الحياة على القوة الحربية وعلى التنشئة والطبقية العسكريتين. ولُقّب بملك الملوك لأنه يسود على ملوك عدّة. وكلّ كلمة تصدر عنه تعني الإعدام أو الحظوة، ويستمدّ سلطته من الآلهة التي يعتبر ممثلها على الأرض.

أحاط الملوك أنفسهم بأبهة وعظمة كبيرتين، فكان الملك يتوجّه إلى الصيد في هودج مزركش تجره عشرة جمال وعليه الثيات الملكية. وتحمل عرشه سبعة جمال مع مائة جمل لاصطحاب الشعراء المنشدين، ويسير في ركابه ١٠ آلاف من الفرسان.

ويجلس الملك على عرشه وسط ألف من الخدم في احتفالات لا نهاية لها، ويلبس الثياب المثقلة بالجواهر وعرشه من الذهب، ويضع تاجاً يبلغ من الثقل حداً لا بدّ معه أن يعلق على مسافة جد صغيرة من رأسه.

وكان على الداخلين إلى مجلسه أن يخرّوا سجوداً ويقبلوا الأرض بين يديه ولا يقفوا إلاّ إذا أمرهم بذلك، ولا يتحدّثوا إلاّ وفي فمهم مناديل خشية أن تعدي أنفاسهم الملك أو تدنسه.

وكان أبناء أمراء الإقطاع وحكام الولايات يعيشون غالباً بالقرب من الملوك ويتلقون العلم مع أمراء الأسرة المالكة في مدارس كبرى متصلة بالبلاط.

وكان ملوك الساسانيين ملوكاً مستنيرين يناصرون الأدب والفلسفة، وأبرزهم في هذا المضمار كسرى أنو شروان الذي أمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية وبتدريسها في جنديسابور. وكتب في عهده الكثير من المؤلفات التاريخية أبرزها «أعمال أردشير» الذي استمدّ منه الفردوسي كتاب الشاهنامة. ولما أقلق جستنيان أثينا فرّ سبعة من أساتذتها إلى فارس فوجدوا في بلاط كسرى المستنير الملجأ الأمين.

٢ - رجال الدين:

ويأتي في الأهمية بعد الملك رجال

الـديـن الـزرادشــتـي الـذيـن وهـبت لـهـم الأراضي والعشور. لقد تأسس نظام الحكم عـلـى أسـاس ديـنـي وعُـيـن كـاهـن أكـبـر ذو سلطان كبير رئيساً لطائفة المجوس الوراثية الـتـي كـانـت تشـرف عـلـى جـمـيـع مـنـاحـي الحياة الذهنية الفارسية لمدة أربعة قرون.

وكان الكهنة يحمون الأهالي من تعسف الجباة واستبداد الحكام.

وكان في كلّ بلدة معبد للنار المقدّسة لا تنطفىء أبداً وترمز إلى النور. وكان الأهالي يستعينون في حربهم ضد الشيطان بكهنة المجوس وبما يعرفونه من الغيب، وبرقاهم وسحرهم ودعواتهم. مقابل هذه الخدمات كـان الـنـاس يـمـدّون الـدولـة والـكـنـيـسـة بمقومات حياتهما، من الزرع إلى التجارة والصـنـاعـة ورعـي الـمـاشـيـة والقضاء على الآفـات وإصـلاح الأراضـي الـبـور وأعـمـال السحرة المختلفة.

٣ - رجال الإقطاع:

قام المجتمع الفارسي على طبقة من رجال الإقطاع كانوا يعيشون في الغالب في ضياعهم مستغلين الأرض ومن عليها من السكان. فقد جندوا الفيالق من مستأجري أرضـهـم لـيـحـاربـوا حـروب الأمـة. وكـانـوا يـتـدرّبـون عـلـى الـحـرب بـمـمـارسـة الـصـيـد بـحـمـاسـة وشـجـاعـة. وكـان رجـال الإقـطـاع يـقـدّمـون ضـبـاط سـلاح الـفـرسـان الـذيـن يـمـلـكـون الجياد والسلاح بنفس الطريقة التي نظمت فيها الجيوش الإقطاعية في أوروبا القرون الوسطى.

ولـم تـبـلـغ الإقـطـاعـيـة الـفـارسـيـة مـا بـلـغـه الرومان في فرض النظام على جنودهم أو في استخدام فنون هندسة الحصار والدفاع، إلاّ أن إدارتها كانت حازمة ومنظمة. والدليل عـلـى ذلك مـا عُـرف عـن غـنـى الـخـزانـة الفارسية بالمال والذهب رغم أن الضرائب فـي الـدولـة الـفـارسـيـة كـانـت أقـل إرهـاقـاً للشعب مما كانت عليه في الإمبراطورية الرومانية. لقد كان في خزائن كسرى ابرويز عـام ٦٢٦م. مـا قـيـمـتـه ٤٦٠ مـلـيـون دولار أمـيـركـي، وكـان دخله السنوي يقدّر بـنـحـو ١٧٠ مـلـيـون دولار، وهـمـا مـبـلـغـان ضـخـمـان نـسـبـة إلـى الـقـوة الشـرائـيـة في الـعـصـور الوسطى.

٤ - **الجيش:**

يقول كسرى أنو شروان، وفق رواية ابن خلدون أنه «لولا الجيش لما كان الملك، ولولا موارد الدولة ما كان الجيش، ولولا الضرائب ما كانت الموارد، ولولا الزراعة ما كانت الضرائب، ولولا الحكومة العادلة ما كانت الزراعة».

ففي رأس القائمة يأتي الجيش بسبب أهميته القصوى في دولة قامت على التوسع والعنف والمفاهيم العسكرية.

والجيش هو العماد الحقيقي لسلطة الملك التي كانت تدوم طالما احتفظت بقدرتها العسكرية. وكان يفرض على كلّ رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى القوات العسكرية كلّما أعلنت الحرب. وصدف في إحدى المرات أن طلب والد لثلاثة أبناء إعفاء أحدهم من الخدمة، فما كان من الملك إلاّ أن أمر بقتلهم جميعهم أمام والدهم. كما أحرق الإبن الخامس لوالد طلب إعفاءه بعد أن أرسل للخدمة أبناءه الأربعة الآخرين.

وكان الجنود يسيرون إلى الحرب وسط دوي الموسيقى العسكرية وهتاف جماهير الشعب ممن تجاوزوا سن التجنيد.

أهم فرق الجيش هو الحرس الملكي ويتألّف من ألفي فارس وألفين من المشاة، وجميعهم من الأشراف المكلفين بحراسة الملك.

وتتألّف القوات الحربية من فرق تجنّد من جميع الأمم التي كانت خاضعة لسلطان الفرس. وكانت كلّ فرقة تتكلّم لغتها وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة. لذلك اختلفت الأسلحة من وحدة إلى أخرى. كما أن هذه الجحافل الجرّارة التي بلغ تعدادها في إحدى الحملات مليون وثمانماية ألف مقاتل لم تشكّل قط وحدة متجانسة. وهنا تكمن نقطة الضعف في الجيش الفارسي، لأن أول بادرة ضعف خلال المعركة قد تتحوّل إلى هزيمة من قبل الجموع الغوغائية التي لا يجمعها سوى السلطة.

هذه الجيوش قادها الملوك الفرس من نصر إلى نصر خلال تاريخهم الطويل الذي امتدّ حتى منتصف القرن السابع ميلادي حين اصطدمت الإمبراطورية الفارسية

بقوات الفتح العربية المظفّرة التي أنهت سيطرتها في الشرق الأدنى.

ب - المعارك في إقليم فارس:

يتألّف إقليم فارس، أو دولة فارس القديمة، من خمسة مناطق هي «أرجان» و«أردشير» و«فساودارابجرد» و«أصطخر» و«سابور».

كلفت جيوش البصرة باحتلال هذه الأقاليم ومطاردة الملك يزدجرد حتى القضاء عليه.

وتنفيذاً لأوامر الخليفة، سار مجاشع بن مسعود إلى «توّج» وهي مدينة ساحلية حيث جرت معركة بينه وبين الفرس انتصر فيها مجاشع بجيش من المسلمين وفتح مدينة توج التي صالحه أهلها على الجزية ودخلوا في ذمة المسلمين.(١)

أما مدينة اصطخر التي تقع على هضبة مرتفعة وفيها بيت نار كبير للمجوس، وهي المدينة التي حاول العلاء بن الحضرمي احتلالها بجيش قدمها بحراً من البحرين، لكنه فشل. هذه المدينة سار إليها عثمان ابن أبي العاص بجيش من البحرين سالكاً طريق «أردشيرخير» الساحلية حتى وصل إلى «جور» حيث اشتبك مع الفرس بمعركة قاسية انتهت بهزيمتهم. وبعد هذه المعركة فتحت أصطخر صلحاً.(٢)

ثمّ نقض حاكم اصطخر واسمه «شهرك» الصلح وأعلن العصيان، فسار عثمان إلى بلاده حيث جرى قتال عنيف قتل فيه شهرك وفرّ الفرس من المدينة التي عاد المسلمون ودخلوها عنوةً.

هرب الفرس من اصطخر إلى سابور، فسار إليها المسلمون وحاصروها وعليه قائد فارسي اسمه «آذربيان» الذي طلب مصالحة المسلمين فتمّ فتح سابور صلحاً.

أما «فساودارابجرد» فقد سار إليها سارية ابن زنيم تنفيذاً لأوامر الخليفة السابقة.(٣) ونصب معسكره في سهل أمامها كان الفرس يتمركزون على مكان أعلى منه

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٩.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٤٠.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٨٢ - ٩٨٣.

حيث نشب القتال بين الجيشين وفوجيء المسلمون خلاله بتزايد أعداد الفرس الذين جاؤوا مدداً لاعدائهم من القرى الشمالية.[1]

أمام تزايد ضغط الفرس لجأ المسلمون إلى مكان مرتفع وراحوا يشنون الهجمات على أعدائهم الذين تفرقت صفوفهم وراحوا يتراجعون باتجاه المدينتين المذكورتين والمسلمون في أعقابهم حتى هزموهم ودخلوا فساو دارابجرد عنوة بعد أن هزموا جيش الفرس الكبير.

بهذه المعركة أنهى المسلمون فتح إقليم فارس التاريخي.

ج - الدروس المستقاة:

١ - تابع الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اعتماد استراتيجية توجيه قادته وتحديد تفاصيل التنفيذ لهم، وذلك بغية تجنّب الأخطاء وتذليل الصعوبات المعترضة. هذا في وقت كانت الفتوحات الإسلامية قد توغلت بعيداً في شمال وشرق المملكة الساسانية، الأمر الذي دفع بملوك أذربيجان والباب وموقان وجبال أرمينيا إلى طلب صلح المسلمين والدخول في ذمتهم.

فالمعنويات العالية وشدّة الحوافز وحماس المقاتلين المسلمين إثر الانتصارات العديدة لهم في بلاد فارس، ساهمت في انتهاء معارك المدن قبل بدئها.

٢ - من جهة أخرى، وبعدما توغلت الجيوش الإسلامية بنجاح داخل أراضي بلاد فارس، تأكّد الخليفة الراشدي الثاني من إمكانات هذه الجيوش وقيمة قادتها الاستراتيجية. وهذا ما دفعه إلى تغيير سياسته تجاه فتوحات شمال وشرق فارس. ففيما كان يفضّل التريث خوفاً من ضياع وتشتت المسلمين في تلك البلاد النائية، راح بعد معركة نهاوند وفتح الري وأصبهان وهمذان، يوافق على جميع اقتراحات قادته حول متابعة التوغل في فارس. وهذا ما مكّن هؤلاء من السيطرة على أرمينيا وبلاد الترك وصولاً إلى شواطىء بحر قزوين.[2]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٥٢.

(٢) انظر الخرائط المرفقة في آخر هذا الكتاب.

ويعجب المراقب من تمكّن الجيوش العربية الإسلامية من التوغل حتى بحر قزوين شمالاً وحتى حدود الصين شرقاً وإخضاع جميع الشعوب القاطنة في تلك المناطق في وقت لم تكن تتوفر لديهم وسائل نقل سريعة. فهذه الجيوش التي سارت من الحجاز إلى الشام والعراق وفارس وأرمينيا وغيرها كانت تضم مقاتلين من فئتين:

- فئة الفرسان الذين ينتقلون على صهوات جيادهم.
- فئة الرجالة أو المشاة الذين كانوا يجتازون المسافات سيراً على الأقدام.

ومما لا شك فيه أن المقاتل العربي كان يتمتع بلياقة بدنية عالية ساهمت طبيعة بلاده الصحراوية في تنميتها.[١] وهذا ما ساهم في تحقيق الفتوحات التي واجهت الجيوش العربية الاسلامية في غالبية معاركها جيوشاً تفوقها عدداً وعتاداً وانتصرت عليها لأسباب سبق وذكرناها في هذه الموسوعة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن صفات البدوي العربي منذ الجاهلية يمكن مراجعة الجزء الأول من هذه الموسوعة.

الفصل السابع

إكمال الفتوحات في بلاد فارس

تابعت الفتوحات في بلاد فارس والتي لم تنتهِ إلا بسقوط الملك يزدجرد.

وكان يزدجرد، ولما علم بسقوط إقليم فارس، فرّ باتجاه «مروالروذ»، وهي آخر مدينة في حدود مملكة فارس، وجعلها مقراً له. أمّا الخليفة عمر بن الخطاب، فقد بات مقتنعاً بأن القضاء على يزدجرد هو الذي يوقف ثورات الفرس وانتفاضات مدن العجم.

لذلك أمر أمير المؤمنين بتجهيز جيش ضخم للتوجه إلى مكان إقامة يزدجرد للقضاء عليه.

أولاً – فتح خراسان

كتب الطبري عن طريق فرار يزدجرد ما يلي:[(١)]

«ذكر مسير يزدجرد إلى خراسان وما كان السبب في ذلك

اختلف أهل السير في سبب ذلك وكيف كان الأمر فيه؛ فأمّا ما ذكره سيف عن أصحابه في ذلك، فإنه فيما كتب به إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى – وهو يومئذ ملك فارس – لما انهزم أهل جَلولاء خرج يريد الرّيّ، وقد

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤٦.

جعل له محمل واحد يُطبق ظهر بعيره، فكان إذا سار نام فيه ولم يعرّس بالقوم. فانتهوا به إلى مخاضة وهو نائم في محمله، فأنبهوه ليُعلم، ولئلا يفزع إذا خاض البعير إن هو استيقظ، فعنّفهم وقال: بئسما صنعتم! والله لو تركتموني لعلمت ما مدّة هذه الأمة، إني رأيت أني ومحمداً تناجينا عند الله، فقال له: أملّكهم مائة سنة، فقال: زدْني، فقال: عشراً ومائة سنة، فقال: زدني، فقال: عشرين ومائة سنة، فقال: زدني، فقال: لك. وأنبهتموني، فلو تركتموني لعلمت ما مدّة هذه الأمة.

فلما انتهى إلى الرّيّ، وعليها آبان جاذويه، وثب عليه فأخذه، فقال: يا آبان جاذويه، تغدر بي! قال: لا، ولكن قد تركت مُلكك، وصار في يد غيرك، فأحببت أن أكتتب على ما كان لي من شيء، وما أردت غير ذلك. وأخذ خاتم يزدجرد ووصل الأدم؛ واكتتب الصّكاك وسجّل السجلات بكلّ ما أعجبه، ثمّ ختم عليها وردّ الخاتم. ثمّ أتى بعد سعداً فردّ عليه كلّ شيء في كتابه. ولما صنع آبان جاذويه بيزدجرد ما صنع خرج يزدجرد من الرّيّ إلى إصبهان، وكره آبان جاذويه، فارّاً منه ولم يأمنه. ثمّ عزم على كرمان، فأتاها والنار معه، فأراد أن يضعها في كَرْمان. ثمّ عزم على خراسان، فأتى مَرْوَ، فنزلها وقد نقل النار، فبنى لها بيتاً واتّخذ بستاناً، وبنى أزجاً فرسخين من مَرو إلى البستان؛ فكان على رأس فرسخين من مَرو. واطمأنّ في نفسه وأمن أن يؤتى؛ وكاتب من مَرَوَ مَن بقي من الأعاجم فيما لم يفتتحه المسلمون، فدانوا له، حتى أثار أهل فارس والهُرْمزان فنكثوا، وثار أهل الجبال والفيرُزان فنكثوا، وصار ذلك داعية إلى إذن عمر للمسلمين في الانسياح، فانساح أهل البصرة وأهل الكوفة حتى أثخنوا في الأرض».

أ – فتح هراة:

عيّن الخليفة الاحنف بن قيس على رأس جيش كبير ووجهه من مدينة البصرة باتجاه خراسان لمحاربة الملك يزدجرد، فسلك الأحنف طريق «مهرجا نقذف» مخترقاً أرض أصبهان حتى وصل إلى «طبسين» حيث استراح المسلمون. بعد ذلك اتجه إلى «هراة»[1] التي حاصرها مدة

(١) هراة مدينة عامرة وحصينة ولها سور مرتفع يدخل إليها عبر أبواب اربعة فيه.

قصيرة ثمّ جرت معركة عنيفة هزم خلالها الفرس وفتح المسلمون المدينة عنوة وغنموا غنائم كثيرة منها.

أكمل ابن الأثير رواية الأحداث. فكتب ما يأتي:[1]

«أذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس، فسار الأحنف إلى خراسان فدخلها من الطّبَسين فافتتح «هراة» عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدري. ثمّ سار نحو مرو الشاهجان فأرسل إلى نيسابور مطرف ابن عبد الله بن الشخير وإلى سرخس الحارث بن حسان، فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مروالروذ حتى نزلها، ونزل الأحنف مرو الشاهشان وكتب يزدجرد - وهو بمرو الروذ - إلى خاقان، وإلى ملك الصغد، وإلى ملك الصين يستمدّهم».

ب - فتح نيسابور وسرخس:

وهكذا أرسل الأحنف عبدالله بن الشخير إلى نيسابور[2] فتمكّن من فتحها بعد قتال قصير وأقام فيها. وأرسل أيضاً الحارث بن حسان السدوسي إلى مدينة سرخس[3] فافتتحها من دون مقاومة ودخلت صلحاً في ذمة المسلمين، وأقام فيها.

في هذا الوقت كان يزدجرد قد استنجد بخاقان ملك الترك وبملك الصفد وملك الصين.[4]

أما الأحنف فقد سار إلى مرو الشاهان بعد فتح نيسابور وسرخس، فدخلها صلحاً.

ج - فتح مرو «الشاهجان»[5] ومرو «الروذ»:

كتب ابن كثير عن غزوة المسلمين إلى خراسان لملاحقة يزدجرد وعن استنجاد

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٤.

(٢) نيسابور هي أكبر مدن إقليم خراسان، وفيها قلعة محصنة ولها أربعة أبواب.

(٣) سرخس مدينة عامرة غنية بالجمال.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٦٨.

(٥) «مرو الشاهجان» قرية بناها الاسكندر، فيها قلعة حصينة وأرضها غزيرة المياه.

هذا الأخير بالملوك المجاورين وعن فتح الاحنف لمرو الروذ ما يلي:[1]

«وذلك أنّ الأحنف بن قيس هو الذي أشار على عمر بأن يتوسع المسلمون بالفتوحات في بلاد العجم، ويضيّقوا على كسرى يزدجرد، فإنّه هو الذي يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين. فأذن عمر بن الخطاب في ذلك عن رأيه، وأمّر الأحنف، وأمره بغزو بلاد خراسان. فركب الأحنف في جيش كثيف إلى خراسان قاصداً حرب يزدجرد. فدخل خراسان فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي، ثمّ سار إلى مرو الشاهجان وفيها يزدجرد، وبعث الأحنف بين يديه مطرف بن عبدالله بن الشخير إلى نيسابور، والحارث بن حسان إلى سرخس. ولما اقترب الأحنف من مرو الشاهجان، ترحّل منها يزدجرد إلى مروالروذ فافتتح الأحنف مرو الشاهجان فنزلها. وكتب يزدجرد حين نزل مروالروذ إلى خاقان ملك الترك يستمدّه وكتب إلى ملك الصغد يستمده، وكتب إلى ملك الصين يستعينه. وقصده الأحنف بن قيس إلى مروالروذ وقد استخلف على مرو الشاهجان حارثة بن النعمان، وقد وفدت إلى الأحنف أمداد من أهل الكوفة مع أربعة أمراء. فلمّا بلغ مسيره إلى يزدجرد ترحّل إلى بلخ، فالتقى معه ببلخ يزدجرد فهزمه الله عزّ وجل وهرب هو ومن بقي معه من جيشه فعبر النهر واستوثق ملك خراسان على يدي الأحنف بن قيس، واستخلف في كلّ بلدة أميراً، ورجع الأحنف فنزل مروالروذ، وكتب إلى عمر بما فتح الله عليه من بلاد خراسان بكمالها. فقال عمر: وددت أنّه كان بيننا وبين خراسان بحر من نار. فقال له علي: ولم يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنّ أهلها سينقضون عهدهم ثلاث مرات فيجتاحون في الثالثة، فقال: يا أمير المؤمنين لأن يكون ذلك بأهلها، أحب إليّ من أن يكون ذلك بالمسلمين. وكتب عمر إلى الأحنف ينهاه عن العبور إلى ما وراء النهر. وقال: احفظ ما بيدك من بلاد خراسان».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٢٣ - ١٢٤.

وهكذا فتح المسلمون «مروالروذ» من دون قتال بعد أن فرّ منها يزدجرد إلى مدينة «بلخ»[1] مع جنده وأخصائه.

أما الاحنف، فبعد أن تلقى نجدات من الكوفة كبر جيشه بها، فاستخلف حاتم بن النعمان الباهلي على مرو الشاهجان وأبقى حامية صغيرة في مروالروذ، وسار بجيشه نحو بلخ على تعبئة.

د - موقعة بلخ:[2]

قسّم الاحنف جيشه إلى أربعة أقسام عليها كلّ من علقمة بن النضر النضري وربعي بن عامر التميمي، وعبدالله بن عقيل الثقفي وابن ام غزال الهمداني.[3] وسار بهم نحو بلخ حيث جرت المواجهة بينه وبين يزدجرد الذي كانت هذه الوقعة أول معركة يحضرها بنفسه ويخسرها بنفسه.

كتب الطبري عن موقعة بلخ وفرار يزدجرد إلى بلاد الترك مجتازاً نهر جيحون، ما يلي:

«وخرج سائراً نحو مروالروذ؛ حتى إذا بلغ ذلك يزدجرد خرج إلى بلخ، ونزل الأحنف مَرْو الروذ؛ وقدم أهل الكوفة؛ فساروا إلى بلخ، وأتبعهم الأحنف، فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ؛ فهزم الله يزدجرد، وتوجّه في أهل فارس إلى النهر فعبر. ولحق الأحنف بأهل الكوفة؛ وقد فتح الله عليهم؛ فبلخ من فتوح أهل الكوفة. وتتابع أهل خراسان ممن شذّ أو تحصّن على الصلح فيما بين نيسابور إلى طُخارستان ممّن كان في مملكة كسرى. وعاد الأحنف إلى مروالروذ، فنزلها واستخلف على طُخارستان رِبعيّ بن عامر.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عيسى بن المغيرة، وعن رجل من بكر بن وائل يدعى الوازع بن زيد بن

---

(١) بلخ هي آخر مدينة من خراسان يفصلها عن بلاد الترك نهر.

(٢) بلخ تقوم على أرض مستوية وبجانبها جبل اسمه «كور» يبعد عنها حوالى ٢٠ كيلومتراً، ولها سور عالٍ، وإلى شمالها نهر يفصل بلاد فارس عن بلاد الترك واسمه «نهر جيحون». انظر خريطة دولة الفرس.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٤.

خُلَيدة، قال: لما بلغ عمر غلبةُ الأحنف على المروَيْن وبلْخ، قال: وهو الأحنف، وهو سيّد أهل المشرق المسمّى بغير اسمه. وكتب عمر إلى الأحنف: أما بعد، فلا تجوزنّ النّهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأيّ شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدمْ لكم النصر؛ وإيّاكم أن تعبروا فتفضّوا».

هـ - هجوم الفرس والترك على بلخ ومروالروذ:

عندما وصلت رسالة يزدجرد إلى ملك الترك راح يجمع قوات كبيرة لمقاتلة المسلمين بعد أن تأثّر من هزيمة يزدجرد وخاف أن يخسر ملكه أي مملكة فارس. أما ملك الصين فلم يرضَ أن يساعد يزدجرد لأسباب نقلها ابن كثير إذ كتب:[١]

«ثمّ بعث إلى ملك الصين يتسغيث به ويستنجده فجعل ملك الصين يسأل الرسول عن صفة هؤلاء القوم الذين قد فتحوا البلاد وقهروا رقاب العباد، فجعل يخبره عن صفتهم، وكيف يركبون الخيل والإبل، وماذا يصنعون؟ وكيف يصلّون. فكتب معه إلى يزدجرد: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذي وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدّوها، ولو جئت لنصرك أزالوني ما داموا على ما وصف لي رسولك فسالمهم وأرض منهم بالمسألة».

في هذه الأثناء انضمّ جيش خاقان ملك الترك إلى قوات يزدجرد وقامت قواتهما بشن هجوم معاكس لاستعادة مدينة بلخ. اجتاز الجيش الموحّد نهر جيحون وهاجم بلخ التي لم تكن حاميتها مؤهّلة لصد هجوم عام لجيش كبير، فانسحبت نحو مروالروذ حيث انضمت إلى جيش الأحنف. وهكذا استعاد خاقان ويزدجرد بلخ وقررا مهاجمة المسلمين في مروالروذ.

عند هذا الحدّ أمر الأحنف بتعبئة جيشه الذي بلغ عديده عشرين ألفاً.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٢٥.

نقل ابن الأثير تفاصيل معركة مروالروذ، فكتب:[1]

«ولما عبر يزدجرد النهر مهزوماً أنجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصغد فرجع يزدجرد وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الروذ، ونزل المشركون عليه بمرو أيضاً. وكان الأحنف لمّا بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر إليه خرج ليلاً يتسمع هل يسمع برأي ينتفع به، فمرّ برجلين ينقيان علفاً وأحدهما يقول لصاحبه: لو أسندنا الأمير إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً، وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتونا من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله.

فرجع، فلما أصبح جمع الناس ورحل بهم إلى سفح الجبل وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحو منهم. وأقبلت الترك ومن معها فنزلت وجعلوا يغادونهم القتال ويراوحونهم وفي الليل يتنحون عنهم، فخرج الأحنف ليلة طليعة لأصحابه حتى إذا كان قريباً من عسكر خاقان وقف، فلما كان وجه الصبح خرج فارس [من] الترك بطوقه فضرب بطبله، ثمّ وقف من العسكر موقفاً يقفه مثله. فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه الأحنف فقتله وأخذ طوق التركي ووقف. فخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه فقتله، وأخذ طوقه ووقف. ثمّ خرج الثالث من الترك ففعل فعل الرجلين فحمل عليه الأحنف فقتله، ثمّ انصرف الأحنف إلى عسكره. وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلّهم يضرب بطبله ثمّ يخرجون بعد خروج الثالث، فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتلين تشاءم خاقان وتطيّر فقال: «قد طال مقامنا وقد أصيب فرساننا مالنا في قتال هؤلاء القوم خير». فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحداً وأتاهم الخبر بانصراف خاقان والترك إلى بلخ».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٥.

و - الدروس المستقاة:

١ - منذ معركة القادسية راح الملك الفارسي يزدجرد يفرّ من أمام الجيوش العربية المظفّرة. فبعد تحقيق الفتوحات الكبرى في شمال وشرق فارس وسقوط اقليم فارس، فرّ باتجاه «مروالروذ» وهي آخر مدينة في حدود مملكة فارس، بدلاً من الصمود في الدفاع عن ملكه والتصدي للجيوش العربية. هذا في وقت كانت جيوش فارس تفوق الجيوش الغازية بعشرات الأضعاف.

أمام هذا الواقع يمكننا التساؤل: كيف يمكن لجيش القتال فيما قائده العام يفرّ أمام عدوه؟ لا سيما وأن الجيوش الفارسية كانت تجمع من الولايات التابعة للمملكة ومن شعوب وإتنيات لا يجمعها مع المملكة الفارسية سوى القوة والسلطة المتحكمة بها.

جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» ما يأتي:(١)

«تتألف القوات الحربية الفارسية من فرق تجند من جميع الأمم التي كانت خاضعة لسلطان الفرس. وكانت كلّ فرقة تتكلم لغتها وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة. لذلك اختلفت الأسلحة من وحدة إلى أخرى. كما أن هذه الجحافل الجرارة التي بلغ تعدادها في إحدى الحملات مليون وثمانمئة ألف مقاتل لم تشكل قط وحدة متجانسة. وهنا تكمن نقطة الضعف في الجيش الفارسي، لأن أول بادرة ضعف خلال المعركة قد تتحول إلى هزيمة من قبل الجموع الغوغائية التي لا يجمعها سوى السلطة».

أن في هذا القول جواب واضح على تساؤلنا الذي سبق وأوردناه. فالعاهل الفارسي لا يثق ثقة كاملة بجيشه، كما أن الجيش المشكل من وحدات متنوعة لا يبذل كلّ جهده للدفاع عن ملك يفرّ هارباً أمام العدو ويكلف جيشه بالدفاع عن ملكه.

وبالفعل، وبوصول يزدجرد إلى الري احتجزه واليها «إبان خاذويه» وقال له: «قد تركت ملكك فصار في يد غيرك...».(٢)

---

(١) العميد سامي ريحانا، مرجع سابق، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٤.

٢ - وهكذا، وأمام عدم التصميم الفارسي على المواجهة، تمكن القائد العربي الأحنف بن قيس من فتح هراة ونيسابور وسرخس ومرو الشاهجان التي دخلها صلحاً، فيما استنجد يزدجرد بملوك الترك والصفد والصين. وقضت الاستراتيجية العربية خلال هذه المرحلة بمتابعة الضغط على العاهل الفارسي لإجباره على الاستسلام.

لقد أحسن القائد المسلم الأحنف في تطبيق استراتيجية استغلال النصر وفي ملاحقة الفرس المنهزمين وفتح مدنهم تباعاً وذلك بهدف عدم إعطائهم الوقت اللازم لإعادة تجميع صفوفهم ومواجهته في معركة مكشوفة. وساهم الخليفة في الجهد العسكري إذ أنه أرسل النجدات إثر النجدات للقائد المظفّر، فأمدّه قبيل معركة مروالروذ بأربعة أمراء من الكوفة.

هذه الاستراتيجية أعطت نتائج إيجابية إذ فتحت مرو الشاهجان ومروالروذ تمهيداً لمعركة بلخ.

من جهة أخرى، أحسن الأحنف بوضع حاميات في المدن المفتتحة كي لا تسقط في أيدي الفرس الذين كانوا يتحضّرون للقيام بهجوم معاكس يعيدون من خلاله ما فقدوه خلال حملة خراسان.

٣ - بعد فتح بلخ وفرار يزدجرد إلى بلاد الترك منع الخليفة جيشه من عبور نهر جيحون وملاحقته إلى تلك البلاد خوفاً من تشتت المسلمين وإطالة خطوط تموينهم، فأحسن بذلك تطبيق مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل.

ز - يزدجرد يستخرج كنوزه من مرو الشاهجان:

فيما كان خاقان يحاصر «مروالروذ» كان يزدجرد يهاجم «مرو الشاهجان» ويحاصر من بداخلها من المسلمون بقيادة حارثة بن النعمان. وسبب اهتمام يزدجرد بمرو الشاهجان يعود إلى أنه كان قد خبّأ كنوزه مدفونة تحت الأرض فيها، ولم يعرف أحد مكانها.

وبالفعل استطاع يزدجرد استخراج كلّ كنوزه، فيما كان جيشه يحاصر المدينة، ومن ثمّ الالتحاق بخاقان في بلخ قبل أن ينسحب الترك منها.

وبعد انسحاب الترك طلب قادة جيش المسلمين من الأحنف بن قيس ملاحقة الترك المتراجعين، لكنه أجاب:[1]

«أقيموا في مكانكم ودعوهم».

وقبل أن يلتحق يزدجرد بخاقان ومعه كلّ كنوزه، سأله مستشاروه وقادة جيشه عمّا يريد فعله بالأموال والكنوز، فأجاب أنه سيهرب بها إلى بلاد الترك، لكن هولاء لم يقبلوا بإرسال الكنوز إلى بلاد الترك، بل رغبوا بمصالحة المسلمين.

نقل ابن الأثير مجرى الأحداث بين يزدجرد وقادته، فكتب:[2]

«فلما جمع يزدجرد خزائنه وكانت كبيرة عظيمة وأراد أن يلحق بخاقان، قال له أهل فارس: أي شيء تريد أن تصنع؟ قال: أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين. قالوا له: [مهلاً] إنّ هذا رأي سوء، إنّك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتَدَع أرضك وقومك. ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء هم أهل دين وإنّ عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم. فأبى عليهم [وأبوا عليه] فقالوا: دَعْ خزائننا نردها إلى بلادنا ومَن يلينا لا تخرجها من بلادنا. فأبى فاعتزلوه وقاتلوه فهزموه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها وانهزم منهم، ولحق بخاقان، وعبر النهر من بلخ إلى فرغانة. وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيماً زمن عمر كلّه إلى أن كفر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه».

ح - الفرس يصالحون المسلمين على كنوز يزدجرد:

أرسل الفرس، بعد فرار يزدجرد إلى بلاد الترك، إلى الاحنف بن قيس كي يأتي إلى بلخ، ففعل حيث صالحوه وسلموه كلّ الخزائن والكنوز. نقل الطبري رواية تسليم

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤٨.
ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٢٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٦.

الكنوز إلى الاحنف ومصالحته الفرس، فكتب:[1]

«ثمّ أقبل أهل فارس بعد رحيل يزدجرد على الأحنف فصالحوه [وعاقدوه] ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة. وسار الأحنف إلى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة في كورها الأربع، ثمّ رجع إلى مروالروذ فنزلها وكتب بفتح خاقان ويزدجرد إلى عمر».

وجمع الأحنف الغنائم والأنفال وأرسل منها الخمس إلى الخليفة وقسم الأخماس الأربعة على المقاتلين فأصاب الفارس ستة آلاف درهم. وبلغ ما أرسل إلى المدينة المنوّرة مع شارة النصر ثلاثين مليون درهم. وقبل أن يعود الأحنف إلى مروالروذ استخلف على بلخ أسيد بن المتشمس.

ثانياً – فتح كرمان[2]

كُلّف سهيل بن عدي الانصاري مع ألفي مقاتل فتح كرمان، وعُزز بعبدالله بن عبدالله ابن عتبان والنسير بن عمرو العجلي.

وبوصوله إلى كرمان قسّم سهيل جنده إلى أقسام ثلاثة:

- القسم الأول بقيادته يتقدّم عن طريق القرى نحو كرمان.
- القسم الثاني بقيادة النسير ويتقدّم الجيش حتى مداخل كرمان.
- القسم الثالث بقيادة عبدالله يتقدّم نحو كرمان من جهة صحراء شير.

استعدّ أهل كرمان لقتال المسلمين مستعينين بأهل قفس[3] فجرت معركة بينهم وبين طليعة الجيش الإسلامي بقيادة النسير قتل فيها مرزبان الفرس مما أدى إلى ضياعهم وهزيمتهم على أيدي العرب المسلمين الذين غنموا غنائم كثيرة.[4]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤٨.

(٢) كرمان مدينة كبيرة تقع إلى الشرق من إقليم فارس وجنوب صحراء خراسان وسجستان وتحيط بها جبال منيعة.

(٣) القفس: ولاية مشهورة فيها مدن وقرى واسعة.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤٢.

ثالثاً – فتح سجستان

يقع إقليم سجستان على حدود فارس الشرقية، ويضم حالياً قسماً من إيران وأفغانستان.

كلف عاصم بن عمرو التميمي بفتح سجستان، وعزّز بعبدالله بن عمير الأشجعي من آل غطفان، فسار بجيشه حتى بلغ أول حدود إقليم سجستان. خرج إليه الفرس في جيش كبير حيث دارت معركة عنيفة هزم فيها الفرس وتراجعوا أمام المسلمين إلى مدينة «زَرَنْج» التي طلب أهلها الصلح، فقبل عاصم بمصالحتهم بعد أن اشترطوا أن تكون مزروعاتهم حمى لهم لا يمسها المسلمون.

كتب الطبري عن فتح سجستان ما يلي:[1]

«قالوا: وقصد عاصم بن عمرو لسجتان، ولحقه عبدالله بن عمير، فاستقبلوهم فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، فهزموهم ثمّ أتبعوهم، حتى حصروهم بزَرنخ، ومخروا أرض سِجستان ما شاؤوا. ثمّ إنهم طلبوا الصلح على زرَنج وما احتازوا من الأَرَضين؛ فأعطوه، وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أنّ فدا فِدَها حِمىً؛ فكان المسلمون إذا خرجوا تناذَروا خِشية أن يصيبوا منها شيئاً، فيُخفِروا. فتمّ أهل سِجستان على الخراج والمسلمون على الإعطاء؛ فكانت سِجسْتان أعظم من خُراسان، وأبعد فروجاً، يقاتلون القُندُهار والترك وأمماً كثيرة. وكانت فيما بين السند إلى نهر بَلْخ بحياله، فلم تزل أعظم البلدين، وأصعب الفَرجين، وأكثرهما عدداً وجُنداً؛ حتى زمان معاوية».

رابعاً – فتح مكران[2]

كُلّف الحكم بن عمرو التغلبي فتح مكران فاتجه نحوها ولحق به كتعزيز شهاب

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء٢ ، ص ٥٥٤.

(٢) مكران منطقة بين أرض السند وبلاد «تيز»، فيها مدن وقرى كبيرة، وفيها نهر عليه قنطرة من قطعة واحدة وصفها الاصطخري.

ابن مخارق بن شهاب وسهيل بن عدي وعبدالله بن عبدالله بن عتبان مع قواتهم التي توحدت بجيش واحد نزل على شاطىء نهر مكران.

أما الجيش المقابل فكان جيش ملك السند «راسل».

وقد التقى الجيشان على شاطىء النهر حيث دارت معركة عنيفة انتهت بانتصار المسلمين الذين طاردوا أعدائهم حتى مدينة مكران.

واستعملت في هذه المعركة الفيلة من قبل أهل مكران.

أخيراً فتح المسلمون مكران عنوة واستولوا فيها على غنائم كثيرة.

كتب ابن خلدون عن فتح مكران ما يأتي:(١)

«وقصد الحكم بن عمرو التغلبيّ من أمراء الانسياح بلد مُكران، ولحق بها شهاب بن المُخارق، وجاءه سهيل بن عدي وعبدالله ابن عبدالله بن عتبان وانتهوا جميعاً إلى دُوين وأهل مكران على شاطئيه. وقد أمدّهم أهل السند بجيش كثيف، ولقيهم المسلمون فهزموهم واثخنوا فيهم بالقتل، واتبعوهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر، ورجعوا إلى مكران فأقاموا بها وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس مع صحّار العَبْدي. وسأله عمر عن البلاد فأثنى عليها شرّاً فقال: والله لا يغزوها جيش لي أبداً. وكتب إلى سُهيل والحكم أن لا يجوز مكران أحد من جنودكما».

خامساً – القتال في بيروذ

تقع بيروذ بين نهر تيري ومنادر في الأهواز. وكانت قد اجتمعت فيها جماعات من الفرس والأكراد يريدون قتال المسلمين. وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر أبا موسى الاشعري بحماية المسلمين في أقصى تخوم البصرة.

وصل أبو موسى إلى بيروز فشن هجوماً على الجموع المجتمعة فيها حيث جرى قتال شديد قتل خلاله المهاجر بن زياد، قبل أن يهزم المشركون.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٩٢.

نقل ابن الأثير الرواية التالية عن قتال بيروذ:[1]

«ولما فصلت الخيول إلى الكور اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الأكراد، وغيرهم، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى أقصى ذمة البصرة حتى لا يؤتى المسلمون من خلفهم وخشي أن يهلك بعض جنوده أو يخلفوا في أعقابهم. فاجتمع الأكراد ببيروذ وأبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ثمّ سار فنزل بهم ببيروذ، فالتقوا في رمضان بين نهر تيري ومناذر، [وقد توافى إليها أهل النجدات من أهل فارس والأكراد ليكيدوا المسلمين، وليصيبوا منهم عورة ولم يشكوا في واحدة من اثنتين]. فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقتل وعزم أبو موسى على الناس فأفطروا، وتقدّم المهاجر فقاتل قتالاً شديداً حتى قُتل. ووهّن الله المشركين حتى تحصنوا في قلّة وذلة، واشتدّ جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فَقْد فرق له أبو موسى فاستخلفه عليهم في جند.

وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان واجتمع بها بالمسلمين الذين يحاصرون جيا. فلما فتحت رجع أبو موسى إلى البصرة وفتح الربيع بن زياد الحارثي بيروذ من نهر تيري وغنم ما معهم».

سادساً – القتال ضد الأكراد

دأب الخليفة عمر بن الخطاب على إرسال الجيوش تباعاً لمحاربة المشركين؛ فكان كلّما اجتمع لديه جيش من المسلمين سمّى قائداً له وبعثه في إحدى المهمات للقتال في سبيل الدين.

نقل الطبري خبر أحد هذه الجيوش الذي كلف الخليفة سلمة بن قيس الاشجعي قيادته، فكتب:[2]

«حدّثني عبدالله بن كثير العبديّ، قال: حدّثنا جعفر بن عون، قال؛ أخبرنا أبو جناب، قال: حدّثنا أبو المحجّل الردينيّ، عن مخلَد البكريّ وعلقمة بن مرْثد، عن

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤٤.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٥٧.

سليمان بن بُرَيدة، أنّ أمير المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمّر عليهم رجلاً من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي فقال: سِرْ باسم الله، قاتِل في سبيل الله من كفربالله؛ فإذا لقيتم عدوّكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة؛ وليس لهم في فيء المسلمين نصيب. وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم. فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج؛ فإن أقرّوا بالخراج فقاتلوا عدوّهم من ورائهم؛ وفرّغوهم لخراجهم؛ ولا تكلّفوهم فوق طاقتهم. فإن أبوا فقاتلوهم؛ فإنّ الله ناصركم عليهم؛ فإن تحصّنوا منكم في حصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله؛ فلا تنزلوهم على حكم الله؛ فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم! وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمّة الله وذمّة رسوله فلا تعطوهم ذمّة الله وذمّة رسوله؛ وأعطوهم ذمم أنفسكم، فإن قاتلوكم فلا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً».

سار الجيش بقيادة سلمة إلى أن التقى مجموعة من الأكراد أبوا أن يعتنقوا الإسلام ديناً أو أن يدفعوا الجزية فقاتلهم وانتصر عليهم.

أكمل ابن الأثير الرواية حول قتال الأكراد، فكتب:(١)

«فساروا حتى لقوا عدواً من الأكراد المشركين فدعوهم إلى الإسلام، أو الجزية فلم يجيبوا فقاتلوهم فهزموهم، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الذريّة فقسمه بينهم. ورأى سلمة جوهراً في سَفَط(٢) فاسترضى عنه المسلمين، وبعث به إلى عمر. فقدم الرسول بالبشارة وبالسفط على عمر فسأله عن أمور الناس وهو يخبره، حتى أخبره بالسفط فغضب غضباً شديداً، وأمر به ففوجىء به في عنقه. ثمّ إنّه قال: إن تفرّق

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ٤٤٦.

(٢) السّفط: وعاء يوضع فيه الطيب جمعها أسفاط.

الناس قبل أن تقدم عليهم، ويقسّمه سلمة فيهم لأسوأنك. فسار حتى قدِم على سلمة فباعه وقسّمه في الناس».

سابعاً – استشهاد الخليفة عمر واستخلاف عثمان بن عفان

بعد هذه الأحداث وفتح الطرق وبلاد فارس توفي الخليفة عمر بن الخطاب بطعنة خنجر من أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. وكان عمر قد أوصى أن تكون الخلافة بعده شورى بين المسلمين على أن يختاروا أحد ستة ممن توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم وهم: عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوّام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.

اختصر ابن كثير رواية مقتل الخليفة عمر، فكتب:[1]

«وملخص ذلك أنّ عمر رضي الله عنه لمّا فرغ من الحجّ سنة ثلاث وعشرين ونزل بالأبطح دعا الله عزّ وجل وشكا إليه أنّه قد كبرت سنه وضعفت قوته، وانتشرت رعيته، وخاف من التقصير. وسأل الله أن يقبضه إليه، وأن يمنّ عليه بالشهادة في بلد النبيّ ﷺ. كما ثبت عنه في الصحيح أنّه كان يقول: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، وموتاً في بلد رسولك، فاستجاب له الله هذا الدعاء، وجمع له بين هذين الأمرين الشهادة في المدينة النبوية وهذا عزيز جداً. ولكنّ الله لطيف بما يشاء تبارك وتعالى، فاتفق له أن ضربه أبو لؤلؤة فيروز المجوسي الأصل، الرومي الدار، وهو قائم يصلّي في المحراب، صلاة الصبح من يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بخنجر ذات طرفين. فضربه ثلاث ضربات، وقيل ست ضربات، إحداهن تحت سرته قطعت السفاق فخر من قامته، واستخلف عبد الرحمن بن عوف. ورجع العلج بخنجره لا يمرّ بأحد إلاّ ضربه، حتى ضرب ثلاثة عشر رجلاً مات منهم ستة، فألقى عليه عبدالله بن عوف برنساً فانتحر نفسه لعنه

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٣ – ١٣٤.

الله. وحمل عمر إلى منزله والدّم يسيل من جرحه - وذلك قبل طلوع الشمس - فجعل يفيق ثمّ يغمى عليه، ثمّ يذكّرونه بالصلاة فيفيق ويقول نعم، ولا حظّ في الإسلام لمن تركها. ثمّ صلّى في الوقت، ثمّ سأل عمّن قتله من هو؟ فقالوا له: هو أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. فقال الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يدي رجل يدعي الإيمان ولم يسجد لله سجدة. ثمّ قال: قبّحه الله، لقد كنّا أمرنا به معروفاً - وكان المغيرة قد ضرب عليه في كلّ يوم درهمين ثمّ سأل من عمر أن يزيد في خراجه فإنه نجّار نقّاش حدّاد فزاد في خراجه إلى ستمائة[١] في كلّ شهر - وقال له: لقد بلغني أنك تحسن أن تعمل رحا تدور بالهواء. فقال أبو لؤلؤة: أما والله لأعملنّ رحا يتحدّث عنها الناس في المشارق والمغارب - وكان هذا يوم الثلاثاء عشية - وطعنه صبيحة الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة. وأوصى عمر أن يكون الأمر شورى بعده في ستة ممن توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وهم عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. ولم يذكر سعيد بن زبيد بن عمرو بن نفيل العدوي فيهم، لكونه من قبيلته، خشية أن يراعى في الإمارة بسببه. وأوصى من يستخلف بعده بالناس خيراً على طبقاتهم ومراتبهم. ومات رضي الله عنه بعد ثلاث، ودفن في يوم الأحد مستهلّ المحرم من سنة أربع وعشرين، بالحجرة النبوية، إلى جانب الصدّيق، عن إذن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك. وفي ذلك اليوم حكم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال الواقدي رحمه الله: حدّثني أبو بكر ابن إسماعيل بن محمد بن سعد عن أبيه قال: طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وأحداً وعشرين يوماً. وبويع لعثمان يوم الاثنين لثلاث مضين من المحرم.

(١) الاصح: مائة وليس ستمائة.

قال: فذكرت ذلك لعثمان الأخنس فقال: ما أراك إلا وهلت[1]. توفي عمر لأربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع لعثمان لليلة بقيت من ذي الحجة فاستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين. وقال أبو معشر: قتل عمر لأربع بقين من ذي الحجة تمام سنة ثلاث وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وبويع عثمان ابن عفان».

ثامناً – ولاة الأقاليم عند وفاة الخليفة عمر بن الخطاب

توافق المؤرّخون على تعداد أسماء ولاة الأقاليم عند وفاة الخليفة عمر، ندرجهم هنا كالآتي:[2]

كان عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في السنة التي قُتل فيها؛ وهي سنة ثلاث وعشرين، على مكّة نافع بن عبد الحارث الخُزاعي، وعلى الطائف سفيان بن عبدالله الثّقفيّ، وعلى صنعاء يعلى بن مُنبّه؛ حليف بني نوفل بن عبد مناف، وعلى الجند عبدالله بن أبي ربيعة، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة؛ وعلى البصرة أبو موسى الأشعريّ، وعلى مصر عمرو بن العاص؛ وعلى حِمص عُمير بن سعد، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان؛ وعلى البحرين وما والاهما عثمان بن أبي العاص الثقفي.

وقيل: كان على قضاء الكوفة شُريح، وعلى البصرة كعب بن سور. واما مصعب ابن عبدالله فإنه ذكر أن مالك بن أنس روى عن ابن شهاب؛ ان أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، لم يكن لهما قاضٍ.

تاسعاً – الدروس والعبر

١ – بعد الانتهاء من فتح بلاد فارس وفرار الملك يزدجرد إلى بلاد الترك، صحّ ما توقعه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من أن القتال مع الفرس ينتهي بزوال ملكهم يزدجرد من الوجود بينهم إذ أنه كان السلطة التي تجمعهم.

(١) وهلت: ضعفت.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٨٧ – ٥٨٨.

وبالفعل، صالح الفرس المسلمين بعد فرار يزدجرد وسلموهم كلّ كنوزه، وفتحت كرمان وسجستان فتحاً يسيراً.

٢ - وبعد انتهاء المعارك ضد الفرس وتوسّع العرب المسلمين إلى آخر حدود فارس شرقاً وشمالاً، اصطدم هؤلاء بشعوب جديدة كانت ما تزال على وثنيتها كالترك والأكراد والصينيين.

ولما كانت خطوط مواصلات وتموين المسلمين قد بعدت، وقبل مقاتلة الأكراد في بيروز، أمر الخليفة قائده أبا موسى الاشعري بالمسير إلى أقصى حدود البصرة لحماية مؤخرات المسلمين من الفرس والأكراد المجتمعين في المنطقة. وهذا ما سمح بتأمين حرية العمل لدى القوات العربية التي انتصرت في القتال.

٣ - دأب الخليفة على تحقيق حشد القوى وتعبئتها وإمداد الجبهات بها. وهذا ما سمح للمسلمين بمتابعة فتوحاتهم شمالاً وشرقاً دون وهن أو كلل بعد أن تمكنوا من تطبيق مبادىء وقواعد الحرب.

٤ - لكن الخليفة الكبير الذي خطّط ونفّذ للعمليات العسكرية التي أدت إلى فتح بلاد الشام والعراق وفارس استشهد بضربة خنجر أحد الغلمان. وهكذا خسر العالم الإسلامي بوفاته قائداً كبيراً ساهمت توجيهاته وملاحظاته لقادته المتوجهين إلى الفتوحات، ليس فقط في ربح المعارك العسكرية، إنما أيضاً في دفع المشركين الذين كانوا يقاتلون المسلمين إلى الدخول في الإسلام أفواجاً أفواج.

وهنا لا بدّ من التذكير بأن الخلفاء الأوائل لم يكونوا يحيطون أنفسهم بالحراس المكلفين بحمايتهم الشخصية. لذلك استشهد منهم ثلاثة قتلاً هم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهم). لذلك نرى أن حماية القائد العام ليست رفاهية أو أبّهة، إنما هي واجب وضرورة، لأن فقدانه يؤدي إلى خسارة تفوق بأهميتها أهمية الحرس المولج بحراسته. وهذا ما اقتنع به الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان فأحاط نفسه بالحرس وانعزل عن الناس في الصلاة وفي إدارة العالم الإسلامي الذي قاده بنجاح نحو التنظيم والرفاهية.

الفصل الثامن

العمليات في فارس بعد استشهاد الخليفة عمر

من المعروف أن القسم الأكبر من الفتوحات الكبرى في الشرق الأدنى قد تمّ تنفيذه في عهد الخليفتين الراشديين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وخاصة في بلاد الشام والعراق وفارس. كما أن زعزعة امبراطوريتي الروم والفرس جرى في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

ومن دراسة الكتب التي كان يرسلها عمر بن الخطاب إلى قادته، قبيل إرسال الجيوش إلى الفتح، يتبين مدى دقّته في تعيين قادة هذه الجيوش وتحديد طرق انتقالها وتسمية الذين يتولون طليعة كلّ جيش ومجنبتيه وقلبه وساقته. كما انه كان يحدّد للقادة طرق التصرّف تجاه المقاتلين الأعداء وتجاه الأشخاص المسالمين من النساء والأولاد. وكان تواصله الدائم مع جيوش المسلمين قبل المعركة وأثناءها وبعدها يجعلنا نعتقد أن وفاته كانت خسارة للعالم الاسلامي يومذاك.

إنما، ورغم هذه الخسارة الفادحة، فإننا نستطيع التأكيد أن الآلة العسكرية الاسلامية كانت قد أصبحت ثابتة ومتينة ولها من القواعد والمبادىء ما يجعلها تتابع مهمتها في نشر الدين الإسلامي في أنحاء الشرق الأدنى وما جاوره من دون أن تتأثر كثيراً بالتغييرات على صعيد القمة.

لقد تتابعت الفتوحات الاسلامية في زمن عثمان بن عفان رغم كبر سنه وحبه للسلام وتفضيله لأسرته على باقي المسلمين. فرغم أن علي بن أبي طالب كان أبرز الصحابة الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب لاختيار أحدهم

لخلافته، فان المقترعين الذين ملّوا حكم عمر ومثاليته لم يكونوا على استعداد لقبول رجل يحكمهم بمثالية أشدّ وأرفع. لذلك اتجه الناس، والأعيان خاصة، إلى مبايعة عثمان.

ونجم عن اختيار عثمان نتائج خطيرة كونه لم يتمكّن من تحمّل أعباء الدولة ومواجهة مشكلاتها مثلما كان يفعل عمر بن الخطاب. لذلك حصلت الفتنة في زمنه مما أدّى إلى مقتله السنة ٣٥ للهجرة فتبدّل مجرى التاريخ الإسلامي بكامله.

كتب جرجي زيدان عن وضع بني أمية في عهد عثمان بن عفان:[١]

«وكان بنو أميّة أوفر بطون قريش عدداً وقوّة، لكن أكثرهم لم يدخلوا في الإسلام إلاّ بعد فتح مكّة وبعد أن أسلم أبو سفيان زعيمهم. فلم يكن لهم جهاد في الغزوات التي قامت عليها دعائم الدولة الإسلامية. فلما تولّى أبو بكر لم يولهم الأعمال، إلاّ قليلاً منهم، وربّما كان السبب في ذلك أنه لم يكن يثق بصدق إسلامهم لحداثة عهدهم فيه، أو لأنهم أسلموا مضطرّين، فطالبوه بزيادة نصيبهم في الولايات فقال لهم: «أدركوا إخوانكم في الجهاد». وأنفذهم لحروب الردّة، ثمّ بعثهم عمر لحروب الشام، وهم مع ذلك يرون أنهم أولى بطون قريش بالسلطة، لأنهم أعزّ من بني هاشم جانباً وأكثر عدداً، وكانت القيادة في الحروب قبل الإسلام إليهم، وزاد نفوذهم بعد موت أبي طالب عمّ النبيّ. وكانت بين الهاشميين والأمويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية.

فلمّا تولّى عثمان بن عفان اعتزّوا به، وكان رجلاً صالحاً لكنه كان يؤثر أقرباءه فجعل يوليهم الأعمال في الأمصار ويعهد إليهم بمصالح الدولة، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الأعمال إليهم من قبل. وحدثت أسباب أخرى يطول شرحها آلت إلى نقمة أهل الأمصار على عثمان».

وفي بداية عهده، عزل الخليفة عثمان المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاّها إلى سعد ابن أبي وقاص، كما بعث عبدالله بن عامر إلى كابل وكلفه بولاية سجستان.[٢] ثمّ عاد

(١) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة، دار نوبليس، بيروت، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤، جزء ٣١، ص ٨٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٩٠.

عثمان وعزل خلال السنة نفسها (السنة ٢٤ هجرية) سعداً عن ولاية الكوفة واستعمل عليها الوليد بن عتبة بن أبي معيط.[١]

أما سبب عزل عثمان لسعد فقد رواه الطبري كما يلي:[٢]

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن الشعبيّ، قال: كان أوّل ما نُزع به بين أهل الكوفة - وهو أوّل مصرٍ نزغ الشيطان بينهم في الإسلام - أنّ سعد بن أبي وقاص استقرض من عبدالله ابن مسعود من بيت المال مالاً، فأقرضه. فلمّا تقاضاه لم يتيسّر عليه، فارتفع بينهما الكلام حتى استعان عبدالله بأناس من الناس على استخراج المال، واستعان سعد بأناس من الناس على استنظاره، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً، يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبدالله.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة، قالا: لما بلغ عثمان الذي كان بين عبدالله وسعد فيما كان، غضب عليهما وهمّ بهما، ثمّ ترك ذلك، وعزل سعداً، وأخذ ما عليه، وأقرّ عبدالله، وتقدّم إليه. وأمّر مكان سعد الوليد بن عُقبة - وكان على عرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب - فقدم الوليد في السنة الثانية من إمارة عثمان، وقد كان سعد عمل عليها سنة وبعض أخرى، فقدم الكوفة، وكان أحبّ الناس في الناس وأرفقهم بهم؛ فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب».

أولاً - غزوة اذربيجان وارمينيا

وفي السنة الخامسة والعشرين للهجرة نقض أهل أذربيجان الصلح مع المسلمين فغزاهم والي الكوفة الوليد بن عقبة في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل وعلى مقدّمته سلمان بن ربيعة الباهلي.[٣] كما أرسل سلمان في اثني عشر ألف مقاتل إلى أرمينيا حيث انتصر على أهلها وعاد بالغنائم والسبايا.

(١)ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٧٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٩٥ - ٥٩٦.

(٣) ذكر ابن الأثير أنّ قائد المقدمة كان عبدالله بن شبيل الاحمسي، فيما أكد ابن خلدون رواية الطبري.

وقد صالح الوليد أهل اذربيجان على ثمانمائة ألف درهم، فيما أغار قائده على أهل موقان والبَبر الطيلسان فأصاب من أموالهم وسبى من سبيهم الكثير.

كتب ابن الأثير عن غزوة اذربيجان وارمينيا ما يأتي:(١)

«لما استعمل عثمان الوليد على الكوفة، عزل عتبة بن فرقد عن اذربيجان، فنقضوا. فغزاهم الوليد سنة خمس وعشرين، وعلى مقدمته عبدالله بن شبيل الاحمسي، فأغار على أهل موقان والبَبر والطيلسان ففتح، وغنم وسبى. فطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة وهو ثمانمائة ألف درهم وقبض المال. ثمّ بث سراياه، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً فسار في أرمينية يقتل ويسبي ويغنم، ثمّ انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد، فعاد الوليد وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل».

ثانياً – تعزيز جيش الشام لمحاربة الروم

وفي السنة الرابعة والعشرين للهجرة هاجم الروم المسلمين في بلاد الشام باعداد كبيرة، فطلب والي الشام معاوية بن أبي سفيان المدد من الخليفة عثمان الذي كتب إلى والي الكوفة الوليد بن عقبة كتاباً جاء فيه:(٢)

«أمّا بعد؛ فإنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أنّ الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة؛ فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي؛ والسلام».

نقل ابن كثير رواية تعزيز جيش الشام، فكتب:(٣)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٧٧ – ٤٧٨.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٩٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٥ – ١٤٦.

«قال ابن جرير: وفي هذه السنة جاشت الروم حتى خاف أهل الشام وبعثوا إلى عثمان رضي الله عنه يستمدّونه فكتب إلى الوليد بن عقبة: أن إذا جاءك كتابي هذا فابعث رجلاً أميناً كريماً شجاعاً في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إلى إخوانكم بالشام. فقام الوليد بن عقبة في الناس خطيباً حين وصل إليه كتاب عثمان فأخبرهم بما أمره به أمير المؤمنين وندب الناس وحثهم على الجهاد ومعاونة معاوية وأهل الشام. وأمّر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام فانتدب في ثلاثة أيام ثمانية آلاف فبعثهم إلى الشام وعلى جند المسلمين حبيب بن مسلم الفهري. فلمّا اجتمع الجيشان شنّوا الغارات على بلاد الروم فغنموا وسبوا شيئاً كثيراً وفتحوا حصوناً كثيرة ولله الحمد.

وزعم الواقدي أنّ الذي أمدّ أهل الشام بسلمان بن ربيعة إنّما هو سعيد بن العاص عن كتاب عثمان رضي الله عنه فبعث سعيد ابن العاص سلمان بن ربيعة بستة آلاف فارس حتى انتهى إلى حبيب بن مسلمة وقد أقبل إليه الموريان الرومي في ثمانين ألفاً من الروم والترك. وكان حبيب بن مسلمة شجاعاً شهماً فعزم على أن يبيت جيش الروم فسمعته امرأته يقول للأمراء ذلك فقالت له: فأين موعدي معك - تعني أين أجتمع بك غداً - فقال لها: موعدك سرادق الموريان أو الجنة، ثمّ نهض إليهم في ذلك الليل بمن معه من المسلمين فقتل من أشرف له. وسبقته امرأته إلى سرادق الموريان فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق. وقد مات عنها حبيب بن مسلمة بعد ذلك، فخلف عليها بعده الضحاك بن قيس الفهري، فهي أم ولده»

ثالثاً – انتفاضة أهل فارس

وفي السنة التاسعة والعشرين للهجرة نكث أهل فارس عهدهم مع المسلمين وثاروا على عبيدالله بن معمر. والتقى جيشهم بجيشه على باب اصطخر حيث هُزم المسلمون وقتل عبيدالله وجمع كبير من المسلمين معه.

بلغ الخبر عبدالله بن عامر والي البصرة فقرر الثأر لعبيدالله وإعادة أهل بلاد فارس

إلى الطاعة. فاستنفر أهل البصرة وسار نحو اصطخر، وعلى ميمنته أبو برزة الأسلمي، وعلى ميسرته معقل بن يسار، وعلى الفرسان عمران بن الحصين.[1]

كتب ابن الأثير عن قتال اصطخر وإعادة فتحها وفتح «جور» و«دارابجرد»:[2]

«اشتدّ القتال فانهزم الفرس، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وفتحت إصطخر عنوة. وأتى (والي البصرة عبدالله بن عامر) دارابجرد وقد غدر أهلها ففتحها، وسار إلى مدينة جور وهي اردشيرخره فانتقضت إصطخر فلم يرجع وتمم السير إلى جور وحاصروها وكان هرم بن حيان محاصراً لها. وكان المسلمون يحاصرونها وينصرفون عنها فيأتون إصطخر ويغزون نواحي كانت تنتقض عليهم، فلما نزل ابن عامر عليها فتحها.

وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام يصلي ذات ليلة وإلى جانبه جراب له فيه خبز ولحم فجاء كلب فجرّه وعدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفيّ. فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة. فلما فرغ منها ابن عامر عاد إلى إصطخر ففتحها عنوة بعد أن حاصرها واشتدّ القتال عليها؛ ورميت بالمجانيق قتل بها خلقاً كثيراً من الأعاجم وأفنى أكثر أهل البيوتات، ووجوه الأساورة وكانوا قد لجأوا إليها».

رابعاً – تعيين ولاة جدد على فارس

بعد انتفاضة أهل فارس قام الخليفة عثمان بن عفان بإبدال الولاة على بلدان ومدن تلك المنطقة.

كتب ابن الأثير عن هذه التغييرات ما يلي:[3]

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٠٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٩٢.

(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٩٣.

«وقيل: إن أهل إصطخر لما نكثوا عاد إليها ابن عامر قبل وصوله إلى جور فملكها عنوة. وعاد إلى جور، فأتى دار أبجرد فملكها وكانت منتقضة أيضاً، ووطيء أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل. وكتب إلى عثمان بالخبر فكتب إليه أن يستعمل على بلاد فارس هرم بن حيان اليشكريّ، وهرم بن حيان العبدي، والخِرِّيت بن راشد، والمنجاب بن راشد، والترجمان الهجيمي. وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الأحنف على المروَين، وحبيب بن قرة اليربوعي على بلخ [وكانت مما افتتح أهل الكوفة]، وخالد بن عبدالله بن زهير على هراة، وأُمير ابن أحمر على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور، وبه تحرّج عبدالله ابن خازم وهو ابن عمه. ثمّ جمعها عثمان قبل موته لقيس، واستعمل أُمَير بن أحمر على سجستان، ثمّ جعل عليها عبد الرحمن بن سمرة وهو من آل حبيب بن عبد شمس فمات عثمان وهو عليها. ومات وعمران على مكران، وعمير بن عثمان بن سعد على فارس، وابن كندير القشيري على كرمان. ثمّ أوفد قيس بن هبيرة عبدالله بن خازم إلى ابن عامر في زمن عثمان وكان ابن عامر يكرمه. فقال لابن عامر: اكتب لي على خراسان عهداً إن خرج عنها قيس [بن هيبرة]، ففعل فرجع إلى خراسان فلما قتل عثمان [وبلغ الناس الخبر] وجاش العدو [لذلك] قال ابن خازم لقيس: الرأي أن تخلفني وتمضي حتى تنظر فيما ينظرون فيه. ففعل فأخرج ابن خازم بعده عهداً بخلافته وثبت على خراسان إلى أن قام علي بن أبي طالب، وغضب قيس من صنيع ابن خازم».

أما في الكوفة، فقد عزل الخليفة واليها الوليد بن عقبة في السنة الثلاثين للهجرة وعين عليها سعيداً بن العاص.(١)

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٠١٦.

خامساً – غزو سعيد بن العاص طبرستان(١)

من المعروف أن طبرستان لم يغزها أحد من القادة العرب حتى عهد الخليفة عثمان ابن عفان. ونقل الطبري أن صاحبها (اصبهبذها) كان قد صالح سويد بن مقرن على ألاّ يغزوها، وذلك على مال بذله له.(٢)

كتب ابن الأثير واصفاً غزو طبرستان:(٣)

«في هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان فإنها لم يغزها أحد إلى هذه السنة. وقد تقدّم في أيام عمر الخلاف في ذلك، وأن أصبهبذها صالح سويد بن مقرن أيام عمر على مال بذله. وأما على هذا القول فإنّ سعيداً غزاها من الكوفة سنة ثلاثين ومعه الحسن، والحسين، وابن عباس، وابن عمر ابن الخطاب، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وحذيفة بن اليمان، وابن الزبير، وناس من أصحاب النبي ﷺ. وخرج ابن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيداً ونزل نيسابور، ونزل سعيد قُومِس(٤) وهي صلح صالحهم حذيفة بعد نهاوند فأتى جُرْجان فصالحوه على مائتي ألف. ثمّ أتى طُمَيْسة وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان [وهي مدينة على ساحل] البحر، فقاتله أهلها، فصلّى صلاة الخوف أعلمه حذيفة كيفيتها وهم يقتتلون. وضرب سعيد يومئذ رجلاً بالسيف على حبل عاتقة فخرج السيف من تحت مرفقه، وحاصرهم فسألوا الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً

---

(١) كتب ياقوت الحمدي في معجم البلدان عن طبرستان ما يلي:

«كانت بلاد طبرستان في الحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها، وكانت ملوك الفرس يولونها رجلاً ويسمونه «الأصبهبذ». فإذا عقدوا له عليها لم يعزلوه عنها حتى يموت، فإذا مات أقاموا مكانه ولده إن كان له ولد وإلاّ وجهوا بأصبهبذ آخر. فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام وفتحت المدن المتصلة بطبرستان، وكان صاحب طبرستان يصالح على الشيء اليسير فيُقبل منه لصعوبة المسلك. فلم يزل الأمر على ذلك حتى ولّى عثمان بن عفان رضي الله عنه سعيد بن العاص الكوفة...».

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٠٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦ – ٧.

(٤) قومس: منطقة واسعة في أسفل جبل طبرستان فيها مدن ومزارع – عاصمتها دامغان بين الري ونيسابور.

واحداً. ففتحوا الحصن فقتلوا أجمعين إلا رجلاً واحداً ففتحوا الحصن وحوى ما في الحصن».

وصالح سعيد أهل جرجان وكانوا يجبون منها مائة ألف درهم، وأحياناً مائتي ألف وأحياناً ثلاثمائة ألف. ثمّ أن أهل جرجان امتنعوا على دفع الجزية فانقطع طريق خراسان من ناحية قومس، وكانت هذه الطريق من فارس إلى خراسان تمرّ بكرمان، لكن قتيبة بن مسلم حوّلها إلى قومس عندما ولّي خراسان.

وبقي الوضع كذلك إلى أن قام يزيد بن المهلب وصالح أهل جرجان على صلح سعيد.(١)

سادساً – نسخ القرآن

نقل ابن الأثير خبر نسخ الآيات القرآنية في زمن عثمان بن عفان، نوردها كما جاء بها ابن الأثير بحذافيرها نظراً لأهميتها:(٢)

«وفيها(٣) صُرِف حذيفة عن غزو الري إلى غزو الباب مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة، وخرج معه سعيد بن العاص فبلغ معه أذربيجان، وكانوا يجعلون الناس رداً فأقام حتى عاد حذيفة ثمّ رجعا. فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثمّ لا يقومون عليه أبداً. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حِمص يزعمون أنّ قراءتهم خيرٌ من قراءة غيرهم وأنّهم أخذوا القرآن عن المقداد. ورأيت أهل دمشق يقولون: إنّ قراءتهم خيرٌ من قراءة غيرهم. ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على أبي موسى ويسمون مصحفه «لُباب القلوب».

فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذّرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٠٨.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٨ – ٩.
(٣) السنة ٣٠هـ.

وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر؟ ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم أعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ. وقال حذيفة: والله لئِن عشتُ لآتين أمير المؤمنين، ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك. فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرّق الناس وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى وقال: «أنا النذير العريان، فأدركوا الأمة».

فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها. وكانت هذه الصحف هي التي كُتبت في أيام أبي بكر، فإنّ القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر: إنّ القتل قد كثر واستحرّ بقُرّاء القرآن يوم اليمامة وإنّي أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر ثمّ عند عمر. فلما توفي عمر أخذتها حفصة فكانت عندها، فأرسل عثمان إليها أخذها منها وأمر زيد بن ثابت، وعبدالله ابن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنّما نزل بلسانهم.

ففعلوا، فلما نسخوا الصحف ردّها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف، وحرق ما سِوى ذلك، وأمر أن يعتمدوا عليها ويَدَعوا ما سِوى ذلك».

سابعاً – مقتل ملك الفرس يزدجرد

لازم سوء الطالع الملك يزدجرد منذ توليه الحكم في فارس، إذ راحت مدن وأقاليم بلاده تدخل الواحدة تلو الأخرى في ذمة المسلمين أو في دار حربهم.

ومنذ توليته الحكم درج يزدجرد على الهرب في الديار الفارسية أمام الفتوحات الإسلامية التي راحت تلاحقه وتُنزل الهزائم المتتالية بجنده، من القادسية إلى المدائن إلى مرو وسجستان وخراسان وغيرها.

واستقرّ يزدجرد في مرو في إقليم سجستان، لكنه اضطر للهرب أمام الفتح الاسلامي إلى بلاد الترك وطلب النجدة من ملوك الترك والصين، لكن أحداً منهم لم يمدّ له يد العون.

وبقي يزدجرد في بلاد الترك حتى العام الواحد والثلاثين من الهجرة، أي حين انتفض أهل خراسان على المسلمين وثاروا على حكمهم، فعاد إلى بلاده وقبع في مرو.

وقد سبق وذكرنا رواية عن إخراجه كنوزه من مرو الروذ وكيف صادرها المسلمون لصالح الخزينة الاسلامية.

نقل المؤرّخون العرب خبر مقتل يزدجرد،[١] ننقله كما رواه ابن خلدون، كون كلّ الروايات متشابهة. كتب ابن خلدون عن مقتل يزدجرد:[٢]

«لما خرج ابن عامر من البصرة إلى فارس وافتتحها هرب يزدجُرد من جور وهي أردشير خِره في سنة ثلاثين. فبعث ابن عامر في أثره مُجاشع بن مسعود، وقيل هَرِم ابن حَيّان اليشكُرِيّ، وقيل العَنَسِيّ فاتبعه إلى كرمان، فهرب إلى خراسان. وهلك الجند في طريقهم بالثلج، فلم يسلم إلاّ مجاشع ورجل معه، وكان مهلكهم على خمسة فراسخ من السَيْرَجان. ولحق يزدجرد بمرو ومعه خرّزاذ أخو رستم، فرجع عنه إلى العراق ووصّى به ما هو به مرزبان مرو، فسأله في المال فمنعه وخافه على نفسه وعلى مرو. واستجاش بالترك فبيّتوه وقتل أصحابه، وهرب يزدجرد ماشياً إلى شطّ المرغاب[٣]، وآوى إلى بيت رجل ينقل الأرحاء، فلما نام قتله ورماه في النهر، وقيل إنما بيّته أهل مرو. ولما جاءوا إلى بيت الرجل أخذوه وضربوه فأقرّ بقتله فقتلوه وأهله، واستخرجوا يزدجرد من النهر، وحملوه في تابوت إلى اصطخر، فدفن في ناوس هنالك.

وقيل إن يزدجرد هرب من وقعة نهاوند إلى أرض أصبهان، واستأذن عليه بعض رؤسائها وحُجِب فضرب البوّاب وشجّه،

(١) الطبري والبلاذري وابن خلدون وابن الأثير وابن كثير وآخرون.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٢١ - ١٠٢٤.

(٣) المرغاب: نهر.

فرحل عن أصبهان إلى الريّ. وجاء صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده فلم يجبه، ومضى من فوره ذلك إلى سجستان ثمّ إلى مرو في ألف فارس. وقيل بل أقام بفارس أربع سنين ثمّ بكرمان سنتين، وطلبه دهقانها في شيء فمنعه فطرده عن بلاده. وأقام بسجستان خمس سنين، ثمّ نزل مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين وفرخزاذ، وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخَزار وكابل.

وكان دهقان مرو قد منعه الدخول خوفاً من مكروه، ووكل ابنه بحفظ الأبواب، فعمد يزدجرد يوماً إلى مرو ليدخلها، فمنعه ابن الدهقان وأظهر عصيان أبيه في ذلك. وقيل بل أراد يزدجرد أن يجعل ابن أخيه دهقاناً عليها فعمل في هلاكه. وكتب إلى نيزك طُرخان يستقدمه لقتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه، وأن يعطيه في اقتناعه كلّ يوم ألف درهم. فكتب نيزك إلى يزدجرد يعده المساعدة على العرب، وأنه يقدم عليه فيلقاه منفرداً عن العسكر وعن فرخزاد، فأجابه إلى ذلك بعد أن امتنع فرخزاد واتهمه يزدجرد في امتناعه، فتركه لشأنه بعد أن أخذ خطّه برضاه بذلك.

وسار إلى نيزك فاستقبله بأشياء وجاء به إلى معسكره ثمّ سأله أن يزوّجه ابنته، فأنف يزدجرد من ذلك وسبّه. فعلا رأسه بالمقرعة، فركض منهزماً وقتل أصحابه، وانتهى إلى بيت طحّان فمكث فيه ثلاثاً لم يُطْعَم. ثمّ عُرِض عليه الطعام فقال لا أُطعَم إلاّ بالزَمزَمة فسأل من زمزم له حتى أكل، ووشى المزمزم بأمره، إلى بعض الأساورة.[1] فبعث إلى الطحّان بخنقه وإلقائه في النهر، فأبى من ذلك وجحده، فدلّ عليه ملبسه وعرف المسك فيه فأخذوا ما عليه وخنقوه وألقوه في الماء، فجعله أسقف مرو في تابوت ودفنه.

وقيل بل سار يزدجرد من كرمان قبل وصول العرب إليها إلى مرو في أربعة آلاف على الطبسَين وقهستان، ولقيه قبل مرو قائدان من الفرس متعاديين، فسعى أحدهما في الآخر ووافقه يزدجرد في قتله. ونمى الخبر إليه فبيت يزدجرد وعدوّه، فهرب إلى رحى على فرسخين من مرو،

(١) الاساورة أو المرازبة.

وطلب منه الطحان شيئاً فأعطاه منطقته. فقال إنما أحتاج إلى أربعة دراهم، فقال: ليست معي ثمّ نام، فقتله الطحّان وألقى شلوه في الماء. وبلغ خبر قتله إلى المطران بمرو، فجمع النصارى وعظم عليهم من حقوق سلفه، فدفنوه وبنوا له ناووساً، وأقاموا له مأتماً بعد عشرين سنة من ملكه، ستة عشر في محاربة العرب. وانقرض ملك الساسانية بموته».

وكان الملك يزدجرد أمضى عشرين سنة منها أربع سنين في سلام، وست عشرة سنة في محاربة العرب المسلمين، فكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك. وانتقل حكم فارس بعده إلى العرب المسلمين وانتهى حكم آل ساسان لفارس التي سادها الإسلام إلى يومنا هذا.

ثامناً – مسير عبدالله بن عامر إلى خراسان وفتحها والمعارك التي خاضها

في السنة الحادية والثلاثين عاد عبدالله ابن عامر وافتتح خراسان مجدداً. والسبب أنه لما استشهد الخليفة عمر بن الخطاب نقض أهل خراسان الصلح وغدروا بالمسلمين.

ذكر ابن الأثير خبر إعادة فتح خراسان ومدنها، فكتب:[1]

«لما قُتل عمر بن الخطاب نقض أهل خراسان وغدروا. فلما افتتح ابن عامر فارس قام إليه حبيب بن أوس التميمي فقال له: أيها الأمير إن الأرض بين يديك ولم يفتح منها إلا القليل فسِر فإنّ الله ناصرك.

قال: أو لم نؤمر بالمسير. وكره أن يظهر أنه قبل رأيه.

وقيل: إن ابن عامر لما فتح فارس عاد إلى البصرة واستخلف على إصطخر شريك ابن الأعور الحارثي فبنى شريك مسجد إصطخر. فلما دخل البصرة أتاه الأحنف بن قيس – وقيل: غيره فقال له: إنّ عدوك منك هارب، ولك هائب، والبلاد واسعة فسِر فإنّ الله ناصرك، ومعز دينه – فتجهّز وسار، واستخلف على البصرة زياداً، وسار إلى كرمان فاستعمل عليها مجاشع بن مسعود

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٨ – ٢٠.

السلمي وله صحبة وأمره بمحاربة أهلها وكانوا قد نكثوا أيضاً. واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحرثي وكانوا أيضاً قد غدروا ونقضوا الصلح. وسار ابن عامر إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف ابن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان فصالحه أهلهما. وسار إلى قهستان فلقيه أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها على ستمائة ألف درهم. وقيل: كان المتوجّه إلى قهستان أُمَير بن أحمر اليشكري، وهي بلاد بكر بن وائل. وبعث ابن عامر سرية إلى رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخرز من أعمال نيسابور أيضاً، وفتح جُوَين من أعمال نيسابور أيضاً.

ووجّه ابن عامر الأسود بن كلثوم العدوي من عدي الرباب وكان ناسكاً إلى بَيْهَق[1] من أعمالها أيضاً فقصد قصبته. ودخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيه، ودخلت معه طائفة من المسلمين فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الأسود حتى قتل هو وطائفة ممن معه. وقام بأمر الناس بعده أخوه أدهم بن كلثوم فظفر، وفتح بيهق. وكان الأسود يدعو الله أن يحشره من بطون السباع والطير فلم يوارِه أخوه. ودفن من استشهد من أصحابه، وفتح ابن عامر بُشْت[2] من نيسابور.

وافتتح خَواف، واسفراين، وارغيان، ثمّ قصد نيسابور بعدما استولى على أعمالها، وافتتحها فحصر أهلها أشهراً. وكان على كلّ ربع منها مرزبان للفرس يحفظه، فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الأمان على أن يدخل المسلمين المدينة فأجيب إلى ذلك، فأدخلهم ليلاً ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها الأكبر في حصنها، ومعه جماعة وطلب الأمان، والصلح على جميع نيسابور. فصالحه على ألف ألف درهم، وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمي.

---

(١) بَيْهَق: ناحية كبيرة، وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور.

(٢) بُشْت: بلد بنواحي نيسابور.

وسيّر جيشاً إلى نسا وأبيَوْرد[1] فافتتحوها صلحاً، وسيّر سرية أخرى إلى سرخس[2] مع عبدالله بن خازم السلمي فقاتلوا أهلها ثمّ طلبوا الأمان والصلح على أمان مائة رجل فأجيبوا إلى ذلك فصالحهم مرزبانها على ذلك، وسمّى مائة رجل ولم يذكر نفسه فقتله ودخل سرخس عَنوَة. وأتى مرزبان طوس إلى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم، وسيّر جيشاً إلى هراة عليهم عبدالله بن خازم، وقيل: غيره، فبلغ مرزبان هراة ذلك فسار إلى ابن عامر فصالحه عن هراة، وباذغيس، وبوشنج.

وقيل: بل سار ابن عامر في الجيش إلى هراة فقاتله أهلها ثمّ صالحه مرزبانها على ألف ألف درهم. ولما غلب ابن عامر هذه البلاد أرسل إليه مرزبان مرو فصالحه على ألفي ألف ومائتي ألف درهم، وقيل: غير ذلك.

وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي إلى مرزبانها وكانت مروُ كلها صلحاً إلاّ قرية منها يقال لها: «سِنْج» فإنّها أخذت عَنْوَة وهي بكسر السين المهملة والنون الساكنة وآخرها جيم.

ووجه ابن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فمرّ برستاق يعرف برستاق الأحنف ويدعى سوانجرد فحصرها أهلها فصالحوه على ثلاثمائة ألف درهم. فقال الأحنف: أصالحكم على أن يدخل رجلٌ منا القصر فيؤذّن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف.

فرضوا بذلك. ومضى الأحنف إلى مَرْو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم، وهزمهم، وحصرهم. وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب إلى الأحنف أنه دعاني إلى الصلح إسلام باذان، فصالحه على ستمائة ألف. وسيّر الأحنف سرية فاستولت على رستاق بغ واستاقت منه مواشي، ثمّ صالحوا أهله. وجمع له أهل طخارستان، فاجتمع أهل الجَوْزجان[3]

---

(١) نَسَا: مدينة بخراسان.

أبِيَوْرْد: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا.

(٢) سَرْخَس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة بين نيسابور ومرو.

(٣) جوزيان: اسم كورة من كوربلخ، بين مرو وبلخ.

والطالقان، والفارياب، ومَن حولهم في خلق كثير فالتقوا، واقتتلوا. وحمل ملك الصغانيان على الأحنف فانتزع الأحنف الرمح من يده وقاتل قِتالاً شديداً فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قَتلاً ذريعاً كيف شاؤوا. وعاد إلى مرو الروذ، ولحق بعض العدو بالجوزجان، فوجّه إليهم الأحنف الأقرع بن حابس التميمي في خيل وقال: يا بني تميم تَحابّوا وتباذَلوا تعدل أموركم، وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم».

فسار الأقرع حتى التقى بالعدو في الجوزجان فهزمه وفتحها عنوة، كما فتح الاحنف الطالقان صلحاً قبل أن يسير إلى بلخ التي صالحه أهلها على أربعمائة ألف درهم.[1] واستعمل الأحنف على بَلخ أسيد ابن المتشمس، ثمّ سار إلى خوارزم على نهر جيحون فلم يستطع فتحها.

وعاد الأحنف إلى المدينة المنوّرة واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم الذي سار بجيشه نحو أرض طخارستان فصالحه أهلها. ثمّ اتجه نحو «سِمِنْجان»[2] التي افتتحها عنوة.[3]

تاسعاً – الدروس والعبر من العمليات بعهد الخليفة عثمان بن عفان

١ – للمرة الأولى منذ قيام الإسلام، وفي بداية عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) انتقل البيزنطيون في بلاد الشام من استراتيجية الدفاع إلى استراتيجية الهجوم، الأمر الذي دعا والي الشام معاوية بن أبي سفيان إلى طلب النجدة من الخليفة.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى حقائق بالنسبة للدولتين الساسانية والبيزنطية اللتين اصطدمت بهما الجيوش العربية خلال مرحلة الفتوحات الكبرى، وهي:

أ – لم يجد المسلمون صعوبة كبرى في إزاحة بيزنطية عن بلاد الشام إذ أن المعارك

(١) وقيل سبعمائة ألف درهم – المستند: الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٣٢.

(٢) بلدة في طخارستان وراء بلخ.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جرء ٢، ص ٦٢٥ – ٦٢٦.

الأولى بينهما انتصر فيها المسلمون. ومن أسباب ذلك التي ذكرناها سابقاً الخلافات الدينية العقائدية بين بيزنطية ونصارى بلاد الشام الذين كانوا بغالبيتهم من أصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح.

إنما ورغم سهولة فتح بلاد الشام الذي وصفه البلاذري بـ«الفتح اليسير»، فإن الصراع بين الروم والعرب المسلمين لم يتوقف مع انتهاء عمليات الفتح، بل تابعت المعارك بين الجانبين حتى أواخر العصور العباسية، واعتمدت خلالها القيادة البيزنطية غالباً استراتيجية هجومية فاعلة. ومن أسباب ذلك عدم اعتناق غالبية سكان بلاد الشام الإسلام، بل بقائهم على النصرانية لقاء دفع الجزية بموافقة الفاتحين. ومنها إبقاء العرب على إداريي بلاد الشام في وظائفهم والاستعانة بهم في ضبط أمورها.

ب - أما في بلاد فارس، ورغم المقاومة العنيفة أحياناً للفتوحات، فإن دخول الفرس في الإسلام أمّن للدولة العربية الإسلامية الناشئة استقراراً أمنياً وسياسياً في العراق وفارس رغم الثورات الشيعية وثورات الخوارج فيهما.

ج - ويمكننا تشبيه اختلاف الوضع هذا بين الشام والعراق، باختلاف الوضع أيضاً بين شمال افريقيا والأندلس بالنسبة للمسلمين. ففي شمال افريقيا، لم يتمكّن المسلمون من السيطرة النهائية على البلاد إلاّ بعد مضي سبعين سنة على بدء الفتوحات. لكن الفتح هذا تحوّل فيما بعد إلى إقامة دائمة بسبب اعتناق بربر تلك البلاد الإسلام وقيام الدولة الإسلامية بتعريب الدواوين فيها وتعليم أبناء البربر الدين والفقه الإسلاميين.

أما في الأندلس، فرغم إتمام الفتح بأشهر معدودة، ورغم بقاء المسلمين في البلاد مدّة ثمانية قرون، فإنهم لم يتمكّنوا من تحويل الفتح إلى إقامة دائمة بل اضطروا للجلاء عن اسبانيا منذ السنة ١٤٩٢م. وأهم أسباب ذلك بقاء سكان إسبانيا على النصرانية وعدم اعتناق غالبيتهم الإسلام، الأمر الذي دفعهم إلى متابعة عمليات استرداد بلادهم بتصميم تام طوال قرون أربعة من الزمن.

فتحوّل فتح بلاد إلى إقامة دائمة يفرض التطبيع مع سكانها، ودفعهم لاعتناق العقائد

والمفاهيم الذي ينادي بها الفاتح باقتناع كلّي، وغرس الحوافز النفسية والحماس والولاء للإدارة الجديدة في بلادهم. ولنا في التاريخ أمثلة عديدة عن الغزاة الذين اجتاحوا بلاد الشام دون أن يتمكّنوا من طبعها بطابعهم وضمّها نهائياً إلى إمبراطورياتهم، من الأكاديين إلى البابليين والأشوريين والفرس واليونانيين والرومان والمقدونيين وغيرهم.

٢ - عزّز الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) معاوية بجند من العراق لتأمين الدفاع عن بلاد الشام المهددة بالغزو البيزنطي. وهذا ما يؤكّد الاستقرار العسكري والأمني في العراق، إنما ليس في إقليم فارس حيث نكث أهله عهدهم مع المسلمين وثاروا على الوالي عبيدالله بن معمر وهزموا جيشه في معركة قتل هو خلالها.

وهذا ما دفع المسلمين إلى شن حملة تهدف إلى إعادة الأمن إلى بلاد فارس فهزموا الفرس وفتحوا اصطخر التي أورد ابن الأثير أن كلباً شارداً دلّ المسلمين إلى مدخلٍ خفيّ لها مكّنهم من دخولها وفتحها عنوة.

وهنا نعود للتأكيد على ان القائد العسكري ينبغي أن لا يهمل أي إشارة أو شاهد أو دليل يساعده في معركته ضد عدوه.

٣ - أخيراً قتل آخر ملوك الفرس يزدجرد بعد أن ملك عشرين سنة أمضى ستة عشر منها في الصراع مع العرب المسلمين، فزالت دولة الفرس من التاريخ تمشياً مع قاعدة صعود الأمم وهبوطها والتي تنص على أن الدولة تمرّ بمراحل، أولها مرحلة الصعود والتوسع، ثمّ مرحلة المراوحة والاستفادة من الانجازات فمرحلة التراجع والسقوط.

جاء في كتابنا «شعوب الشرق الأدنى القديم» عن نهاية دولة فارس ما يلي:[1]

«فالامبراطورية الفارسية التي حكمت مجموعات متنوّعة من الشعوب، طيلة مائتي عام لم تبذل الجهد اللازم لدمج هذه الجماعات في بوتقة واحدة، بل قنعت بأن تحكم خليطاً من الأمم مما زاد صعوبة الاندماج وتأمين وحدة البلاد سنة بعد سنة.

(١) العميد د. سامي ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، دار نوبِليس، ص ١٧٥.

وعندما كان ملوك فارس أقوياء ومهابون كانت الشعوب المحكومة مستكينة لحكمهم وقانعة بعدالتهم التي سبق الحديث عنها. لكن، عندما تراجعت هيبتهم وبدأت الانقلابات والاغتيالات تصطادهم، كان ذلك إيذاناً ببدء التراجع وصولاً إلى الانهيار والزوال».

٤ - بعد فتح اصطخر أعاد المسلمون فتح خراسان وكرمان وسجستان وقهستان وأعمال نيسابور وبيهق وبُشت ونسا وإبيورد وسرخس وطخارستان ومرو الروذ والجوزجان والطالقان والفارياب وبلخ.

ويمكننا الملاحظة أن بعض هذه البلدان كان قد سبق وافتتحها المسلمون، لكنها عادت وخرجت عن سلطتهم. وسبب ذلك أنه، وخلال حملات الفتوحات الكبرى، لم تكن الجيوش الإسلامية تكلف وحدات منها لحماية المدن والحصون المفتتحة لأن هذا التدبير يخفّض عديد جيوشها المكلفة متابعة الزحف لفتح مناطق جديدة. وكان القادة العرب يصالحون المدن المفتتحة صلحاً ويبقون حامياتها فيها فتعود وتخرج عن طاعتهم عندما تلمس تراجعاً في سيطرتهم على المنطقة التي تقع فيها هذه المدن. أما التي تفتتح عنوة، فرغم الفتك بحاميتها عامة وسبي نسائها ومصادرة أملاكها وأموالها، فان شعوبها تعود غالباً لاعمارها، وقد تعود للانتفاض على السلطة الإسلامية. هذا ما جرى في بلاد فارس وفي المغرب الذي لم يتمكّن العرب المسلمون من إخضاعه نهائياً إلاّ بعد سبعين سنة على بدأ الفتوحات في شمال افريقيا. أما الأندلس، فإن الصراع بين سكانه الأصليين، من القوط خاصة، والمسلمين لم يتوقف طيلة قرون ثمانية.

لذلك نرى أن سيطرة العرب المسلمين على المناطق المفتتحة خلال مرحلة الفتوحات الكبرى لم تصبح نهائية إلا بعد ان اعتنق سكان تلك المناطق الإسلام ديناً وعُرِّبت دواوينها واستبدل موظفوها بموظفين مسلمين. فالقوة العسكرية تفتح المدن والمناطق، لكنها لا تستطيع إلزام أهلها على تطبيع العلاقات مع الدولة الجديدة والاستكانة لسيطرتها واندماج شعبها بالمجتمع الجديد المسيطر عليها.

الفصل التاسع
عمليات أخرى في بلاد فارس

رغم وفاة الملك يزدجرد تابع أهل فارس انتفاضاتهم ضد المسلمين وتراجعهم عن المصالحات التي كانت قد جرت بين حاميات المدن الساسانية وقادة الجيوش العربية والتي سبق الحديث عنها في هذا الجزء من الموسوعة.

لذلك، رأينا في الفصل الثامن أن غالبية العمليات العسكرية التي حصلت بعد استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب كانت تهدف إلى إعادة فتح مدن أو مناطق سبق وافتتحت، لكنها نقضت الاتفاقات بينها وبين المسلمين.

وفي هذا الفصل أيضاً سنتطرّق إلى إعادة فتح كرمان وسجستان وكابل وغيرها في عهد الخليفة عثمان بين عفان.

أولاً – القتال ضد الترك

كتب ابن خلدون عن القتال ضد الترك ما يأتي:[١]

«كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما رأوا من شدّتهم وظهورهم في غزواتهم، حتى أكمنوا لهم في بعض الغياض فقتلوا بعضهم، فتجاسروا على حربهم. وكان عبد الرحمن بن ربيعة على ثغور أرمينيا إلى الباب استخلفه عليها سُرَاقة بن عمرو، وأقرّه عمر. وكان كثير الغزو في بلاد الخَزَر، وكثيراً ما كان يغزو بَلَنجَر، وكان عثمان قد نهاه عن ذلك فلم يرجع. فغزاهم سنة اثنين وثلاثين، وجاء الترك

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٢٤ – ١٠٢٦.

لمظاهرتهم وتذامروا، فاشتدّت الحرب بينهم. وقتل عبد الرحمن كما مرّ، وافترقوا فرقتين: فرقة سارت نحو الباب لقوا سلمان ابن ربيعة، قد بعثه سعيد بن العاص من الكوفة مدداً للمسلمين بأمر عثمان فساروا معه، وفرقة سلكوا على جيلان وجرجان فيهم لمان الفارسيّ وأبو هُرَيْرة.

ثمّ استعمل سعيد بن العاص على الباب سلمان بن ربيعة مكان أخيه، وبعث معه جنداً من أهل الكوفة حُذيفة بن اليمان، وأمدّهم عثمان بحبيب بن مسلمة في جند الشام، وسلمان أمير على الجميع. ونازعه حبيب الأمارة فوقع الخلاف. ثمّ غزا حذيفة بعد ذلك ثلاث غزوات عند آخرها مقتل عثمان.

وخرجت جموع الترك سنة اثنين وثلاثين من ناحية خراسان في أربعين ألفاً عليهم قارن من ملوكهم فانتهوا إلى الطبَسَين. واجتمع له أهل بادَغِيس وهَراة وقَهَسْتان، وكان على خراسان يومئذ قيس ابن الهيثم السَلَمِيّ، استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه إلى مكّة محرماً فدوّخ جهتها. وكان معه ابن عمّه عبدالله بن حازم، فقال لابن عامر: اكتب لي على خراسان عهداً إذا خرج منها قيس ففعل. فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن حازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تخرج عن البلاد فإن عهد ابن عامر عندي بولايتها، فترك منازعته وذهب إلى ابن عامر. وقيل أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستحدّه، فلما خرج أظهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس.

وسار ابن حازم للقاء الترك في أربعة آلاف، ولما التقى الناس أمر جيشه بايقاد النار في أطراف رحالهم، فهاج العدوّ على دهش. وغشيهم[1] ابن حازم بالناس متتابعين، فانهزموا وأثخن المسلمون فيهم بالقتل والسبي. وكتب ابن حازم بالفتح إلى ابن عامر فأقرّه على خراسان، فلم يزل والياً عليها إلى حرب الجمل. فأقبل إلى البصرة. وبقي أهل البصرة بعد غزوة ابن حازم هذه حتى غزوا المنتقضين من أهلها، وعادوا جهّزوا كتيبة من أربعة آلاف فارس هنالك».[2]

(١) غشي: أي أتى.

(٢) ذكر نفس الأحداث الطبري، جزء ٢، ص ٦٢٧، وابن الأثير، جزء ٣، ص ٢٧.

ثانياً – إعادة فتح كرمان

نقل ابن الأثير رواية احداث إعادة فتح كرمان فيما كان ابن عامر قد سار عنها واستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمي فنقض أهلها الصلح.

كتب ابن الأثير:(١)

«لما سار ابن عامر عن كرمان إلى خُراسان واستعمل مجاشع بن مسعود السلمي على كرمان على ما ذكرناه قبل أمره أن يفتحها. وكان أهلها قد نكثوا وغدروا، ففتح هميد عنوة واستبقى أهلها وأعطاهم أماناً، وبنى بها قصراً يعرف بقصر مجاشع. وأتى السِّيرجان وهي مدينة كرمان فأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصنون فقاتلهم وفتحها عنوة فجلا كثيراً من أهلها وفتح جِيرَفْت(٢) عنوة. وسار في كرمان فدوّخ أهلها وأتى القفص وقد تجمّع له خلقٌ كثير من الأعاجم الذين جَلَوا فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم. وهرب كثيرٌ من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران، وبعضهم بسجستان فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنى في مواضع منها وأدوا العشر منها».

ثالثاً – إعادة فتح سجستان وكابل وغيرهما

كانت سجستان قد افتتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. إنما، ومع توجّه ابن عامر إلى خراسان، نقض أهلها الصلح مع المسلمين. سار إليها الربيع بن زياد الحارثي على رأس جيش إسلامي فأعاد فتحها عنوة، كما أعاد فتح مدن أخرى ذكرها جميعها ابن الأثير عندما كتب:(٣)

«قد تقدم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب، ثمّ إن أهلها نقضوا بعده فلما توجّه ابن عامر إلى خراسان سيّر إليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثي فقطع المفازة حتى أتى حصن زِالق فأغار على أهله يوم مهرجان

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٢.
(٢) جيرفت: مدينة من أهم مدن كرمان.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٢ – ٢٣.

وأخذ الدهقان فافتدى نفسه بأن غرز عنزة وغمرها ذهبا وفضة وصالحه على صلح فارس. ثمّ أتى بلدة يقال لها: كركويه[١] فصالحه أهلها وسار إلى زرنج فنزل على مدينة روشت بقرب زَرَنْج[٢] فقاتله إهلها وأصيب رجال من المسلمين، ثمّ انهزم المشركون، وقتل منهم مقتلة عظيمة. وأتى الربيع ناشروذ[٣] ففتحها، ثمّ أتى شرْواذ[٤] فغلب عليها، وسار منها إلى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم. فأرسل إليه مرزبانها ليصالحه واستأمنه على نفسه ليحضر عنده فأمّنه، وجلس له الربيع على جسد من أجساد القتلى واتكأ على آخر، وأمر أصحابه ففعلوا مثله. فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على ألف وصيف[٥] مع كلّ وصيف جام من ذهب. ودخل المسلمون المدينة ثمّ سار منها إلى سناروذ[٦] وهي وادٍ فعبره، وأتى القرية التي بها مربط فرس رستم الشديد فقاتله أهلها فظفر بهم. ثمّ عاد إلى زرنج وأقام بها نحو سنة، وعاد إلى ابن عامر، واستخلف عليها عاملاً فأخرج أهلها العامل وامتنعوا، فكانت ولاية الربيع سنة ونصف.

وسبى فيها أربعين ألف رأس، وكان كاتبه الحسن الصبري، فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان فسار إليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف.

وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكَشّ[٧] من ناحية الهند. وغلب من ناحية الرُّخَّج[٨] على ما بينه وبين الداون

(١) كركويه: مدينة بنواحي سجستان.
(٢) زرنج: قصبة سجستان.
(٣) ناشروذ: منطقة بسجستان.
(٤) شرواذ: منطقة بسجستان.
(٥) وصيف: أي خادم.
(٦)سناروذ: نهر بسجستان
(٧) الكش: قرية واقعة على جبل قرب جرجان.
(٨) الرُّخج: منطقة في سجستان.

فلما انتهى إلى بلد الداون حصرهم في جبل الزوز. ثمّ صالحهم ودخل على الزوز، وهو صنم من ذهب، عيناه ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين. ثمّ قال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر. وإنما أردت أن أعلمك أنّه لا يضر ولا ينفع. وفتح كابل، وزابُلِستان[1] وهي ولاية غزنة، ثمّ عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمرُ عثمان فاستخلف عليها أُمَيْر بن أحمر اليشكري وانصرف فأخرج أهلها أُمَير بن أحمر وامتنعوا».

رابعاً – القتال ضد هراة وقهستان وباذغيس

في السنة الثانية والثلاثين للهجرة، ولما استخلف ابن عامر على خراسان قيس بن الهيثم، خرج قارن بجمع كثير من أهل هراة وقهستان وباذغيس. وكان ابن عامر قد أرسل خُليد بن عبدالله الحنفي إلى هراة وباذغيس فافتتحهما.[2]

وكان قارن قد جمع أربعين ألفاً لقتال المسلمين.

ونقل الطبري وابن الأثير أن قيس بن الهيثم أخلى خراسان التي تسلّمها عبدالله ابن خازم الذي كان قد حصل على عهد من ابن عامر أنه، إذا حصلت حرب ضد المسلمين في خراسان، فهو أميرها.[3]

كتب الطبري عن تسلّم ابن خازم خراسان:[4]

«قال عليّ: وأخبرنا صدَقة بن حُميد، عن أبيه، قال: بعث ابنُ عامر – حين صالح أهل مَرْو، وصالح الأحنف أهل بلْخ – خُلَيْد بن عبدالله الحنفيّ إلى هَراة وباذَغيس؛ فافتتحهما، ثمّ كفروا بعد فكانوا مع قارن.

قال عليّ: وأخبرنا مسلمة، عن داود، قال: ولما رجع الأحنف إلى ابن عامر قال الناس لابن عامر: ما فتح على أحد ما قد

(١) زابلستان: كورة واسعة جنوبي بلخ.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٣٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٨.

(٤) الطبري مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٣٢ – ٦٣٣.

فتح عليك؛ فارس وكَرمان وسِجستان وعامّة خُراسان! قال: لا جَرَم، لأجعلنّ شكري لله على ذلك أن أخرج محرِماً معتمراً من موقفي هذا. فأحرَم بعُمرة من نيسابور؛ فلما قدِم على عثمان لامه على إحرامه من خُراسان، وقال: ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يحرم منه الناس!

قال عليّ: أخبرنا مَسلمَة، عن السّكن بن قُتادة العُرينيّ، قال: استخلف ابنُ عامر على خُراسان قيس بن الهيثم، وخرج ابن عامر منها في سنة اثنتين وثلاثين. قال: فجمع قارن جمعاً كثيراً من ناحية الطَّبَسين وأهل باذَغيس وهَراة وقُهستان، فأقبل في أربعين ألفاً، فقال لعبدالله بن خازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تُخلّي البلاد فإني أميرها؛ ومعي عهدٌ من ابن عامر؛ إذا كانت حرب بخُراسان فأنا أميرها - وأخرج كتاباً قد افتعله عمداً - فكره قيس مشاغبته، وخلاّه والبلاد؛ وأقبل إلى ابن عامر. فلامه ابن عامر، وقال: تركت البلاد حرباً وأقبلت!

قال: جاءني بعهد منك. فقالت له أمّه: قد نهيتك أن تدعهما في بلد، فإنه يشغَب عليه».

جنّد ابن خازم أربعة آلاف مجاهد وسار بهم نحو قارن ملك الترك لإخضاعه.

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال، فكتب:(١)

«قال: فصار ابن خازم إلى قارن في أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك، فلما قرب من قارن أمر الناس أن يدرج كلّ رجل منهم على زج رمحه خرقة أو قطناً ثمّ يكثروا دهنه. ثمّ سار حتى أمسى فقدّم مقدمته ستمائة، ثمّ أتبعهم. وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح فانتهت مقدمته إلى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش وكانوا آمنين من البيات.

ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة ويسرة تتقدّم وتتأخّر وتنخفض وترتفع [ولا يرون أحداً]، فهالهم ذلك ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم. ثمّ غشيهم ابن خازم بالمسلمين فقتل قارن فانهزم المشركون واتبعوهم

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٨ - ٢٩.

يقتلونهم كيف شاؤوا، وأصابوا سبياً كثيراً. وكتب ابن خازم بالفتح إلى ابن عامر فرضي وأقرّه على خراسان».

خامساً – فتوح السند

ولّى الخليفة عمر بن الخطاب السنة ١٥ هجرية عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعُمان، فوجه عثمان أخاه الحكم إلى البحرين ومضى هو إلى عمان حيث جمع جيشاً وسيره إلى «تانه». ووجه الحكم جيشاً إلى «بَرْوَص» وإلى «خَور الديبل» فلقي العدو وعاد منتصراً.

كتب البلاذري عن توجيه الجيوش إلى ثغر الهند:[١]

«فلمّا ولي عثمان بن عفّان «رضي الله عنه» وولّى عبدالله بن عامر بن كريز العراق،كتب إليه يأمره أن يوجّه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه بخبره، فوجّه حَكيم بن جبلة العبديّ.

فلمّا كان آخر سنة ٣٨ وأوّل سنة ٣٩ في خلافة عليّ بن أبي طالب «رضي الله عنه» توجّه إلى ذلك الثغر، الحارث بن مرّة العبديّ متطوّعاً بإذن علي فظفر وأصاب مغنماً وسبياً، وقسم في يوم واحد ألف رأس. ثمّ أنّه قتل ومن معه بأرض القيقان إلاّ قليلاً، وكان مقتله في سنة ٤٢، والقيقان من بلاد السند ممّا يلي خراسان. ثمّ غزا ذلك الثغر المهلّب ابن أبي صفرة في أيّام معاوية سنة ٤٤، فأتى بنّة والاهوار وهما بين الملتان وكابل، فلقيه العدوّ فقاتله ومن معه. ولقي المهلّب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك على خيل محذوفة فقاتلوه فقُتلوا جميعاً.

ثمّ ولّى عبدالله بن عامر في زمن معاوية ابن أبي سفيان عبدالله بن سَوّر العبديّ، ويقال: ولاّه معاوية من قبله ثغر الهند فغزا القيقان فأصاب مغنماً. ثمّ وفد إلى معاوية، وأهدى إليه خيلاً قيقانيّة، وأقام عنده، ثمّ رجع إلى القيقان، فاستجاشوا الترك، فقتلوه».[٢]

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٦٠٧ – ٦٠٨.

(٢) انظر الملحق رقم ٤: تفاصيل عن فتوحات بلاد السند.

سادساً – الدروس والعبر

١ – نقل ابن خلدون أن الترك والخزر كانوا يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون بسبب شدّتهم في القتال. لكنهم، وبعد أن أوقعوهم في كمين وقتلوا بعضهم تجاسروا على حربهم.

إن من يدرس مرحلة الفتوحات العربية الكبرى في عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) يُعجب من سرعة تقدّم الجيوش العربية في بلاد الشام والعراق وفارس وصولاً إلى حدود بلاد الترك والصغد والصين. وإذا قام بتحليل سريع للمعارك التي وقعت خلال هذه المرحلة، لتأكّد أن من أهم أسبابها الحماس الديني لدى المقاتلين العرب وانضباطهم وشدّة حوافزهم وارتفاع معنوياتهم مقابل التراجع في الحوافز والمعنويات لدى أخصامهم.

لقد تطوّر مفهوم الواجب العسكري مع الزمن، لكنه كان دائماً محركاً من دوافع معنوية نرى من الضروري التطرّق لها. فالدافع الأبرز والأعمق الذي يحرّك الإنسان ويدفعه للقتال في سبيل بلاده وشعبه هو واجب الدفاع عن الأرض والممتلكات والمجتمعات ضدّ كلّ ما يهددها. إنه التعلّق بالحضارة والتراث والتقاليد والإنجازات والوطن أو الأمة.

والأمة أخذت خلال التاريخ أبعاداً مختلفة. ففي البدء كانت تشمل القبيلة وحلفاءها. لكنها تطوّرت مع ظهور الإسلام وامتدّت وتوسّعت فأصبحت تشمل جميع قبائل العرب وحتى غير العرب المنضوين تحت لواء الدين الإسلامي الجامع والشامل. وهكذا تحوّل مفهوم الانتماء والمواطنية من محيط القبيلة ليبلغ مفهوماً جغرافياً وانتمائياً أوسع تدعمه المصالح الدينية والاقتصادية والأمنية والثقافية المشتركة.

٢ – بعد انتهاء العمليات العسكرية في فارس، توسعت إلى بلاد الترك والخزر. فمنذ سنة ٣٢هـ بدأ عامل المسلمين على ثغور أرمينيا يغزو بلاد الخزر رغم أن الخليفة عثمان (رضي الله عنه) كان قد نهاه عن ذلك.

وفي السنة نفسها خرج الترك من ناحية خراسان في أربعين ألف مقاتل فالتقوا

بجيش إسلامي من أربعة آلاف مقاتل بقيادة ابن حازم فجرت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون الذين «أثخنوا بالترك بالقتل والسبي» وفق ابن خلدون.[١]

٣ - وهنا لا بدّ لنا من إيضاح دوافع العنف والقسوة في الحروب القديمة إذ أنه، ومنذ فجر التاريخ، تميزت الحروب خاصة بالنسبة لغير المقاتلين، بمفهوم الاستعباد والسبي أو الهلاك. وكانت مظاهر الرحمة بالمغلوبين نادرة وغير طبيعية. لقد اعتُبر القادة العسكريون الكبار خلال التاريخ القديم رمزاً للقسوة والعنف والتدمير. وكان إحراق المدينة المغلوبة بسكانها يعتبر من الأعمال البطولية ويعكس مفهوماً قديماً للحروب القاسية والعنيفة والتي كانت، وخلال قرون طويلة من التاريخ القديم، لا تميز بين المواطن المقاتل والمواطن المدني الأعزل والنساء والأولاد.

ثمّ جاءت الديانات السماوية فساهمت عبر تعاليمها ورجالاتها في تغيير العقلية السائدة لدى الجيوش خلال المعارك والحروب لا سيما طرق معاملة المدنيين الذين يخضعون لشرعة المنتصر. فالديانة المسيحية نادت بالأخوة والعدالة والرحمة وحماية الضعيف والدفاع عن المرأة والولد.

وجاء الإسلام فأوصى بالرفق بالخصم ومعاملته معاملة إنسانية، وأوصى رسول الله ﷺ المقاتلين بحسن معاملة المدنيين وتجنيبهم ويلات القتال وبكفّ جميع العمليات فور استسلام الحامية العسكرية للمدنية المحاصرة. ومن إنجازات النبيّ ﷺ العسكرية تحويل فكرة الحرب من العداء والغزو والسلب التي كانت سائدة لدى عرب ما قبل الإسلام، إلى فكرة الجهاد في سبيل الله ونشر دينه. وينصّ الجهاد على وجوب وقف جميع الأعمال العدائية ضدّ من يستسلم أو يدخل الإسلام. هذا التساهل ساهم في فتح نصف العالم الذي كان معروفاً يومذاك خلال فترة لا تتعدى السنوات العشر نظراً لتكاثر «الفتوحات اليسيرة» وفق البلاذري.

ورغم أن رسول الله ﷺ هو أول نبي في التاريخ استخدم القوة العسكرية كأداة من

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٢٥.

أدوات نشر العقيدة الدينية، فإن هذا الاستخدام ترافق مع قدرٍ كبير من إنسانية القتال ومن إحترام المدنيين من النساء والأطفال والعجّز.

لكن هذه المعاملة الحسنة لم تكن تشمل السكان الذين يغدرون بالمسلمين كما حصل في مدينة كرمان التي، ولما أعيد فتحها عنوة، جلا عنها كثيراً من أهلها إلى مكران وسجستان فأَقطع العرب منازلهم وأراضيهم التي أعادوا تعميرها واستغلالها.

٤ - وفي فتوح السند يمكن ملاحظة مدى تصميم المسلمين على متابعة نشر الدين الجديد في الأقطار البعيدة شرقاً وصولاً إلى حدود الهند. لكن الفتوحات في بلاد السند امتدّت منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان حتى العصور الأموية والعباسية.

ملحق رقم ٣

تفاصيل عن فتوحات السند والهند

لما كان فتح بلاد السند قد امتدّ في الزمن منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حتى العصر العباسي الأول، ولما كانت التفاصيل عن هذا الفتح جاءت في كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري، رأينا ضرورة لحظها في ملحق خاص.

كتب البلاذري عن فتوح السند والهند ما يأتي:[١]

«قال ابن الكلبي: كان الذي فتح مكران حكيم بن جبلة العبديّ، ثمّ استعمل زياد على الثغر راشد بن عمرو الجُديديّ من الأزد فأتى مكران، ثمّ غزا القيقان، فظفر، ثمّ غزا الميد، فقُتل وقام بأمر الناس سنان بن سَلَمة فولاّه زياد الثغر، فأقام به سنتين.

وغزا عبّاد بن زياد ثغر الهند من سجستان، فأتى سَناروذ ثمّ أخذ على حوى كهز إلى الروذبار من أرض سجستان إلى الهنْدمنْد، فنزل كِشّ، وقطع المفازة حتّى أتى القُندُهار، فقاتل أهلها، فهزمهم وفلّهم وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين. ورأى قلانس أهلها طوالاً، فعمل عليها، فسمّيت العبّاديّة.

ثمّ ولّى زياد المنذر بن الجارود العبديّ، ويكنّى أبا الأشعث ثغر الهند، فغزا البوقان، والقيقان، فظفر المسلمون وغنموا، وبثّ السرايا في بلادهم، وفتح قُصْدار، وسبا بها، وكان سنان قد فتحها إلاّ أنّ أهلها انتقضوا. وبها مات.

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٦٠٨ - ٦١٠.

ثمّ ولّى عبيد الله بن زياد ابن حَرِّي الباهليّ، ففتح الله تلك البلاد على يده، وقاتل بها قتالاً شديداً، فظفر وغنم.

ولمّا ولّي الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي العراق ولّى سعيد بن أسلم بن زُرعة الكلابيّ. مُكران وذلك الثغر، فخرج عليه معاوية ومحمّد ابنا الحارث العِلافيّان فقُتل، وغلب العلافيّان على الثغر. واسم علاف هو ربّان بن حُلوان بن عِمران ابن الحاف بن قضاعة، وهو أبو جرم. فولّى الحجاج مُجّاعة بن سِعْر التميمي ذلك الثغر، فغزا مجّاعة فغنم وفتح طوائف من قَنْدابيل، ثمّ أتمّ فتحها محمّد بن القاسم. ومات مجّاعة بعد سنة بمكران.

ثمّ ولّى الحجاج محمّد بن القاسم بن القاسم بن محمّد بن الحكم بن أبي عقيل في أيّام الوليد بن عبدالملك، فغزا السند وكان بفارس. وقد أمره أن يسير إلى الريّ وعلى مقدّمته أبو الأسود جَهم بن زَحْر الجُعْفيّ. فردّه إليه وعقد له على ثغر السند، وضمّ إليه ستّة آلاف من جند أهل الشام وخلقاً من غيرهم، وجهّزه بكلّ ما أحتاج إليه حتّى الخيوط والمسالّ، وأمره أن يقيم بشيراز حتّى يتتامّ إليه أصحابه ويوافيه ما عُدّ له.

وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج، فنقع في الخلّ الخمر الحاذق، ثمّ جُفّف في الظلّ، فقال إذا صرتم إلى السند فإنّ الخلّ بها ضيّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثمّ اطبخوا به واصطبغوا. ويقال أنّ محمّداً لمّا صار إلى الثغر كتب يشكو ضيق الخلّ عليهم، فبعث إليه بالقطن المنقوع في الخلّ. فسار محمّد ابن القاسم إلى مُكران، فأقام بها أيّاماً، ثمّ أتى قنّزبور ففتحها، ثمّ أتى أرمائيل ففتحها. وكان محمّد بن هارون بن ذراع قد لقيه، فانضمّ إليه وسار معه فتوفي بالقرب منها فدفن بقنبل.

ثمّ سار محمّد بن القاسم من أرمائيل ومعه جَهم بن زَحْر الجعفيّ، فقدم الدَّيبُل يوم جمعة، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة، فخندق حين نزل الدَّيبُل، وركزت الرماح على الخندق، ونشرت الأعلام وأنزل الناس على راياتهم، ونصب منجنيقاً تعرف بالعروس كان يمدّ فيها خمس مائة رجل.

قالوا: وأتى محمّد بن القاسم البيرون، وكان أهلها بعثوا سُمَنيّين منهم إلى الحجاج

فصالحوه، فأقاموا لمحمّد العلوفة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح. وجعل محمّد لا يمرّ بمدينة إلاّ فتحها، حتّى عبر نهراً دون مهران، فأتاه سُمَنِيّة سربيدس فصالحوه عن من خلفهم، ووظّف عليهم الخراج. وسار إلى سهبان ففتحها، ثمّ سار إلى مهران فنزل في وسطه فبلغ ذلك داهر واستعد لمحاربته. وبعث محمّد بن القاسم محمّد بن مصعب ابن عبد الرحمن الثقفيّ إلى سَدوسان في خيل وحمّارات فطلب أهلها الأمان والصلح، وسفر بينه وبينهم السُّمنيّة فأمنهم ووظّف عليهم خرجاً وأخذ منهم رهناً. وانصرف إلى محمّد ومعه من الزُّطّ أربعة آلاف فصاروا مع محمّد وولّى سَدوسان رجلاً. ثمّ أنّ محمّداً احتال لعبور مهران حتّى عبره ممّا يلي بلاد راسل ملك قشّة، من الهند على جسر عقده وداهر مستخفّ به لاه عنه، ولقيه محمّد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يُسمَع بمثله. وترجّل داهر، وقاتل فقُتل عند المساء وانهزم المشركون فقتلهم المسلمون كيف شاءوا.

وحدّثني عليّ بن محمّد المدائني عن أبي محمّد الهنديّ عن أبي الفرج قال: لمّا قتل داهر غاب محمّد بن القاسم على بلاد السند. وقال ابن الكلبي الذي قتل داهر القاسم بن ثعلبة بن عبد الله بن حِصن الطائيّ.

قالوا: وفتح محمّد بن القاسم راور عنوة، وكانت بها امرأة لداهر فخافت أن تؤخَذ فاحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها، ثمّ أتى محمّد بن الاسم برهمناباذ العتيقة، وهي على رأس فرسخين من المنصورة ولم تكن المنصورة يومئذ، إنّما كان موضعها غيضة. وكان فلّ داهر ببرهمناباذ هذه فقاتلوه ففتحها محمّد عنوة، وقتل بها ثمانية آلاف وقيل ستّة وعشرين ألفاً، وخلّف فيها عامله وهي اليوم خراب. وسار محمّد يريد الرور وبغرور فتلقّاه أهل ساوَندرَى فسألوه الأمان فأعطاهم إيّاه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودلالتهم وأهل ساوندرَى اليوم مسلمون، ثمّ تقدّم إلى بسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرَى.

وانتهى محمّد إلى الرور وهي من مدائن السند وهي على جبل فحصرهم أشهراً ففتحها صلحاً، على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدّهم. وقال ما البدّ إلاّ ككنائس النصارى

واليهود وبيوت نيران المجوس. ووضع عليهم الخراج بالرور وبنى مسجداً. وسار محمّد إلى السكة وهي مدينة دون بَياس ففتحها، والسكة اليوم خراب. ثمّ قطع بَياس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان، فأبلى زائدة بن عمير الطائي، وانهزم المشركون فدخلوا المدينة وحصرهم محمّد. ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحمر ثمّ أتاهم رجل مستأمن فدلّهم على مدخل الماء الذي منه شربهم، وهو ماء يجري من نهر بسمد، فيصير في مجتمع له مثل البركة في المدينة، وهم يسمّونه البلاح، فغوره. فلمّا عطشوا نزلوا على الحكم، فقتل محمّد المقاتلة، وسبى الذرّيّة وسبى سدنة البُدّ، وهم ستّة آلاف. وأصابوا ذهباً كثيراً، فجمعت تلك الأموال في بيت يكون عشرة أذرع في ثمان أذرع، يلقى ما أودعه في كوّة مفتوحة في سطحه، فسمّيت الملتان، فرج بيت الذهب.

ومات الحجاج فأتت محمّداً، وفاته، فرجع عن الملتان إلى الرور، وبغرور، وكان قد فتحها، فأعطى الناس، ووجّه إلى البيلمان جيشاً، فلم يقاتلوا، وأعطوا الطاعة وساله أهل سُرَسنت، وهي مغزى أهل البصرة اليوم وأهلها الميد الذي يقطعون في الحر. ثمّ أتى محمّد الكيرج، فخرج إليه دوهر فقاتله فانهزم العدو، وهرب دوهر ويقال: قُتل ونزل أهل المدينة على حكم محمّد فقتل وسبى.

ومات الوليد بن عبد الملك، وولي سليمان ابن عبد الملك فاستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق وولّى يزيد بن أبي كبشه السكسكي السند، فحمل محمّد ابن القاسم مقيّداً مع معاوية بن المهلّب.

واستعمل سليمان بن عبد الملك، حبيب ابن المهلّب على حرب السند، فقدمها، وقد رجع ملوك الهند إلى ممالكهم، فرجع حبشة ابن داهر إلى برهمناباذ. ونزل حبيب على شاطىء مهران، فأعطاه أهل الرور الطاعة، وحارب قوماً، فظفر بهم. ثمّ مات سليمان بن عبدالملك وكانت خلافة عمر بن عبد العزيز بعده، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملّكهم ولهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم حبشة والملوك، وتسمّوا بأسماء العرب. وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر، فغزا بعض الهند فظفر، وهرب بنو المهلّب إلى

السند في أيّام يزيد بن عبد الملك، فوجّه إليهم هلال بن أحوز التميمي، فلقيهم فقتل مُدرك بن المهلّب بقندابيل، وقتل المفضّل، وعبد الملك، وزياد، ومروان، ومعاوية بني المهلّب، وقتل معاوية بن يزيد في آخرين.

وَوُلّي الجنيد بن عبد الرحمن المُرّيّ من قبل عمر بن هبيرة الفزاري ثغر السند، ثمّ ولاّه إيّاه هشام بن عبد الملك. فلمّا قدم خالد بن عبد الله القسري العراق، كتب هشام إلى الجنيد يأمره بمكاتبته، فأتي الجنيد الديبل، ثمّ نزل شطّ مهران، فمنعه جيشه العبور وأرسل إليه أنّي قد أسلمت وولاّني الرجل الصالح بلادي، ولست آمنك، فأعطاه رهناً وأخذ منه رهناً بما على بلاده من الخراج. ثمّ أنّهما ترادّا الرهن وكفر جيشه وحارب، وقيل أنّه لم يحارب ولكنّ الجنيد يجني عليه. فأتى الهند فجمع جموعاً وأخذ السفن واستعدّ للحرب، فسار إليه الجنيد في السفن، فالتقوا في بطيحة الشرقيّ فأخذ جيشه أسيراً، وقد جنحت سفينته فقتله. وهرب صصه بن داهر، وهو يريد ان يمضي إلى العراق فيشكو غدر الجنيد، فلم يزل الجنيد يؤنسه حتّى وضع يده في يده فقتله.

وغزا الجنيد الكيرج وكانوا قد نقضوا، فاتّخذ كباشاً نطّاحة فصكّ بها حائط المدينة حتّى ثلمه، ودخلها عنوة، فقتل وسبى وغنم، ووجّه العمّال إلى مرمد والمَندل ودَهنَج وبروص.

وكان الجنيد يقول: القتل في الجزع أكبر منه في الصبر. ووجّه الجنيد جيشاً إلى أُزين، ووجّه حبيب بن مرّة في جيش إلى أرض المالبة، فأغاروا على أُزين وغزوا بهربمد فحرقوا ربضها. وفتح الجنيد البيلمان والجُرز، وحصل في منزله سوى ما أعطى زوّاره أربعين ألف ألف، وحمل مثلها.

فلمّا كان أوّل الدولة المباركة، ولى أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم مُغَلّساً العبديّ ثغر السند، وأخذ على طخارستان وسار حتى صار إلى منصور بن جمهور الكلبيّ وهو بالسند، فلقيه منصور فقتله وهزم جنده. فلمّا بلغ أبا مسلم ذلك عقد لموسى بن كعب التميميّ ثمّ وجّهه إلى السند، فلمّا قدمها كان بينه وبين منصور بن جمهور مهران ثمّ التقيا فهزم منصوراً وجيشه وقتل منظوراً أخاه، وخرج منصور مفلولاً هارباً حتّى ورد الرمل فمات عطشاً. وولّى موسى السند

فرمّم المنصورة وزاد في مسجدها وغزا وافتتح.

وولّى أمير المؤمنين المنصور «رحه» هشام ابن عمرو التغلبي السند ففتح ما استغلق. ووجّه عمرو بن جَمَل في بوارج إلى نارند، ووجه إلى ناحية الهند فافتتح قَشْمِيراً وأصاب سبايا ورقيقاً كثيراً، وفتح الملتان، وكان بقَندَابيل متغلبة من العرب فأجلاهم عنها. وأتى القندهار في السفن، ففتحها وهدم البدّ وبنى موضعه مسجداً، فأخصبت البلاد في ولايته فتبرّكوا به، ودوّخ الثغر وأحكم أموره. ثمّ ولي ثغر السند عمر بن حفص بن عثمان هزارمرد، ثمّ داؤد بن يزيد ابن حاتم، وكان معه أبو الصمّة المتغلّب اليوم، وهو مولى لكندة.

ولم يزل أمر ذلك الثغر مستقيماً حتّى وليه بشر بن داود، في خلافة المأمون فعصى وخالف. فوجّه إليه غسّان بن عبّاد، وهو رجل من أهل سواد الكوفة، فخرج بشر إليه في الأمان، وورد به مدينة السلام. وخلّف غسّان على الثغر موسى بن يحيى بن خالد ابن برمك فقتل باله ملك الشرقيّ، وقد بذل له خمس مائة ألف درهم على ان يستبقيه. وكان باله هذا التوى على غسّان، وكتب إليه في حضور عسكره فيمن حضره من الملوك فأبى ذلك. وأثر موسى أثراً حسناً، ومات سنة ٢١، واستخلف ابنه عمر ان بن موسى، فكتب إليه أمير المؤمنين المعتصم بالله بولاية الثغر، فخرج إلى القيقان وهم زطّ، فقاتلهم فغلبهم، وبنى مدينة سمّاها البيضاء واسكنها الجند.

ثمّ أتى المنصورة وصار منها إلى قندابيل وهي مدينة على جبل، وفيها متغلّب يقال به محمّد بن الخليل، فقاتله وفتحها وحمل رؤساءها إلى قصدار. ثمّ غزا الميد وقتل منهم ثلاثة آلاف، وسكر سكراً يعرف بسكر الميد. وعسكر عمران على نهر الرور، ثمّ نادى بالزطّ الذين بحضرته فأتوه، فختم أيديهم وأخذ الجزية منهم، وأمرهم بأن يكون مع كلّ رجل منهم إذا اعترض عليه كلب، فبلغ الكلب خمسين درهماً. ثمّ غزا الميد ومعه وجوه الزط، فحفر من البحر نهراً أجراه في بطيحتهم حتّى ملح ماؤهم وشنّ الغارات عليهم. ثمّ وقعت العصبيّة بين النزاريّة واليمانية، فمال عمران إلى اليمانية، فسار إليه عمر بن عبد العزيز الهبّاري فقتله وهو

غارّ، وكان جدّ عمر هذا ممّن قدم السند مع الحكم بن عَوانة الكلبي.

وحدّثني منصور بن حاتم قال: كان الفضل بن ماهان مولى بني سامة فتح سندان وغلب عليها، وبعث إلى المأمون «رحه» بفيل وكاتبه، ودعا له في مسجد جامع اتّخذه بها. فلمّا مات قام محمّد بن الفضل بن ماهان مقامه، فسار في سبعين بارجة إلى ميد الهند، فقتل منهم خلقاً، وافتتح فالى ورجع إلى سندان، وقد غلب عليها أخ يقال له ماهان بن الفضل. وكاتب أمير المؤمنين المعتصم بالله، وأهدى إليه ساجاً لم ير مثله عظماً وطولا. وكانت الهند في أمر أخيه، فمالوا عليه فقتلوه وصلبوه. ثمّ أنّ الهند بعد غلبوا على سندان، فتركوا مسجدها للمسلمين يجمّعون فيه ويدعون للخليفة.

وحدّثني أبو بكر مولى الكريزيين أنّ بلداً يدعى العُسيفان بين قشمير والملتان وكابل، كان له ملك عاقل، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنماً قد بني عليه بيت وأبّدوه، فمرض ابن الملك فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم ادعوا الصنم أن يبري ابني. فغابوا عنه ساعة ثمّ أتوه، فقالوا قد دعوناه وقد أجابنا إلى ما سألناه. فلم يلبث الغلام أن مات، فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم ثمّ دعا قوماً من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد، فوحّد وأسلم، وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله «رحه».

ملحق رقم ٤

سير بعض القادة[1]

١ - سعيد بن العاص

هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي، قتل أبوه يوم بدر كافراً، قتله علي بن أبي طالب، ونشأ سعيد في حجر عثمان بن عفان (رضي الله عنه). وكان عمر سعيد يوم مات رسول الله ﷺ تسع سنين، وكان من سادات المسلمين والأجواد المشهورين. وكان جدّه سعيد بن العاص - ويكنى بأبي أجنحة - رئيساً في قريش، ويقال له ذو التاج، لأنه كان إذا اعتمّ لا يعتمّ أحد يومئذ إعظاماً له. وكان سعيد هذا من عمال عمر على السواد، وجعله عثمان فيمن يكتب المصاحف لفصاحته، وكان أشبه الناس لحية برسول الله ﷺ. وكان في جملة الاثني عشر رجلاً، الذين يستخرجون القرآن ويعلمونه ويكتبونه، منهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت. واستنابه عثمان على الكوفة بعد عزله الوليد بن عقبة، فافتتح طبرستان وجرجان، ونقض العهد أهل أذربيجان فغزاهم ففتحها. فلما مات عثمان اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صفين، فلما استقرّ الأمر لمعاوية وفد إليه فعتب عليه فاعتذر إليه فعذره في كلام طويل جداً، وولاّه المدينة مرتين، وعزله عنها مرتين بمروان بن الحكم. وكان سعيد لا يسبّ علياً، ومروان يسبّه. وروى عن النبيّ ﷺ، وعن عمر بن الخطاب، وعثمان، وعائشة، وعنه ابناه عمرو بن

---

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٨ - ٩٢.

سعيد الأشدق وأبو سعيد، وسالم بن عبدالله بن عمر، وعروة بن الزبير، وغيرهم، وليس له في المسند ولا في الكتب الستة شيء. وقد كان حسن السيرة، جيد السريرة، وكان كثيراً ما يجمع أصحابه في كلّ جمعة فيطعمهم ويكسوهم الحلل، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير. وكان يصرّ الصّرر فيضعها بين يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد.

قال ابن عساكر: وقد كانت له دار بدمشق تعرف بعده بدار نعيم، وحمام نعيم، بنواحي الديماس. ثمّ رجع إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات، وكان كريماً جواداً ممدحاً.

وذكر أن عثمان عزل عن الكوفة المغيرة وولاّها سعيد بن العاص، ثمّ عزله وولاّها الوليد بن عتبة، ثمّ عزله وولّى سعيد بن العاص، فأقام بها حيناً، ولم تحمد سيرته فيهم ولم يحبوه. ثمّ ركب مالك بن الحارث - وهو الأشتر النخعي - في جماعة إلى عثمان وسألوه أن يعزل عنهم سعيداً فلم يعزله. وكان عنده بالمدينة فبعثه إليهم، وسبق الأشتر إلى الكوفة فخطب الناس وحثّهم على منعه من الدخول إليهم. وركب الأشتر في جيش يمنعوه من الدخول، قيل تلقوه إلى العذيب، وقد نزل سعيد بالرعثة - فمنعوه من الدخول إليهم، ولم يزالوا به حتى ردّوه إلى عثمان. وولّى الأشتر أبا موسى الأشعري على الصلاة والثغر، وحذيفة بن اليمان على الفيء، فأجاز ذلك أهل الكوفة وبعثوا إلى عثمان في ذلك فأمضاه وسره ذلك فيما أظهره، ولكن هذا ما كان أول وهن دخل على عثمان. وأقام سعيد بن العاص بالمدينة حتى كان زمن حصر عثمان فكان عنده بالدار. ثمّ لما ركب طلحة والزبير مع عائشة من مكة يريدون قتلة عثمان ركب معهم، ثمّ انفرد عنهم هو والمغيرة بن شعبة وغيرهما، فأقام بالطائف حتى انقضت تلك الحروب كلّها. ثمّ ولاه معاوية إمرة المدينة سنة تسع وأربعين، وعزل مروان فأقام سبعاً ثمّ ردّ مروان.

وخطب يوماً فقال: من رزقه الله رزقاً حسناً فليكن أسعد الناس به، إنما يتركه لأحد رجلين، إما مُصلح فيسعد بما جمعت له وتخيب أنت، والمصلح لا يقلّ عليه شيء، وإما مفسد فلا يبقى له شيء، فقال أبو معاوية: جمع أبو عثمان طرف الكلام.

وروى الأصمعي عن حكيم بن قيس. قال: قال سعيد بن العاص: موطنان لا أستحيي من رفقي فيهما والتأني عندهما، مخاطبتي جاهلاً أو سفيهاً، وعند مسألتي حاجة لنفسي.

ودخلت عليه امرأة من العابدات وهو أمير الكوفة فأكرمها وأحسن إليها، فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت المنة لك في أعناق الكرام، وإذا أزال عن كريم نعمة جعلك سبباً لردها عليه.

وقد كان له عشرة من الولد ذكوراً وإناثاً، وكانت إحدى زوجاته أم البنين بنت الحكم ابن أبي العاص، أخت مروان بن الحكم.

ولّما حضرت سعيداً الوفاة جمع بنيه وقال لهم: لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم، وأكفوهم مؤنة الطلب. فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه مخافة أن يرده. فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعاً لحاجته أعظم منه عليكم مما تعطونه. ثمّ أوصاهم بوصايا كثيرة، منها أن يوفوا ما عليه من الدين والوعود، وأن لا يزوجوا إخوانهم إلاّ من الأكفاء، وأن يسودوا أكبرهم. فتكفّل بذلك كلّه ابنه عمرو بن سعيد الأشدق، فلما مات دفنه بالبقيع ثمّ ركب عمرو إلى معاوية فعزّاه فيه واسترجع معاوية وحزن عليه وقال: هل ترك من دَيْن عليه؟ قال: نعم! قال: وكم هو؟ قال: ثلاثمائة ألف درهم، وفي رواية ثلاثة آلاف درهم. فقال معاوية: هي عليّ، فقال ابنه: يا أمير المؤمنين، إنه أوصاني أن لا أقضي دينه إلاّ من ثمن أراضيه، فاشترى منه معاوية أراضي بمبلغ الدين. وسأل منه عمرو أن يحملها إلى المدينة فحملها له، ثمّ شرع عمرو يقضي ما على أبيه من الدين حتى لم يبق أحد. فكان من جملة من طالبه شاب معه رقعة من أديم[1] فيها عشرون ألفاً، فقال له عمرو: كيف استحققت هذه على أبي؟ فقال الشاب: إنّه كان يوماً يمشي وحده فأحببت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله،

(١) الأديم: الجلد.

فقال: ابغني رقعة من أدم، فذهبت إلى الجزارين فأتيته بهذه فكتب لي فيها هذا المبلغ، واعتذر بأنه ليس عنده اليوم شيء. فدفع إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئاً كثيراً. ويروى أن معاوية قال لعمرو بن سعيد: من ترك مثلك لم يمت، ثمّ قال: رحم الله أبا عثمان، ثمّ قال: قد مات من هو أكبر مني ومن هو أصغر مني».

٢ – عبد الله بن خازم

هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمي أبو صالح البصري أمير خراسان، أحد الشجعان المذكورين والفرسان المشكورين. قال الحافظ أبو الحجاج المزي في تهذيبه: ويقال له صحبة. روى عن النبي ﷺ في العمامة السوداء، وهو عند أبي داود والترمذي والنسائي، لكن لم يسموه. وروى عنه سعد بن عثمان الرازي وسعيد ابن الأزرق. روى أبو بشير الدولابي أنه قتل في سنة إحدى وسبعين. وقد ذكره أبو الحسن بن الأثير في الغابة في أسماء الصحابة، فقال: عبدالله بن خازم بن أسماء ابن الصلت بن حبيب بن حارثة بن هلال ابن سماك بن عوف بن امرىء القيس بن نهية بن سليم بن منصور، أبو صالح السلمي، أمير خراسان، شجاع مشهور، وبطل مذكور. وروى عنه سعيد بن الأزرق، وسعد بن عثمان، قيل إن له صحبة، وفتح سرخس. وكان أميراً على خراسان أيام فتنة ابن الزبير، وأول ما وليها سنة أربع وستين بعد موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية، وجرى له فيها حروب كثيرة حتى تمّ أمره بها. وقتل سنة إحدى وسبعين. وذكر ابن جرير في تاريخه أنه قتل سنة اثنتين وسبعين، قال: وزعم بعضهم أنه قتل بعد مقتل عبد الله بن الزبير، وأن عبد الملك بعث برأس ابن الزبير إلى ابن خازم بخراسان، وبعث يدعوه إلى طاعته وله خراسان عشر سنين، وأن ابن خازم لما رأى رأس ابن الزبير حلف لا يعطي عبد الملك طاعة أبداً. ودعا بطست فغسل ابن الزبير وكفنه وطيّبه وبعث به إلى أهله بالمدينة، ويقال بل دفنه عنده بخراسان والله أعلم.

وأطعم الكتاب للرسول الذي جاء به وقال: لولا أنك رسول لضربت عنقك،

وقال بعضهم: قطع يديه ورجليه وضرب عنقه.

٣ - الأحنف بن قيس

أبو معاوية بن حصين التميمي السعدي أبو بحر البصري ابن أخي صعصعة بن معاوية. والأحنف لقب له، وإنما اسمه الضحاك، وقيل صخر. أسلم في حياة النبيّ ﷺ ولم يره. وجاء في حديث أن رسول الله ﷺ دعا له، وكان سيداً شريفاً مطاعاً مؤمناً، عليم اللسان، وكان يضرب بحلمه المثل وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان، قال عنه عمر بن الخطاب: هو مؤمن عليم اللسان. وقال الحسن البصري: ما رأيت شريف قوم أفضل منه. وقال أحمد بن عبد الله العجلي: هو بصري تابعي ثقة، وكان سيد قومه، وكان أعور أحنف الرجلين[1] ذميماً قصيراً كوسجاً[2] له بيضة واحدة. احتبسه عمر عن قومه سنة يختبره، ثمّ قال: هذا والله السيد - أو قال: السؤدد - وقيل إنه خطب عند عمر فأعجبه منطقه. قيل ذهبت عينه بالجدري، وقيل في فتح سمرقند. وقال يعقوب بن سفيان: كان الأحنف جواداً حليماً، وكان رجلاً صالحاً. أدرك الجاهلية ثمّ أسلم، وذكر للنبي ﷺ فاستغفر له، وقال [محمّد بن سعد] كان ثقة مأموناً قليل الحديث، وكان كثير الصلاة بالليل، وكان يسرج المصباح ويصلّي ويبكي حتى الصباح وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول: حسّ يا أحنف، ما حملك على كذا؟ ما حملك على كذا، ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح فكيف تصبر على نار الكبرى؟ وقيل له: كيف سودك قومك وأنت أرذلهم خلقة؟ قال: لو عاب قومي الماء ما شربته. كان الأحنف من أمراء علي يوم صفين، وهو الذي صالح أهل بلخ على أربعمائة ألف دينار في كلّ سنة. وله وقائع مشهودة مشهورة، وقتل من أهل خراسان خلقاً كثيراً في القتال بينهما، وانتصر عليهم.

---

(١) احنف الرجلين: متباعد ما بين الرجلين.

(٢) الكوسج: من لا شعر على عارضيه والناقض الأسنان.

وقال الحاكم: وهو الذي افتتح مرو الروذ وكان الحسن وابن سيرين في جيشه. وهو الذي افتتح سمرقند وغيرها من البلاد. وقيل إنه مات سنة سبع وستين، وقيل غير ذلك، عن سبعين سنة، وقيل عن أكثر من ذلك.

ومن كلامه وقد سئل عن الحلم ما هو؟ فقال: الذل مع الصبر. وكان إذا تعجّب الناس من حلمه يقول: والله إني لأجد ما يجدون، ولكني صبور. وقال: وجدت الحلم أنصر لي.

الخلاصة

اعتبرت المعارك التي جرت على جبهة العراق وفارس من أهم المعارك التي خاضها العرب المسلمون ضد الامبراطوريات التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى. وتأتي أهمية جبهة العراق وفارس من أن المعارك عليها أنهت وجود الامبراطورية الساسانية التي كانت تدين بالزردشتية، وحوّلت هذه المنطقة إلى منطقة يسود فيها الإسلام وتطبق في أرجائها نصوص القرآن الكريم.

فالشعوب الفارسية أو الميدية التي بدأت تاريخها برعي ماشيتها منذ العام ٢٠٠٠ ق.م. في السهول المروية الواقعة شرقي بحر قزوين، والتي أسست مملكة منذ ذلك التاريخ عرف شعبها بـ«الآريين»، وسيطرت على بلاد ما بين النهرين وأخضعت القبائل العربية لسلطانها؛ هذه الشعوب أخضعها المسلمون بين السنة ١٢ هجرية والسنة ٣٢ هجرية أي في حقبة من الزمن لا تتعدّى العشرين سنة.

والمملكة الميدية التي بدأت بقورش العظيم الذي استولى على منطقة الشرق الأدنى منذ السنة ٥٤٠ق.م، زال حكم أحفاده مع بروز الدين الإسلامي الذي وحّد القبائل العربية وأطلقها في فتوحات لم تقتصر منطقتها على الشرق الأدنى، بل تعدّته إلى شمال افريقيا وشرق أوروبا وغرب آسيا.

وما يحيّر الباحث في الظروف والعوامل التي ساعدت العرب المسلمين على هذا الإنجاز الضخم هو أن هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي شهدت أحداثاً مأسوية ودموية، خاصة في رأس الهرم الإسلامي. ففي السنة الثانية لبدء العمليات

في العراق توفي النبي العربي ﷺ وكادت أن تحصل حرب أهلية بين أتباعه. ثمّ ارتدّت القبائل العربية في عهد خليفته الأول أبي بكر الصديق الذي اضطرته الحرب ضد المرتدين إلى إهمال جبهات القتال الخارجية.

وما كاد أبو بكر ينتهي من حروب الردة ويوجّه جيوش المسلمين إلى جبهتي الشام والعراق، حتى وافته المنيّة وتسلّم الحكم بعده الخليفة عمر بن الخطاب الذي أظهر مرونة وعبقرية وذكاء في توجيه القادة والجيوش على الجبهة العراقية والفارسية. ومما لا شكّ فيه أن السنين العشر التي أمضاها عمر بن الخطاب في الخلافة كانت أفضل السنين بالنسبة إلى الفتوحات في بلاد فارس.

لكن ذلك لم يستمرّ، إذ أنّ الخليفة عمر سقط شهيداً تحت ضربات خنجر أبي لؤلوة غلام المغيرة بن شعبة في العام ٢٣ للهجرة ليستلم الخلافة بعده عثمان بن عفان، الذي لم يكن يتمتع بنفس مواصفات الخليفة عمر. فعثمان كان مسنّاً ومحبّاً للسلام ومفضّلاً لأسرته على باقي المسلمين. لذلك فإن الدور الذي لعبه عمر بن الخطاب في الفتوحات لن يتمكّن عثمان من لعبه في الطريقة الناجحة نفسها، وهذا ما انعكس على إنجازات المسلمين في عهده الذي انتهى بثورة عليه أدت إلى مقتله.

بالإضافة إلى ذلك، ترافقت العمليات التي جرت على جبهة فارس مع عمليات أخرى على جبهات الشام ومصر وشمال افريقيا. فقد جرى خلال هذه الحقبة من الزمن فتح قبرص وإكمال الفتوحات في بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال افريقيا. كما ترافقت عمليات فارس مع انتفاضات وثورات وهجمات للروم على الحدود الشمالية لبلاد الشام، ما اضطر الخليفة إلى انتداب قسم من جيوش البصرة والكوفة لمساعدة معاوية بن أبي سفيان في حربه ضد الروم.

أما الفتنة الكبرى التي حصلت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان والحرب الأهلية التي قسمت العالم الإسلامي بين علي ومعاوية، فإن تأثيرها على معارك بلاد فارس كان ثانوياً إذ أن إخضاع كور ومدن تلك البلاد كان قد استكمل في عهد عثمان ابن عفان.

إنما، ورغم هذه الأحداث والصعوبات التي مرّت بالمسلمين خلال هذه المرحلة، فإنهم تابعوا فتوحاتهم وتابعوا إخضاع المدن التي نقضت شروط الصلح وتغلّبوا على جيوش فارسية تفوقهم عدداً وعدّة. وهنا نعود للتأكيد على أن العوامل التي ساعدت العرب في فتوحاتهم وفي إنجازاتهم العسكرية، كما سبق القول هي:

أ – اتحاد القبائل العربية بالإسلام وإنهاؤها لحياة الجاهلية والثأر والحروب بينها.

ب – تأكد هذه القبائل من صدق دعوة النبيّ ﷺ ومن مساعدة الله لهم لا سيما أن غالبية المعارك التي انتصروا فيها قد خاضوها بأقلية في العدد والعتاد.

ج – نشاط المقاتل العربي وخفة أحماله وانتقاله السريع وعدم تطلّبه الكثير من اللوجستية في حروبه. زد على ذلك مهارة العرب في ركوب الخيل والجمال والجري بها ورمي النبال الصائبة من على ظهورها.

د – بروز فئة من القادة الكبار الذين تدربوا على يدي النبي ﷺ والذين قادوا الجيوش الإسلامية المظفرة من نصر إلى نصر، وعدم تأثّر هؤلاء القادة بالتغييرات على مستوى قمة الهرم، بل متابعتهم معاركهم وحروبهم بالشدة والصبر والذكاء والتخطيط نفسها.

هـ – عدم وجود مرتزقة في الجيوش الإسلامية في وقت كانت الجيوش الفارسية تجمع من الولايات ويربط أفرادها بالحديد إلى بعضهم البعض كي لا يفرّوا من ميدان القتال.

و – الدعاية الحسنة للجيوش العربية لدى الشعوب التي تحاول إخضاعها، وذلك لجهة حسن معاملة المغلوبين وإمكانهم الاختيار بين الإسلام أو الجزية، وعدل القادة المسلمين الكبار الذين قادوا هذه الجيوش من نصر إلى نصر، ومن فتح إلى فتح. علاوة على ذلك، فإن المدن التي افتتحت صلحاً، كانت تبقى على أحوالها. فسكانها من غير المقاتلين كانوا يبقون في منازلهم ويملكون قطعانهم وأراضيهم الزراعية التي يستغلونها بأنفسهم، لا سيما أن العرب المسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم طبقة عسكرية مميزة لا تمارس الزراعة أو التجارة أو الصناعة.

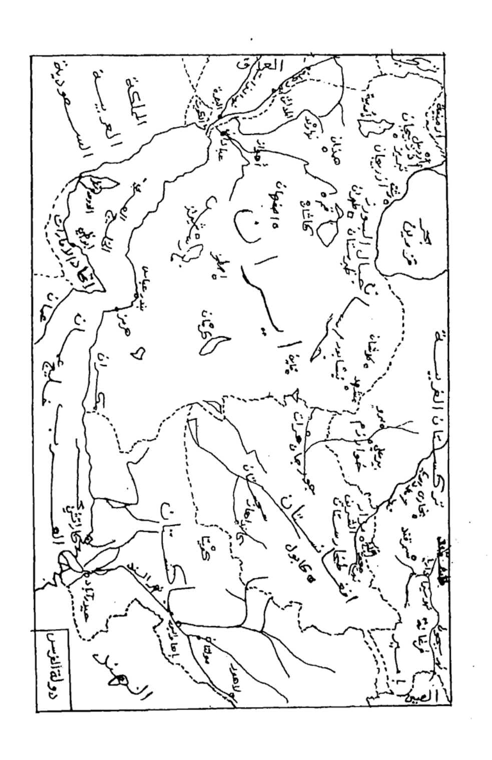
ز – نقمة رعايا الفرس على حكامهم بسبب سوء المعاملة وانحطاط الحال

الإجتماعية في مجتمعاتهم والحقد بين أهل البلاد الأصليين وحكامهم. هذا الحقد كان يدفع السكان الأصليين إلى التسليم للمسلمين وإعلامهم عن رغبتهم في فتح مدنهم صلحاً، وذلك عند فرار الحامية الفارسية أو حتى مع بقائها.

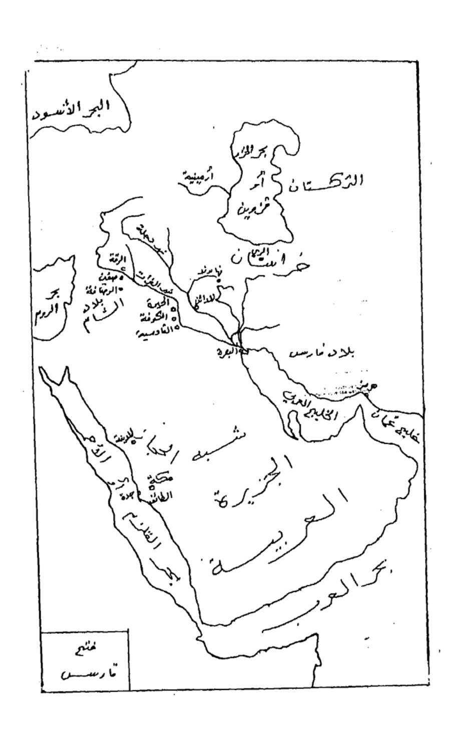
ح - خصب البلاد المفتتحة الذي كان يدفع المقاتلين المسلمين إلى القتال ببسالة لأن أربعة أخماس الغنائم كانت توزع عليهم، ومنها أموال ومواش وجوارٍ وغلمان وغير ذلك.

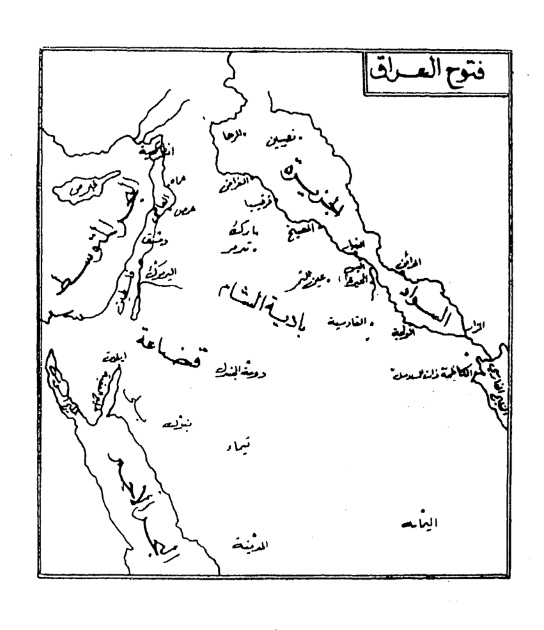
كلّ هذه الأسباب ساهمت في زعزعة كيان المملكة الفارسية على يد العرب المسلمين وساهمت في فتح بلاد فارس بكلّ أرجائها خلال مدّة عشرين سنة من الحروب والمعارك.

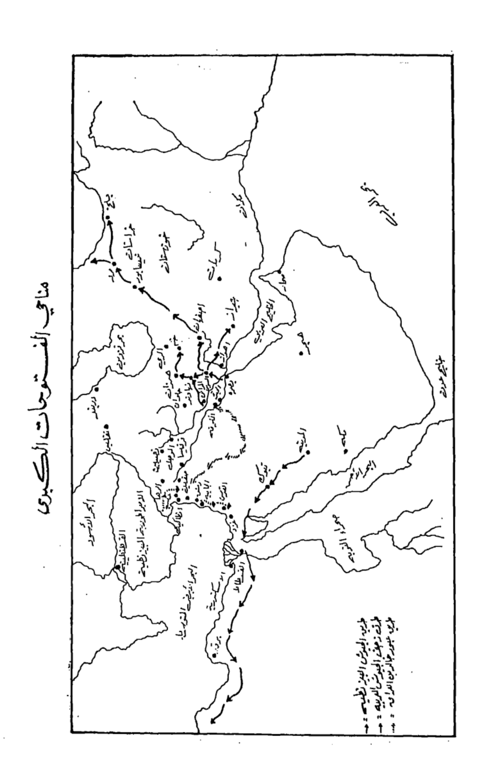
دولة الفرس



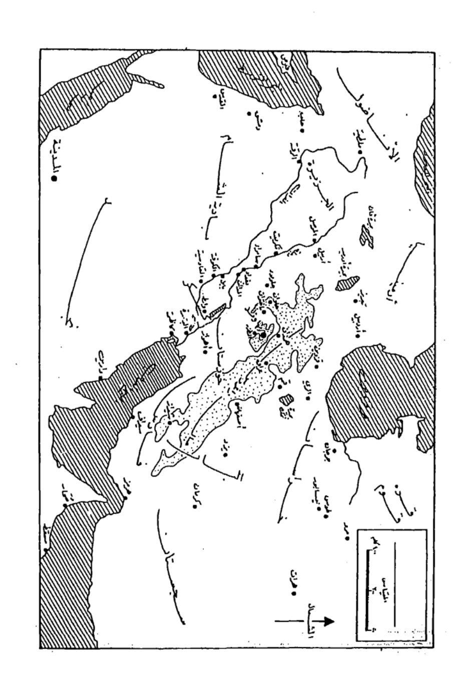
فتح فارس


البحر الأسود
بحر الخزر
أرمينية
التركستان
بحر الروم
بلاد الشام
دمشق
الحيرة
الكوفة
القادسية
البصرة
بلاد فارس
الخليج العربي
خليج عمان
مكة
الطائف
جدة
شبه الجزيرة العربية
بحر العرب
فتح فارس


فتوح العراق
نصيبين
الرها
الفراض
دمشق
حمص
اليرموك
تدمر
الحيرة
عين التمر
بادية الشام
القادسية
قضاعة
دومة الجندل
تبوك
تيماء
المدينة
اليمامة


مناحي الفتوحات الكبرى

خريطة العراق وفارس



فهرس الجزء (٥)

الخرائط:


Bibliotheca Alexandrina
0587021